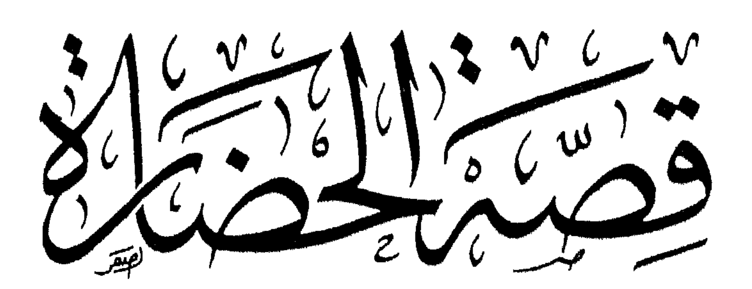

ول
وايرل ديورانت
قصة
الحضارة
27
الإصلاح الديني



ول وايريل ديورانت

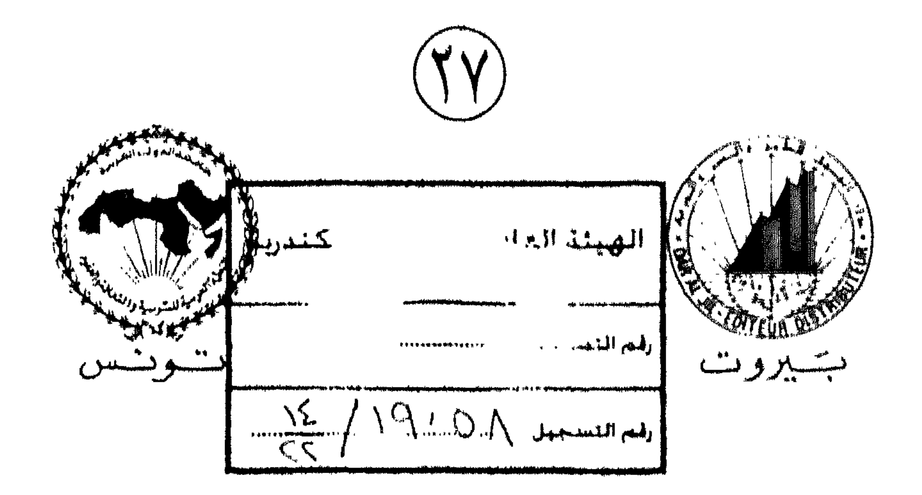
الإصلاح الديني

ترجمة
فؤاد أندراوس

مراجعة
علي أدهم

الجزء السادس من المجلد السادس

٢٧



دار الجيل : ص.ب: ٨٧٣٧ ـ ت: ٢٦٦١٥٨ ـ ٢٦٠٤١٥ ـ تلكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: دارجيلاب ـ بيروت ـ لبنان

فهرس

الجزء السادس من المجلد السادس

صفحة

صفحة

الكتاب الخامس

معارضة الإصلاح البروتستنتى

١٥١٧ — ٦٥

صفحة

الفصل الخامس والثلاثون

الأدب فى عصر رابليـــه

١٥١٧ — ٦٤

١ — فى صناعة الكتب

اتخذ حافز الإعلان عن النفس صورة جديدة بعد جوتنبرج . هى رغبة الكتاب الملحة فى طبع مؤلفاتهم . على أن هذا الحافز كان غالى الثمن ، لأن حق التأليف الوحيد المعروف آنئذ كان « الامتياز الخاص » الذى تمنحه السلطات المدنية أو الكنسية لطبع كتاب بعينه ، وهو منحة استثنائية ، بدونها كان فى استطاعة الناشرين المتنافسين ، حتى فى البلد الواحد ، أن يسطوا على أى أثر حين يشاءون ، وكان الناشر عادة — إذا راج الكتاب الذى ينشره — ينقد المؤلف أتعاباً ، ولكن المطبوعات الوحيدة تقريباً التى غلت من الربح ما يكفى لحصول المؤلف على أتعابه هى الروايات الشعبية ، وقصص السحر أو المعجزات ، والنشرات الجدلية التى كان شرط رواجها أن تحشى بالمطاعن . أما الكتب العلمية والثقافية فكانت محظوظة إن غطت نفقاتها . وكان الناشرون يشجعون المؤلفين على إهداء هذه الآثار إلى كبار رجال الدولة أو الكنيسة أو إلى أثرياء الأعيان والأشراف بأمل الحصول على منحة لقاء هذه الزلفى .

واجتمعت الطباعة والنشر عادة فى بيت واحد . وكان الرجل أو الأسرة المشتغلان بهما عنصراً حيوياً فى مدينتهما وجيلهما . أما الشهرة عن طريق الطباعة وحدها فقط فكانت نادرة ، وقد أفلح كاود جرامون الباريسى

فى إحرازها بنبذه حرف الطباعة « القوطى » الذى اتخذه الطباعون الألمان نقلا عن حروف المخطوطات ، وبتصميمه حرف طباعة « رومانياً » (حوالى ١٥٤٠) مبنيا على خط الكتابة الكارولنجى الصغير المنتشر فى القرن التاسع كما طوره الإنسانيون الإيطاليون والمطبعة الألدية : واختار الطباعون الفرنسيون والإنجليز هذا الحرف الرومانى ، أما الألمان فقد تمسكوا بالحرف القوطى حتى القرن التاسع عشر . وما زالت أنماط من حروف الطبع تحمل اسم جرامون .

وتزعمت ألمانيا العالم فى ميدان النشر . فقامت بيوت نشر نشيطة فى بازل وستراسبورج وأوجزبورج ونورمبرج وفتنبرج وكولونيا وليبزج وفرانكفورت ومجدبورج ؛ وكان الناشرون وتجار الكتب يلتقون مرتين كل عام فى سوق فرانكفورت ، فيشترون الكتب ويبيعونها ويتبادلون الأفكار . وأصدر طباع فرانكفورتى أول جريدة (١٥٤٨) ، وكانت ورقة توزع فى السوق وتروى آخر الأحداث . وأصبحت أنتورب مركزاً للنشر حين عمد كرستوفر بلانتن إلى دكان التجليد الذى يملكه فحوله إلى مطبعة (١٥٥٥) ، وبعد عامين أرسل ١٢٠٠ مجلد إلى سوق فرانكفورت . أما فى فرنسا فكانت ليون مركزاً لصناعة الكتاب ، وأتاحت لها مائتان من مؤسسات الطباعة أن تتحدى باريس بوصفها العاصمة الفكرية للبلاد .

وكان إتيين دوليه الطباع والأديب الإنسانى شعلة ليون المتأججة بالثورة . ولد فى أورليان ، وتلقى علومه فى باريس . ثم أولع بشيشرون . « إننى لا أستحسن سوى المسيح وتللى » . ولما سمع بأن الكفر يحظى بحرية غير عادية فى بادوا سارع إليها ، وهناك تبادل الشعر الساخر البذىء مع الشكاكين من المتأثرين بفلسفة ابن رشد : وفى تولوز أصبح الروح المحركة لجماعة حرة التفكير تهزأ بالبابويين واللوثريين على حد سواء . فلما نفى

قصد ليون وفيها اكتسب سمعة بكتابة الأشعار والمقالات . ولكنه قتل طباعاً أثناء احتدام الجدل بينهما ، ففر إلى باريس حيث حصلت له مارجريت النافارية على عفو من الملك . وهناك صادق مارو ورابليه ، ثم تشاجر معهما . ولما عاد إلى ليون أنشأ مطبعة وتخصص فى نشر الكتب المهرطقة ، واستدعته محكمة التفتيش ، وحاكمته وسجنته ، فهرب من السجن ، ولكن قبض عليه أثناء زيارته ابنه خفية ، وفى ٣ أغسطس ١٥٤٦ أحرق حياً .

أما أبرز الناشرين الفرنسيين فكانوا آل إتيين : وهم أسرة ثابرت على الطباعة مثابرة آل فوجير على التمويل . بدأ هنرى إتيين مطبعته فى باريس حوالى ١٥٠٠ ، وواصل العمل من بعده أبناؤه فرانسوا وروبير وشارل ، وإلى هؤلاء الأربعة تدين فرنسا بأفخر طبعاتها للآداب اليونانية واللاتينية . وصنف روبير قاموساً للغة اللاتينية (١٥٣٢) أصبح سنداً أساسياً لجميع القواميس اللاتينية الفرنسية التالية له . وغدت اللاتينية لغة ثانية لآل إتيين يتكلمونها بانتظام داخل الأسرة . وامتدح فرانسوا الأول عملهم وأيد مارجريت فى الدفاع عنهم ضد السوربون ، وحضر فى إحدى المناسبات اجتماعاً الفيف من الأدباء التقوا فى حانوت روبير . وفى رواية مشهورة أن الملك ظل ينتظر فى صبر ريثما يفرغ روبير من تصحيح تجربة طباعة عاجلة . وقدم فرانسوا المال الذى أتاح لروبير تكليف جرامون بتصميم وصب طقم طباعة جديداً للحروف اليونانية فيه من الجمال ما جعله نموذجاً لمعظم الطباعة اليونانية التالية . واستنكرت السوربون تلهى الملك بالثقافة الهيلينية ، وقال أحد أساتذتها يحذر « البرلمان » (١٥٣٩) « ان نشر معرفة اليونانية والعبرية سيعمل على تدمير الدين كله » . أما العبرية فكان رأى أحد الرهبان فيها « أنه من المعلوم جيداً أن كل من تعلموا العبرية أصبحوا من فورهم يهوداً . »(١) ولما لاحقت السوربون روبير وأرهقته طوال ثلاثين عاماً نقل مطبعته إلى

جنيف (١٥٥٢) وهناك أماط اللثام سنة وفاته (١٥٥٩) عن ميوله البروتستنتية بنشره طبعة من « مبادىء كالفن » . واحتفظ ابنه هنرى إتيين الثانى بسمعة الأسرة إذ أصدر فى باريس طبعات جميلة من الآداب القديمة ، وصنف معجماً للغة اليونانية (١٥٧٢) فى خمسة مجلدات لا تزال إلى يومنا أكمل المعاجم اليونانية قاطبة . غير أنه أثار حقد السوربون عليه بنشره كتاباً سماه « دفاع عن هيرودوت » (١٥٦٦) أشار فيه إلى النظائر من المعجزات المسيحية والعجائب الغريبة التى رواها المؤرخ اليونانى ولجأ هو الآخر إلى جنيف ، ولكنه وجد نظام الحكم الكالفنى لا يقل تعصباً عن السوربون .

وكثير من مطبوعات هذا العصر نماذج تحتذى فى الطبع والحفر والتجليد ، فقد حل محل الأغلفة نصف المعدنية ، الثقيلة ، الشائعة فى القرن الخامس عشر ، أغلفة أخف وزناً وأرخص ثمناً مصنوعة من الجلد أو الورق المتين أو الرق . ومن أمثلة هذا التقدم أن جان جروليبيه دسيرفيير ، وزير مالية فرنسا فى ١٥٣٤ ، كلف المجلدين بتجليد كتبه البالغ عددها ٣,٠٠٠ مجلد الماعز المشرقى تجليداً بلغ من الأناقة حداً يضعها فى صنف أجمل الكتب إطلاقاً . وغدت المكتبات الخاصة الآن لا حصر لها ، وفتحت المكتبات العامة فى كثير من المدن — مثل كركاو (١٥١٧) ، وهامبورج (١٥٢٩) ، ونورمبرج (١٥٣٨) ؛ وفى عهد فرانسوا الأول نقلت المكتبة الملكية القديمة التى جمعها شارل الثامن من اللوفر إلى فونتنبلو ، وأثرتها مجموعات جديدة من الكتب وأغلفة فاخرة ، وأصبحت هذه « المكتبة الملكية » بعد الثورة الفرنسية « المكتبة الأهلية » . وقد دمر كثير من المكتبات الديرية فى حركة الإصلاح البروتستنتى ، ولكن الكثير منها انتقل إلى أيدى الأفراد ووجد كل ثمين فيها طريقه إلى دور الكتب العامة . لقد ضاع فى التاريخ الكثير ، ولكن احتفظ بالكثير جداً مما له قيمته وليس فى استطاعة فرد ولو أوتى مائة عمر أن يستوعبه .

٢ — المدارس

كان من الطبيعى أن تعمد الثورة الفرنسية حيناً إلى تمزيق نظام غربى أوربا التعليمى لأنه جلّه كان خدمة تابعة للكنيسة ، ولم يكن فى الإمكان تحدى نفوذ رجال الدين التقليديين بنجاح ما لم تحطم هيمنتهم على التعليم . وقد أنحى لوثر باللوم على مدارس ذلك العهد الثانوية التى تركز على تعليم اللغات القديمة ، وقال إنها تعلم الطالب « من اللاتينية الرديئة ما يكفى لإعداده قسيساً وتمكينه من تلاوة القداس . . . ومع ذلك يظل طوال حياته جهولا مسكيناً لا يصلح لشيء »[٢] . أما الجامعات فبدت له مغارات للقتلة ، وهياكل للإله ملخ ، ومجامع للفساد « لم يظهر على الأرض . . . ولن يظهر . . . ما هو شر منها . » وخلص من هذا إلى أنها « لا تصلح إلا لهدمها وتسويتها بالتراب »[٣] . واتفق ملانكتون مع لوثر فى الرأى ، لأن الجامعات تحول طلابها إلى الوثنية[٤] . وتقبل الآباء الذين يضنون بنفقات تعليم أبنائهم ، رأى كارلشتات ، و« أنبياء » زفيكالو ، والقائلين بتجديد المعمودية ، فى غير تردد — وهو أن التعليم زخرف لا غناء فيه ، وخطر على الأخلاق ، ومعوق للخلاص . وكانت حجة بعض الآباء أنه ما دام التعليم الثانوى موجهاً إلى حد كبير لإعداد الطلاب ليكونوا قساوسة ، وما دامت هذه المهنة قد بارت سوقها ، إذن فليس من المنطق أن يبعثوا بأبنائهم إلى الجامعات .

كان دعاة الإصلاح البروتستنتى يتوقعون أن يفرد جانب من دخل الأملاك الكنسية التى استولت عليها الدولة لإنشاء مدارس جديدة تحل محل تلك الآخذة فى الزوال عقب إغلاق الأديار . ولكن « الأمراء والأشراف » على حد قول لوثر « شغلوا بشئون عالية وهامة — شئون كهف الخمور والمطبخ والمخدع ... فلم يعد لديهم متسع من الوقت » لمد يد المعونة إلى التعليم . وكتب يقول فى ١٥٢٤ « إن المدارس فى الولايات الألمانية تترك الآن فى كل مكان لتصبح خراباً يباباً »[٥] . وما وافى عام ١٥٣٠

حتى كان هو وملانكتون يرثيان ما أصاب الجامعات الألمانية من تدهور وانحلال(٦) . ففى إرفورت هبط عدد الملتحقين بالجامعة من ٣١١ فى عام ١٥٢٠ إلى ١٢٠ فى عام ١٥٢١ ، وإلى ٣٤ فى عام ١٥٢٤ ، وفى روستوك هبط العدد من ٣٠٠ فى عام ١٥١٧ إلى ١٥ فى عام ١٥٢٥ ؛ وفى هيدلبرج كان فى ذلك العام من الأساتذة عدد أكثر ممن كان فيها من الطلاب . وفى ١٥٢٦ لم يلتحق بجامعة بال سوى خمسة طلاب(٧) .

وجاهد لوثر وملانكتون لإصلاح ما فسد : فناشد لوثر فى « رسالته إلى العمد » (١٥٢٤) السلطات الزمنية أن تنشئ المدارس . وفى عام ١٥٣٠ تخطى زمانه بكثير فاقترح أن يقرر التعليم الأولى إجبارياً وأن يوفر للأطفال على حساب الدولة(٨) . أما الجامعات التي أعيد تأسيسها تدريجياً تحت الرعاية البروتستنتية فقد أوصى ببرنامج دراسة لها يتركز حول الكتاب المقدس . ولكنه يحوى أيضاً تعليم اللاتينية واليونانية والعبرية والألمانية والقانون والطب والتاريخ و « الشعراء والخطباء . . . الوثنيين منهم أو المسيحيين(٩) » . أما ملانكتون فقد جعل من إحياء التعليم مهمته الأولى . ففتح الكثير من المدارس تحت قيادته وبتشجيعه . وما وافت نهاية القرن السادس عشر حتى أصبح فى ألمانيا ٣٠٠ مدرسة . ثم وضع « خطة مدرسية » (١٥٢٧) لتنظيم المدارس والجامعات . وألف كتباً مدرسية فى النحو اللاتيني واليونانى . وفى البيان والمنطق وعلم النفس والأخلاق واللاهوت . ودرب آلاف الطلاب على الاضطلاع بالتعليم فى المعاهد الجديدة . وقد لقبه وطنه بمعلم ألمانيا اعترافاً بجميله . وانتقلت جامعات شمالى ألمانيا الواحدة تلو الأخرى إلى أيد بروتستنتية : فتنبرج (١٥٢٢) ، وماربورج (١٥٢٧) ، وتوبنجن (١٥٣٥) ، وليبزج (١٥٣٩) وكونجزبرج (١٥٤٤) ، وبينا (١٥٥٨) . وطرد الأساتذه أو الطلاب المعارضون « للعقيدة الإنجيلية الصادقة الصحيحة » كما قال أولريش دوق فورتمبرج . ومنع الكالفنيون من دخول الكليات اللوثرية ، والبروتستنت من دخول الجامعات التى لم تزل فى أيدى الكاثوليك . وتمكن القول بصمة

عامة إنه بعد صلح أوجزيبورج (١٥٥٥) حرم على الطلبة الألمان أن يختلفوا إلى المدارس التابعة لمذهب آخر غير الذى يدين به أمير المقاطعة[١٠].

هذا وقد أتيح للتعليم الجديد أن يحرز تقدماً هائلا على يد يوهان شتروم حين أنشأ مدرسة ثانوية «جمنازيوم» فى ستراسبورج (١٥٣٨). ونشر فى ذلك العام نبذة كان لها نفوذ كبير عنوانها «فى فتح مدارس الآداب بالطريقة الصحيحة». وكان ككثيرين غيره من زعماء الفكر فى وسط أوربا قد تلقى علومه على يد «إخوان الحياة المشتركة». ثم قصد لوفان وباريس حيث التقى برابليه. ولعل رسالة جارجانتوا الشهيرة فى التعليم صدى لتأثير الرجلين المتبادل. ومع أن شتروم يرى فى «التقوى المقترنة بالحكمة» الهدف الأول للتعليم، فانه أكد تأكيداً متزايداً أهمية دراسة اليونانية واللاتينية وآدابهما. وقد انتقلت هذه العناية والدقة فى تعليم الآداب القديمة إلى مدارس ألمانيا الثانوية التالية. فربت جيش العلماء والأدباء الذى غزا العالم القديم وقتله بحثاً وتنقيباً فى القرن التاسع عشر.

أما مدارس إنجلترة فقد قاست أكثر حتى من مدارس ألمانيا نتيجة للثورة الدينية. وذابت مدارس الكاتدرائيات والأديار والنقابات والأوقاف فى لهيب الهجوم على رذائل الكنيسة وتراثها. وكان أكثر طلاب الجامعات يفدون إليها من هذه المدارس. فلما توقف هذا السيل لم تخرج أكسفورد سوى ١٧٣ من حملة بكالوريوس الآداب. وكمبردج سوى ١٩١ فى عام ١٥٤٨، وفى عامى ١٥٤٧ و ١٥٥٠ لم تخرج أكسفورد منهم أحداً.[١١] وأحس هنرى الثامن بالمشكلة، ولكن حاجته إلى المال للحرب أو لزيجاته العديدة حدت من قدرته، فاكتفى بانشاء كلية ترنتى بكمبردج (١٥٤٦) وبتمويل كراس بمنح ملكية فى اللاهوت، والعبرية واليونانية، والطب، والقانون. وفى هذه الفترة قامت الهيئات الخاصة الخيرية بانشاء كلية كوربس كرستى، وكلية كرايست تشيرش، وكلية سانت جون، وكلية ترنتى

بأكسفورد ، وكلية ماجدلين بكمبردج . وقامت اللجنة الملكية التي أوفدها كرومويل إلى أكسفورد وكمبردج (١٥٣٥) اتستولى للملك على براءاتهما وأوقافهما باخضاع الكلية والمنهج للاشراف الحكومى . وهكذا قضى بضربة عاجلة على سلطان الفلسفة الكلامية فى إنجلترة ، وذرت فى الريح — حقيقة لا مجازاً — أعمال دنزسكوتس(١٢) ، ونحى القانون الكنسى جانباً ، وشجعت الدراسات اليونانية واللاتينية ، وصبغ المنهج بالصبغة العلمانية إلى حد كبير — ولكن الدماطيقية لم تمت . فقد اشترط قانون صدر فى ١٥٥٣ على جميع طلاب الدرجات الجامعية أن يتعهدوا كتابة بقبول « مواد الدين الانجليكانية » .

أما فى فرنسا وفلاندر الكاثوليكيتين فقد تدهورت الجامعات لا من حيث أوقافها وعدد طلابها ، بل من حيث قوة الحياة الفكرية وحريتها . وفتحت جامعات جديدة فى رامس ودواى وليل وبيزانسون . ونافست جامعة لوفان جامعة باريس فى عدد الطلاب (٥٠٠٠) ، وفى الدفاع عن لون من الكاثوليكية التقليدية بدا متطرفاً حتى فى نظر البابوات . وكان طلاب جامعة باريس كثيرين (٦٠٠٠) ، ولكنها لم تعد تجتذب أى عدد مذكور من الطلاب الأجانب أو تتسامح كما كانت تفعل إبان عنفوانها فى القرن الثالث عشر مع خميرة الأفكار الجديدة المنشطة . أما كلياتها فسيطرت عليها كلية اللاهوت — السوربون — حتى كاد يصبح هذا الاسم مرادفاً لاسم الجامعة . ورأى مونتيني فى منهج اللاهوت والآداب القديمة المنقاة نمطاً سطحياً من الاستذكار والامتثال . أما رابليه فلم يتعب من ذم الشكليات المدرسية والتدريبات المنطقية السائدة فى السوربون ، وضياع سنى الدراسة فى مناظرات أبعدت فى حرص عن الاهتمام الفعلى بالحياة الإنسانية . وأما كليمان مارو فقد صرح بقوله « إننى على استعداد للتضحية عن طيب خاطر بنصيبي فى الجنة لو أن هؤلاء الوحوش الكبار (أى

الأساتذة) لم يدمروا شبابى »[١٣] . ووجهت قوة الجامعة وسلطانها كله ، لا لمقاومة البروتستنت الفرنسيين فحسب ، بل الإنسانيين الفرنسيين أيضاً .

وبذل فرانسوا الأول ما وسعه لحماية الثقافة الفرنسية من مثبطات المحافظين المنبعثة من السوربون . وكان قد شرب من خمر إيطاليا والتقى ببعض رجال الكنيسة ممن تعمقوا أدب اليونان والرومان . وبحض من جيوم بوديه ، والكردينال جان دبليه ، ومارجريت المثابرة فى غير كلل — قدم المال لإنشاء مدرسة مستقلة عن الجامعة (١٥٢٩) ، متفرغة بوجه خاص للدراسات الإنسانية . وبدئ بتعيين أربعة من «الأساتذة الملكيين » اثنان منهم لليونانية واثنان للعبرية ، وسرعان ما أضيفت كراس للاتينية والرياضيات والطب والفلسفة . وكان التعليم فيها مجاناً[١٤] . وأصبحت هذه « الكلية الملكية » التى عدل اسمها فيما بعد إلى «كلية فرنسا » باعثة النشاط فى الدراسات الإنسانية الفرنسية ، وملاذ العقل الفرنسى الذى يجمع بين الحرية والنظام .

أما أسبانيا فقد قيض لها جامعات ممتازة برغم تحمس الدولة للكاثوليكية التقليدية ، فكان عددها أربع عشرة عام ١٥٥٣ ، شملت ما أسس منها حديثاً فى طليطلة وسنتياجو وغرناطة . أما جامعة سلامنكا التى ضمت سبعين أستاذاً و ٦٧٧٨ طالباً فى عام ١٥٨٤ فتثبت للمقارنة بأية جامعة أخرى من جامعات ذلك العهد . وأما جامعات إيطاليا فقد واصلت ازدهارها . فكان لجامعة بولونيا فى ١٥٤٣ سبعة وخمسون أستاذاً بكلية الآداب ، وسبعة وثلاثون بكلية الحقوق ، وخمسة عشر بكلية الطب ه وكانت بادوا مقصد الطلاب المغامرين الوافدين من شمال الألب ه وقدمت بولنده الدليل على عصرها الذهبى بقبولها ١٥٫٣٣٨ طالباً دفعة واحدة فى جامعة كركاو[١٥] ، وفى بوزنان خصص « اللوبرانسكيانوم » الذى أنشأه الأسقف يوحنا لوبرانسكى (١٥١٩) للأبحاث والدراسات الإنسانية ه

ويمكن القول على الجملة أن الجامعات فى البلاد الكاثوليكية أوفر حظاً منها فى البلاد البروتستنية فى هذا القرن العنيف .

على أن المعلم لم يلق ما هو خليق به من تقدير . وكان مغموط الأجر إلى حد أليم . كان الأستاذ فى « الكلية الملكية » بفرنسا يتقاضى ٢٠٠ كراون فى العام (٥٠٠٠ دولار؟) . ولكن هذا كان استثناء نادراً . وكان الأساتذة فى جامعة سلامنكا يختارهم الطلاب بعد فترة اختبار يعرض فيها الأساتذة المتنافسون عينات من محاضراتهم . وكان أكثر التعليم بالمحاضرات . وأحياناً تضفى عليها الحياة بالمناظرات . وكان أخذ المذكرات يحل عند كثير من الطلبة محل الكتب الدراسية . أما القواميس فنادرة . وأما المعامل فمجهولة عملياً إلا للمشتغلين بالكيمياء القديمة . وكان الطلاب يسكنون حجرات رخيصة سيئة التدفئة ويقعون فريسة للمرض بسبب قذارة الطعام ونقصه . وكان كثير منهم يشتغلون لتغطية نفقات الكلية . وتبدأ الفصول فى السادسة صباحاً وتنتهى فى الخامسة بعد الظهر . وكان النظام صارماً ، يجوز بمقتضاه جلد الطلبة حتى من قارب منهم التخرج . وكان الطلاب يلتمسون الدفء فى مشاجرات الشوارع وفى كئوس النبيذ وأحضان البغايا إذا تيسر لهم المال . وهكذا كانوا بطريقة أو بأخرى يحصلون قسطاً محدوداً من التعليم .

أما فتيات الطبقات الدنيا فظللن أميات ، وكان كثيرات من بنات الطبقات الوسطى يظفرن بتعليم مدرسى متواضع فى أديار الراهبات . أما الفتيات الغنيات فلهن مربون خصوصيون . وقد فاخرت هولندة بعدة سيدات يمكن مغازلتهن باللاتينية ، وربما يستطعن تصريف الأفعال خيراً من تصريف الأسماء والضمائر والصفات . واشتهرت فى ألمانيا زوجة يوتنجر وشقيقات بركهيمر وبناته بثقافتهن . وفى فرنسا كانت النساء المحيطات بالملك فرانسوا يجملن عبارات الغزل بمحسنات يقتبسنها من الآداب القديمة .

وفى إنجلترة كانت بعض النساء المثقفات — كبنات مور ، وجين جراى ، و « مارى الدموية » ؛ وإليزابيث — مضرب المثل فى سعة المعرفة والاطلاع .

وينتمى إلى هذا العصر معلمان شهيران . أما أقلهما شأناً فهو السير توماس إليوت ، الذى وضع فى كتابه « الحاكم » (١٥١٣) خطة تعليم تيسر إعداد الطلاب العريقى النسب للاشتغال بشئون الحكم . وقد بدأ كتابه بنقد الفجاجة الثقافية التى يتردى فيها نبلاء الإنجليز ، وقارنها بما روى عن ثقافة رجال الأعمال عند اليونان والرومان ، ونقل ما روى عن الفيلسوف الكلبى ديوجين « حين رأى رجلا جاهلا جالساً على حجر فقال : انظر كيف يجلس حجر على حجر »(١٦) .

وفى رأى إليوت أن الصبى متى بلغ السابعة يجب أن يعهد به إلى مرب يختار بعناية ، فيعلمه مبادئ الموسيقى والتصوير والنحت ؛ حتى إذا ناهز الرابعة عشرة تعلم وصف الكون والمنطق والتاريخ ، ودرب على المصارعة والصيد والرمى بالقوس الطويل والسباحة والتنس ، دون كرة القدم لأنها لعبة سوقية « ليس فيها غير الثورة الوحشية والعنف الظاهر » . ويجب أن يعلم الصبى الآداب القديمة فى كل مرحلة من مراحل تعليمه — فيبدأ بالشعراء ، ثم المؤرخين ، ثم القواد ، ثم الفلاسفة ، ويضيف إليوت إلى هذا الكتاب المقدس ، وتكاد الإضافة تبدو فكرة لاحقة ؛ وهو بهذا يعكس الخطة التعليمية التى وضعها لوثر . ويفضل إليوت الآداب القديمة على الكتاب المقدس برغم توكيداته . فهو يقول « رباه ، يا لها من حلاوة لا نظير لها فى كلمات كتب أفلاطون وشيشرون ، وفى مادة هذه الكتب التى جمعت بين الرزانة والعذوبة ، واقترنت فيها الحكمة الرائعة بالبلاغة الإلهية ، والفضيلة المطلقة باللذة التى لا تصدق » ، وهكذا « فان هذه الكتب تكاد تكفى فى ذاتها لإعداد الحاكم الكامل الممتاز (١٧) »

أما ثانى المعلمين وهو جوان فيف ، أكثر الأدباء الإنسانيين إنسانية ،

فقد اختط هدفاً أوسع وترسم طريقاً أرحب . ولد فى بلنسيه فى ١٤٩٢ . ورحل عن أسبانيا وهو فى السابعة عشرة ، ولم يرها بعد ذلك قط . وقد درس فى باريس فترة أتاحت له حب الفلسفة واحتقار الفلسفة الكلامية . وحين بلغ السادسة والعشرين ألف أول تاريخ حديث للفلسفة . وفى السنة ذاتها تحدى الجامعات بهجوم على الطرائق السكولاستية فى تعليم الفلسفة . فقد شعر بأن خطة النهوض بالفكر بطريق المناظرة لا تشجع إلا الشجار العقيم حول مسائل لا وزن لها . ورحب إرزمس بالكتاب وأوصى مور بأن يقرأه ، وقال فى أدب إنه يخشى أن « يحجب . . فيف . . إرزمس .[١٨] » وعين فيف أستاذاً للدراسات الإنسانية فى لوفان (١٥١٩) ربما بنفوذ إرزمس . ثم نشر بتشجيع إرزمس طبعة من كتاب أوغسطين « مدينة الله » عليها شروح ضافية وأهداها إلى هنرى الثامن . وتلقى منه رداً رأى فيه من الود ما حمله على الانتقال إلى إنجلترا (١٥٢٣) . ورحب به مور والملكة كاترين التى تنتمى إلى وطنه (أسبانيا) . وعينه هنرى واحداً من أساتذة الأميرة مارى الخصوصيين . وربما ألف كتابه « فى تربية الأطفال » لإرشادها (١٥٢٣) . وسارت الأمور على ما يرام إلى أن أعرب عن استنكاره لطلب هنرى فسخ زواجه . فأوقف هذا راتبه واعتقله فى بيته ستة أسابيع ٥ ولما أطلق سراحه عاد إلى بروج (١٥٢٨) وهناك أنفق سنى حياته الباقية ٥

وإذ ظل مثالياً وهو فى السابعة والثلاثين فقد وجه إلى شارل الخامس نداء إرزمياً يدعوه فيه إلى إنشاء محكمة دولية للتحكيم بديلا عن الحرب (١٥٢٩) وبعد عامين أصدر أكبر كتبه ، وهو أكثر رسائل النهضة الأوربية التعليمية تقدماً ، وفيه دعا إلى تعليم موجه إلى « ضروريات الحياة ، وإلى شىء من النهوض سواء بالجسد أو العقل ، وإلى تربية الاحترام وزيادته[١٩] » وقال

إن على التلميذ أن يدخل المدرسة « كأنه يدخل هيكلا مقدساً » ولكن دراسته فيها يجب أن تعده ليكون مواطناً كريماً نافعاً ، وأن تغطى هذه الدراسات الحياة بأسرها مع مراعاة اتصالها بعضها ببعض كما تؤدى وظائفها فى الحياة . ويجب أن تدرس الطبيعة كما تدرس الكتب ، فالأشياء تعلم الطالب أكثر مما تعلمه النظريات ، فليلاحظ إذن العروق والأعصاب والعظام وسائر أعضاء الجسم فى تشريحها وفى أداء وظائفها . وليسأل المزارعين والصيادين والرعاة والبستانيين ، وليفد من خبراتهم ، فان هذه المعلومات التى يلتقطها ستكون أنفع له من « الثرثرة السكولاستية التى أفسدت كل فروع المعرفة باسم المنطق »(٢٠) . وينبغى أن تظل الدراسات القديمة المنقاة خصيصاً للشباب جزءاً حيوياً من المنهج ، ولكن يجب أن يدرس أيضاً التاريخ الحديث والجغرافيا . كذلك يجب أن تدرس اللغات القومية كما تدرس اللاتينية ، وكل هذا بالطريقة المباشرة المستعملة فى الحياة اليومية .

لقد كان فيف متقدماً جداً على جيله ، فلم يفطن إليه ذلك الجيل ، وتركه يموت فقيراً ، وقد ظل كاثوليكياً إلى النهاية .

٣ — العلماء

كانت المهمة المميزة للجامعات والأكاديميات والعلماء الإنسانيين فى عصر النهضة هى جمع تراث العالم القديم ، عالم اليونان والرومان ، وترجمته ونقله إلى جيل الشباب فى أوربا الحديثة . وقد أنجزت هذه المهمة على وجه رائع ، وكان الكشف عن وحى العالم القديم كاملا .

بقى رجلان يجب أن نخلد ذكرهما كاهنين لهذا الوحى . وأول الرجلين هو جيوم بوديه ، الذى بلغ الثانية والستين وهو يعلل النفس بأن يجعل باريس وارثة للدراسات الإنسانية الإيطالية . ثم رأى هذا الأمل يتحقق

حين أنشأ فرانسوا الكلية الملكية . وقد بدأ بوديه دراساته فى كبره يدرس القانون ، فظل زهاء عشر سنوات يدفن نفسه فى « قوانين جستنيان » . ورغبة فى تفهم هذه النصوص تفهماً أفضل ، وهى لاتينية اللغة بيزنطية المعانى ، راح يدرس اليونانية على يوحنا لاسكارس ، ويدرسها فى إخلاص وتفان حملا مدرسه عند رحيله أن يوصى له بمكتبته الثمينة العامرة بالكتب اليونانية . فلما نشر وهو فى الحادية والأربعين كتابه Annotationes in xxiv libros Pandectarum (١٥٠٨) توفرت نادرة الأولى فى فقه النهضة ، دراسة لخلاصة جستنيان تستهدف هذه الخلاصة ذاتها وبيئتها ، بدلا من أن تنحيها هوامش الشراح لعباراتها . وبعد ست سنوات أصدر أثراً جليلا آخر من آثار البحث العميق (De asse et Partibus) وهو فى ظاهره نقاش للعملات والمقاييس القديمة . ولكنه فى حقيقته درس شامل للأدب القديم فيما يتصل بالحياة الاقتصادية ؛ وأوقع من هذا « تعليقاته على اللغة اليونانية » (١٥٢٩) ، وهو كتاب مفكك الترتيب ، ولكنه غنى بالمعلومات والإرشادات المعجمية ، بحيث وضع بوديه على رأس جميع الهيلنستيين الأوربيين . وأرسل له رابليه خطاباً أعرب فيه عن احترامه وتقديره . أما إرزمس فكانت تحيته له أنه غار منه . لقد كان إرزمس رجل دنيا ولم يكن الدرس إلا جزءاً من الحياة عنده . أما بوديه فكان الدرس والحياة عنده شيئاً واحداً . كتب يقول : إن فقه اللغة هو الذى ظل طويلا رفيقاً وشريكاً لى ، بل كان لى الخليلة التى ارتبطت بى بكل مواثيق الحب ... ولكننى اضطررت إلى إرخاء ربط هذا الحب الذى ينهشنى ... حتى كاد يدمر صحتى(٢١) » . وكان نخزته أن يضطر إلى اقتناص بعض الوقت من دراساته ليأكل وينام . وفى لحظات لهوه تزوج وأنجب أحد عشر طفلا . وفى الصورة التى رسمها له جان كاويه (المحفوظة بمتحف الفن المتروبولتانى فى نيويورك) تبدو عليه مسحة من تشاؤم .

ولكن فرانسوا الأول لا بد قد وجد فيه شيئاً من الحيوية لأنه عينه أميناً لمكتبة فونتنبلو ، وكان يحب أن يكون هذا العالم العجوز قريباً منه حتى فى رحلاته ؛ وفى إحدى هذه الرحلات مرض بوديه بالحمى ، وقد ترك تعليمات دقيقة بألا يصحب جنازته أى إحتفال . وفارق هذه الدنيا فى هدوء (١٥٤٠) . أما الأثر الذى خلده فهو كلية فرنسا ؛

ولم تكن باريس إبان حياته قد استوعبت بعد الحياة الثقافية لفرنسا : كان للدراسات الإنسانية اثنا عشر وطناً فرنسياً : منها بورج وبوردو ومونبلييه ، وأهم من هذه كلها ليون ، التى امتزج فيها الحب والدراسات الإنسانية ، ونساء الطبقة الراقية والأدب ، امتزاجاً ساراً مبهجاً . وفى آجن ، التى ما كان أحد ليبحث فيها عن إمبراطور ، هيمن يوليوس قيصر سكاليجر على مسرح فقه اللغة بعد موت بوديه هيمنة الإمبراطور المستبد . ولعل بادوا مسقط رأسه (١٤٨٤) . وقد وفد على آجن وهو فى الحادية والأربعين ، وفيها عاش حتى مات (١٥٥٨) . وكان كل العلماء يخشون بأسه لشدة تمكنه من لغة القدح اللاتينية ، وقد اكتسب شهرة حين هاجم إرزمس لغضه من شأن « الشيشرونيين » أى المتمسكين باللاتينية شيشرون دون غيرها . وانتقد رابليه ، ثم انتقد دوليه لانتقاده رابليه . وفى مجلد من كتابه Exercitationes فحص كتاب جيروم كاردان De subtilitate وأخذ على عاتقه أن يثبت أن كل ما أكده الكتاب زائف ، وكل ما أنكره صحيح . وكان كتابه فى النحو اللاتينى أول أجرومية لاتينية مبنية على مبادئ علمية . أما تعليقاته على أبقراط وأرسطو فممتازة ، سواء من حيث أسلوبها أو من حيث إسهامها فى العلم . وكان ليوليوس خمسة عشر طفلا أصبح أحدهم أعظم علماء الجيل التالى . وقد أسهم كتاب يوليوس Poetice الذى نشر بعد موته بأربع سنوات ، وما قام به ولده من دراسات ، وما أثر به الإيطاليون الذين

تبعوا كاترين مديتشى إلى فرنسا — كل هذا أسهم فى تحويل تيار الدراسات الإنسانية الفرنسية وردها من الدراسات اليونانية إلى اللاتينية .

وقد أهدت حركة إحياء الدراسات اليونانية للثقافة عطاء ممتازاً هو ترجمة أميو لكتاب بلوتارخ « التراجم » . كان أميو أحد الرجال الكثيرين الذين حظوا برعاية مارجريت . وقد عين بنفوذها أستاذاً لكرسى اليونانية واللاتينية فى بورج . وكوفئ على ترجماته لدافنيس وخلوا وغيرها من قصص الحب اليونانية ، على طريقة ذلك العصر العجيبة السخية ، بمنحه رئاسة دير غنى . وإذ كفل له الرزق على هذا النحو تنقل كثيراً بين أرجاء إيطاليا إرضاء لميوله الأثرية واللغوية . ولما نشر كتابه « التراجم » (١٥٥٩) قدم له بدعوة بليغة لدراسة التاريخ بوصفه « خزانة البشرية » ، والمتحف الذى يحتفظ بمثات الأمثلة للفضيلة والرذيلة ، وللحكم الصالح والطالح ، ليسترشد بها بنو البشر ؛ وكان كتابليون يرى كتاب بلوتارخ فى التاريخ معلماً للفلسفة خيراً من الفلسفة ذاتها . ومع هذا فقد اضطلع بعد هذا بترجمة كتاب بلوتارخ Moralia أيضاً ، وقد رقى إلى أسقفية أوجزير ، ومات هناك معمراً فى الثمانين (١٥٩٣) . أما ترجمته لكتاب بلوتارخ « التراجم » فلم تكن صحيحة دقيقة فى كل جزء منها ، ولكنها كانت أثراً أدبياً فى ذاته ، تميز بأسلوب طبيعى فردى لا يقل عن أسلوب الأصل . أما تأثيره فكان هائلا . وقد استمتع به مونتينى أيما استمتاع ، وانصرف عن فرنسا القديس بارتلميو إلى هذا الأثر القديم الذى أضفت عليه الترجمة روعة وسموا . واختار شكسبير ثلاث تمثيليات من ترجمة نورث القوية المنقولة عن ترجمة أميو ، وأصبح المثال الذى رسمه بلوتارخ للبطل نموذجاً حاكاه عشرات الثوار وكتاب المسرحيات . وأعطى هذا الكتاب Vies des hommes illustres للأمة مجمعاً من الأبطال المشهورين خليقاً بأن يحرك ما تنطوى عليه الروح الفرنسية من الفضائل الأكثر رجولة وأشد قوة .

٤ — النهضة الفرنسية (الميلاد الجديد)

من الأشياء المألوفة والمغتفرة أن تطلق عبارة « الميلاد الجديد » ، وهى عبارة حافلة بالمعانى الإضافية ، على الفترة الممتدة بين ارتقاء فرانسوا الأول العرش (١٥١٥) واغتيال هنرى الرابع (١٦١٠) . كان هذا الازدهار البهى للشعر والنثر والعادات الاجتماعية والفنون والملابس الفرنسية فى جوهره نضجاً أكثر منه ميلاداً جديداً . فقداستطاع الاقتصاد الفرنسى والروح الفرنسية أن يفيقا من حرب المائة عام بفضل ما أتيح للناس من مرونة صابرة وما استجد من نمو التربة التى ألقيت فيها البذار حديثاً . وكان لويس الحادى عشر قد منح فرنسا حكومة منظمة ممركزة قوية ، ومنحها لويس الثانى عشر عقداً مثمراً من السلام . وظلت إبداعية العصر القوطى الحرة ، الطليقة ، الغريبة الأطوار ، حية متوازنة غالبة على رابليه ، الذى بلغ إعجابه بالآداب القديمة مبلغاً جعله يقتبس منها كلها تقريباً . ولكن اليقظة الكبرى كانت كذلك ميلاداً جديداً . فقد تأثر الأدب والفن الفرنسيان تأثراً لا ريب فيه بما أتيح لها من علم أوثق بالثقافة القديمة والأشكال الكلاسكية . واستمرت هذه الأشكال وهذا المزاج الكلاسيكى — الذى يغلب الفكر المنظم على العاطفة المشبوبة — فى الدراما والشعر والتصوير والنحت و المعمار الفرنسى زهاء ثلاثة قرون . أما العوامل المخصبة فى هذا الميلاد الجديد فهى الكشف والغزو الفرنسيان لإيطاليا ، والدراسة الفرنسية للآثار والفقه والآداب الرومانية وللآداب والفنون الإيطالية ، وتدفق الفنانين والشعراء الإيطاليين على فرنسا . وأسهمت عوامل كثيرة أخرى فى بلوغ هذه النهاية السعيدة : كالطباعة ونشر النصوص القديمة وترجمتها ، والرعاية التى حظى بها العلماء والشعراء والفنانون من الملوك الفرنسيين ومن عشيقاتهم ومن مارجريت النافارية ومن رجال الكنيسة والأشراف ، ومن إلهام النساء القادرات

على تذوق ألوان أخرى من الجمال غير جمالهن . كل هذه العناصر تضافرت للعمل على ازدهار فرنسا .

كان لفرانسوا الأول — الوريث لهذا التراث كله — تابع هو الشاعر الذى أدى مهمة الانتقال من القوطى إلى الكلاسيكى ومن فيون إلى النهضة . دخل هذا الشاعر — واسمه كليمان مارو — التاريخ صبياً مرحاً فى الثالثة عشرة يروح عن الملك بالقصص الظريفة والردود الذكية البارعة. وبعد سنوات هش فرانسوا لأنباء مغامرات الفتى ومشاجراته مع « جميع سيدات باريس » ، فقد وافقه على أنهن فى الحق فاتنات جداً .

« إن المرأة الفرنسـية كاملة لا عيب فيهـا
فالسرور رائدهـا ، وهى لا تعبـأ بالمال .
والفرنسيات — مهما قلت فيهن أو سخرت منهن —
هن أروع أعمـال الطبيعـة »(٢٢) .

كان مارو يثرثر بالشعر كأنه النبع الفوار ، وقلما اتصف شعره بالعمق ، ولكنه كان فى الكثير الغالب مشوباً بالعاطفة الرقيقة . كان شعر مناسبات ، وحديثاً فى أبيات قصيرة ، أو أغنيات شعبية ، أو قصائد غزلية صغيرة ، أو أغنيات ذوات لوازم متكررة ، أو هجائيات ورسائل تذكرك بهوراس أو مارتيال ، وقد لاحظ فى شىء من الغيظ أن النساء (برغم اعتراضه على هذا السلوك) يسهل إغراؤهن بالماس أكثر من القصائد العاطفية :

« حين تجد الغوانى عشيقاً ثرياً يلوح بماسة أمام عيونهن الضاحكة الخضراء فإن رءوسهن تدور . أتضحك مما أقول ؟ ملعون من يخطئ هنا . فالفضيلة العظمى لهذا الحجر الكريم هى التى تنشر الضباب أمام عيونهن. وإن عطايا وهدايا كهذه لأفضل من الجمال والحكمة والتوسلات . إنها تنوم الوصيفات ، وتفتح الأبواب الموصدة كأنها السحر . وتعمى

عيون المبصرين ، وتسكت نباح الكلاب . والآن أما زلت تكذبنى ؟ » .

وفى ١٥١٩ أصبح مارو وصيفاً خاصاً لمارجريت ووقع فى غرامها ممتثلا ، وذكرت الأقاويل أنها بثته شكوى بشكوى ، وأكبر الظن أنه لم ينل منها غير مذهبها . فقد عود نفسه الآن على التعاطف المعتدل مع قضية البروتستنت فى فترات غرامياته . وتبع فرانسوا إلى إيطاليا ، وحارب فى بافيا وأبلى فيها بلاء الأبطال ، ونال شرف الأسر مع مليكه ، ثم أطلق سراحه — ولا عجب ، فان أحداً لا يتوقع أن يفتدى شاعر بالمال . ولما عاد إلى فرنسا جهر بأفكاره البروتستنتية فى صراحة حملت أسقف شارتر على أن يستدعيه ويعتقله اعتقالا كريماً فى القصر الأسقفى . ثم أطلق سراحه بشفاعة مارجريت . ولكن سرعان ما قبض عليه لمساعدته المسجونين على الفرار من البوليس . وأطلق فرانسوا سراحه بكفالة وأخذه إلى بايون ليتغنى بمفاتن عروسه الجديدة إليانور البرتغالية . وبعد أن قضى فى السجن فترة أخرى لأكله لحم الخنزير فى الصوم الكبير تبع مارجريت إلى كاوُر ونيراك .

وسرعان ما تجددت الحملة على البروتستنت الفرنسيين نتيجة لحركة الملصقات . ونمى إلى مارو أن مسكنه فى باريس فتش ، وأن أمراً صدر بالقبض عليه (١٥٣٥) . وخاف ألا يجد مخبأ يكفى لإخفائه ولو كان مخدع مارجريت . ففر إلى إيطاليا لاجئاً إلى الدوقة رينيه فى فررا . ورحبت به الدوقة ، كأن فرجيلا جديداً قد وصل من مانتوا . ولعلها كانت تعلم أنه يحب أن يربط اسمه باسم بوبليوس فرجيليوس مارو . ولكنه كان أكثر شبهاً بأوفيد العاشق المرح . أو بشاعره المفضل فيون . الذى أشرف على نشر قصائده . وترسم خطاه فى حياته . ولما أذاع الدوق إركولى الثانى أنه اكتظ بالبروتستنت . انتقل كليمان إلى البندقية . وهناك بلغه أن فرانسوا عرض العفو عن المهرطقين المرتدين

عن ضلالهم . فأعلن مارو ارتداده ، لأنه رأى أن نساء باريس جديرات بتضحية العقيدة . ومنحه الملك بيتاً وحديقة ، وحاول كليمان أن يعيش عيشة السادة البورجوازيين .

ثم طلب إليه فرانسوا فاتابل الذى كان يدرس العبرية فى الكلية الملكية أن يترجم المزامير شعراً فرنسياً ، وشرحها له كلمة كلمة . فترجمها شعراً رخيماً ونشرها مشفوعة باهداء جميل العبارة إلى الملك . وأعجب بها فرانسوا إعجاباً حمله على أن يهدى نسخة خاصة منها إلى شارل الخامس ، الذى كان صديقاً له فى تلك الفترة : وبعث شارل إلى الشاعر بمائتى كراون (٥٠٠٠ دولار ؟) . وترجم مارو مزيداً من المزامير ونشرها فى ١٥٤٣ مع إهداء إلى غرامه الأول « سيدات فرنسا » . ووضع لها جوديميل موسيقى كما رأينا ، وبدأ نصف فرنسا ينشدها . ولكن إعجاب لوثر وكالفن أيضاً بها شكك السوربون ، فشمت فيها رائحة البروتستنتية ، أو لعل مارو عاد إلى التمتمة بهرطقاته فى محنة نجاحه . وتجددت الحملة عليه ، ففر إلى جنيف . ولكنه وجد المناخ اللاهوتى فيها أشد صرامة مما تحتمله صحته ، فتسلل إلى إيطاليا ومات فى تورين (١٥٤٤) فى التاسعة والأربعين ، تاركاً ابنة غير شرعية لرعاية ملكة نافار :

٥ — رابليــه

(أ) رابليــه الإنســان :

أن مؤلف « أمتع وأنفع ماروى من قصص »(٢٣) هذا المؤلف الفذ ، الواسع الحيلة ، الشكاك ، المرح ، المثقف ، البذىء — رأت عيناه النور فى ١٤٩٥ ، ابنا لموثق غنى فى شينون . وأدخل فى سن مبكرة جداً ديراً فرانسسكانيا . وقد شكا بعد ذلك من أن النساء « يحملن الأطفال تسعة شهور تحت قلوبهن . . . ولكنهن لا يطقن تربيتهم تسع سنوات . . .

ويكفى أن يضفن ذراعاً من القماش إلى ثيابهم ويحلقن شعرات لا أدرى كم عددها من قمة رءوسهم ليحولنهم طيوراً بيضع كلمات » . وهو يعنى جز شعورهم وتحويلهم رهباناً . وقد ارتضى الغلام حظه هذا لميله إلى الدرس ، ولعله كإرزمس اجتذبته مكتبة الدير إلى الكتب. وهناك التقى براهبين أو ثلاثة أخر راغبين فى دراسة اليونانية ، وقد شدهم هذا العالم القديم الفسيح الذى فتح لهم الدرس والبحث مغاليقه . وأحرز فرانسوا من التقدم ما جعل بوديه نفسه يبعث إليه بخطاب ثناء . وبدا أن الأمور تسير على ما يشتهى . وفى عام ١٥٢٠ رسم شكاك المستقبل قسيساً ، ولكن نفراً من كبار الرهبان شموا الهرطقة فى فقه اللغة ، فاتهموا الهلنستيين الشبان بشراء الكتب بالأتعاب التى يتلقونها نظير الوعظ بدلا من تسليمها للخزانة العامة . وحبس رابليه وراهب آخر حبساً انفرادياً ، وحرما الكتب وهى لهما نصف الحياة . ونمى إلى بوديه هذا الاتجاه الرجعى فلجأ إلى فرانسوا الأول ، وأمر الملك باطلاق سراح الأديبين ورد امتيازاتهما . وبفضل شفاعة أخرى صدر مرسوم بابوى أذن لرابليه بتغيير تبعيته وإقامته الديريتين . فترك الفرنسسكان ، ودخل بيتاً بندكتيا فى مايبزيه (١٥٢٤) ، وهناك أعجب به الأسقف جوفروا دستيساك إعجاباً حمله على أن يتفق مع رئيس الدير على السماح لرابليه بالذهاب حيث شاء للدرس ؛ وذهب رابليه ، ونسى أن يعود .

وبعد أن جرب عدة جامعات دخل مدرسة الطب فى مونبليه (١٥٣٠). ولا بد أنه كان قد حصل تعليماً سابقاً فى الطب ، لأنه نال درجة البكالوريوس فى الطب عام ١٥٣١ . على أنه لأسباب لا نعلمها لم يواصل دراسته لنيل الدكتوراة ، بل عاد إلى تجواله حتى استقر به النوى فى ليون فى ١٥٣٢ ، وجمع بين ممارسة الطب ودراساته الأدبية ، شأنه فى ذلك شأن سرفيتوس . ثم اشتغل مساعد تحرير للطباع سباستيان جريفيوس ونشر عدة نصوص

يونانية وترجم حكم أبقراط إلى اللاتينية . وانزلق برضاه إلى تيار الدراسات الإنسانية الذى كان يومها فى عنفوان تدفقه فى ليون . وفى ٣٠ نوفمبر ١٥٣٢ بعث بنسخة من « يوسيفوس » إلى إرزمس بخطاب زلفى يستغرب من رجل فى السابعة والثلاثين . ولكنك تشم فيه رائحة ذلك العصر الجياش بالحماسة :

« بعث إلى جورج دارمناك مؤخراً . . . بتاريخ فلافيوس يوسيفوس . . . وطلب إلى . . . أن أرسله إليك . وقد تحينت هذه الفرصة مشتاقاً . يا أكثر الآباء إنسانية . لأدلل لك بالتقدير الشاكر على احترامى العميق لك وعلى ولائى البنوى . أقول هل دعوتك بأبى ؟ أجدر بى أن أدعوك بأمى لو اتسع لذلك صدرك . فكل ما نعرف عن الأمهات . اللائى يغذين ثمرة بطونهن قبل أن يرينها وقبل أن يعرفن حتى ما ستكون عليه . واللائى يرعينها ويحمينها من قسوة الجو . كل هذا صنعته أنت بى . أنا الذى لم يكن وجهى معروفاً لك ولا كان اسمى المغمور ليستطيع أن يستهويك . لقد ربيتنى وغذوتنى من ذلك الصدر الطاهر . صدر معرفتك المقدسة . وكل ما أنا عليه . وكل ما أساويه . إنما أنا مدين به لك وحدك . ولو لم أجهر بهذه الحقيقة لكنت أشد الناس عقوقاً . تحية مرة أخرى أيها الأب المحبوب . يا شرف وطنك . ويا عماد الأدب . ويا نصير الحقيقة الذى لا يقهر »(٢١) .

وفى نوفمبر من ذلك العام (١٥٣٢) نجد رابليه طبيباً فى الأوتيل ديو . وهو مستشفى مدينة ليون . يتقاضى راتباً قدره أربعون جنيهاً (١٠٠٠ دولار ؟) فى العام . ولكن يجب ألا نحسبه عالماً أو طبيباً مثالياً . صحيح أن ثقافته كانت منوعة وهائلة . فيبدو أنه كان كشكسبير له معرفة مهنية فى ميادين شتى — كالقانون والطب والأدب واللاهوت والطهو والتاريخ والنبات والفلك والميثولوجيا . وهو يشير إلى مئات الأساطير القديمة . ويقتبس من عشرات المؤلفين القدامى . ونراه أحياناً

يعرض علمه الواسع عرض الهواة . ولكنه شغل بالحياة شغلا لم يتح له وقتاً لبلوغ الدقة الشديدة فى دراسته . ولم تكن الطبعات التى نشرها نماذج تحتذى فى دقة التفاصيل . لم يكن فى طبعه أن يكون أديبا إنسانيا متفانيا كإرزمس أو بوديه ، فلقد كان يحب الحياة أكثر من الكتب . والصورة التى تركت لنا عنه صورة رجل تروع الناظر طلعته ، فارع القامة حلو الوجه ، ينبوع للثقافة ومحدث يشع نوراً وناراً[٢٥]. ولم يكن سكيراً كما استنتجت خطأ رواية قديمة متواترة من تحياته للسكارى ومن خمرياته. بل انه على العكس عاش عيشة مهذبة الى حد معقول ، هذا إذا استثنينا طفلا غير شرعى أنجبه ،[٢٦] ولم يعش سوى فترة قصيرة بحيث يمكن اعتباره خطيئة بسيطة . وقد كرمته أسمى عقول جيله ، بما فيهم نفر عديد من أحبار الكنيسة . وكان فى الوقت نفسه يتصف بكثير من صفات الفلاح الفرنسى ، فيجد لذة فى أنماط الفلاحين الصرحاء المرحين الذين يلقاهم فى الحقول والشوارع ويستمتع بفكاهاتهم وضحكهم وبقصصهم الطويلة وعباراتهم البذيئة المتفاخرة . وقد طغت شهرته دون عمد منه على شهرة إرزمس لأنه جمع هذه القصص ، وربط بينها ، وحسنها ، ووسعها ، وأضفى عليها الكرامة بالعلم الكلاسيكى ورفعها إلى مقام الهجاء البناء ، وضمنها فى حرص ما حوته من فحش وبذاءة .

ومن هذه القصص قصة كانت آنئذ ذائعة فى كثير من أنحاء الريف ، روت أخبار مارد لطيف يدعى جارجانتوا ، وتحدثت عن شهيته الوحشية ، وعن غرامياته ومظاهر قوته العظيمة ، وكانت تنتشر هنا وهناك تلال وصخور ذكرت الروايات المحلية أنها تساقطت من سلة جارجانتوا أثناء مروره . وكانت هذه الأساطير لا تزال تروى فى عام ١٨٦٠ فى الكفور الفرنسية التى لم تسمع قط برابليه . وقد دون كاتب مجهول — ربما كان رابليه نفسه — على سبيل التفكه بعض هذه الخرافات وطبعها

فى ليون فى كتاب سماه « الأخبار العظيمة الثمينة للمارد الكبير الهائل جارجانتوا » (١٥٣٢) . وراج الكتاب بسرعة حمات رابليه على التفكير فى كتاب ملحق له عن ابن جارجانتوا . وهكذا ظهر فى سوق ليون المنعقدة فى أكتوبر ١٥٣٢ ، غفلا من اسم المؤلف ، كتاب عنوانه « الأعمال المرعبة المخيفة وأفعال البسالة التى قام بها بنتاجرويل الأشهر » . وكان هذا الاسم قد استعمل من قبل فى بعض الدرامات الشعبية ، ولكن رابليه أضفى على صاحبه محتوى وعمقاً جديدين . ونددت السوربون والرهبان بالكتاب لبذاءته ، وراج رواجاً حسناً . واستمتع به فرانسوا الأول ، ووجد بعض رجال الدين لذة فى قراءته . على أن رابليه لم يعترف بأنه مؤلفه إلا بعد مرور أربعة عشر عاماً ، فقد خشى أن يعرض للخطر سمعته كأديب ، إن لم يعرض حياته .

وكان لا يزال شديد التعلق بالدرس . حتى أهمل واجباته فى المستشفى فطرد . ولعله كان ملاقياً عنتاً فى كسب قوته لولا أن جان دبلايه أسقف باريس والمشارك فى تأسيس كليه فرنسا أخذ رابليه معه طبيباً فى بعثة إلى إيطاليا (يناير ١٥٣٤) . ولما عاد رابليه إلى ليون فى إبريل نشر فى أكتوبر « قصة جارجانتوا الكبير ، أبى بنتاجرويل ، وحياته المرعبة جداً » . وقد حوى هذا المجلد الثانى ، الذى أصبح بعد ذلك الجزء الأول من الكتاب كله ، هجاء مرحاً لرجال الدين حمل السوربون على التنديد به مرة أخرى . وسرعان ما راجت القصتان المنشورتان معاً رواجاً بز كل كتاب فى فرنسا باستثناء الكتاب المقدس و « محاكاة المسيح »[٢٧] . وقد قيل ن الملك فرانسوا ضحك وصفق استحساناً فى هذه المناسبة أيضاً .

ولكن لصق الإعلانات البروتستنتية المهينة فى ليلة ١٧ - ١٨ أكتوبر ١٥٣٤ على مبانى باريس وعلى باب قصر الملك نفسه بدل الملك من حامى الأدباء الإنسانيين إلى مضطهد المهرطقين . وكان رابليه قد

أخفى مرة ثانية أنه مؤلف الكتاب . ولكن الشكوك الكثيرة حامت حوله ، وحق له أن يخشى أن تطالب السوربون برأس الكاتب البذىء بعد أن حملت الملك فى ركابها . وهنا بادر جان دبلليه مرة أخرى إلى إنقاذه ، واختطف الكنسى الطيب الذى أصبح الآن كردينالا ذلك الأديب الطيب ، والكاتب البذىء ، من مخبئه فى ليون وأخذه إلى روما (١٥٢٥) . وكان من حظ رابليه أن يجد على كرسى البابويه رجلا مستنيراً. فاغتفر له بولس الثالث إهماله واجباته الديرية والكهنوتية وأذن له بممارسة الطب . وعكف رابليه — على سبيل التعويض والتكفير — على تنقية الطبعات التالية من كتابه ، « المؤيد يومئذ تأييداً مضاعفاً » ، من الفقرات التى تسىء إساءة شديدة إلى الذوق التقليدى . ولما احتال عليه إتيين دوليه فنشر دون إذنه طبعة غير منقاة ، شطب اسمه من قائمة أصدقائه . ثم عاد إلى الدرس فى مونبلييه برعاية الكردينال ، ونال الدكتوراة فى الطب ، وحاضر الجماهير الكبيرة هناك . ثم عاد إلى ليون ليستأنف حياته طبيباً وأديباً . وفى يونيو ١٥٣٧ ذكر دوليه أنه فى درس تشريح شرح أمام جماعة من الطلاب جثة مجرم نفذ فيه حكم الإعدام .

بعد هذا لا نعرف عن حياته المتقلبة غير نتف من هنا وهناك . كان فى حاشية الملك خلال الاجتماع التاريخى بين فرانسوا الأول وشارل الخامس فى إخمورت (يوليو ١٥٣٨) . وبعد عامين نجده فى تورين طبيباً لجيوم دبلليه ، شقيق[٢] الكردينال ، بعد أن أصبح سفيراً لفرنسا فى سافوا . وحوالى هذه الفترة وجد الجواسيس فى رسائل رابليه فقرات أحدثت ضجة فى باريس فسارع إلى العاصمة وواجه الموقف بشجاعة . ثم برأه الملك (١٥٤١) ، وعلى الرغم من تنديد السوربون من جديد بجارجانتوا وبنتاجرويل عين فرانسوا المؤلف المطارد فى وظيفة حكومية صغيرة هى وظيفة مأمور العرائض ، ومنحه إذناً رسمياً بنشر

الجزء الثانى من بنتاجرويل الذى أهداه رابليه شاكراً إلى مارجريت النافارية . وقد أثار هذا الجزء من الاضطراب فى أوساط اللاهوتيين ما رأى معه رابليه أن من الحكمة أن يلتجىء إلى متز ، وكانت يومها جزءاً من الإمبراطورية . وهناك قضى عاماً يشتغل طبيباً بمستشفى المدينة (١٥٤٦ — ٤٧) . وفى ١٥٤٨ رأى أن لا خطر عليه فى الرجوع إلى ليون ، وفى ١٥٤٩ عاد إلى باريس . وأخيراً حصل له حماته من رجال الكنيسة على وظيفة قسيس لأبرشية مودون الواقعة إلى الجنوب الغربى من العاصمة مباشرة ، وهكذا عاد هذا الكهل المزعج ، المطارد ، إلى ثيابه الكهنوتية . ويبدو أنه وكل إلى مرءوسيه أداء واجبات وظيفته الدينية واكتفى بالانتفاع بايرادها (٢٨) . وكان على قدر علمنا لا يزال قسيس مودون حين نشر ما هو الآن الجزء الرابع من كتابه (١٥٥٢) . وفى هذا الموقف شىء من الشذوذ . وقد أهداه إلى اوديه كردينال شاتيون ، بإذن منه على الأرجح ، وواضح أنه كان فى فرنسا إذ ذاك بين رجال الكنيسة نفر أوتوا ثقافة كرادلة النهضة الإيطالية ونساشهم . على أن السوربون نددت بالكتاب ، وحظر « البرلمان » بيعه . وكان فرانسوا الأول ومارجريت قد ماتا ، ولم يجد رابليه حظوة لدى هنرى الثانى المكتئب المزاج . فغاب عن باريس حيناً ثم عاد إليها سريعاً . وهناك مات بعد مرض طويل . وتروى قصة قديمة أنه حين سئل على فراش الموت إلى أين يتوقع أن يمضى أجاب « أنا ماض لأبحث عن رغبة كبيرة »(٢٩) إنها أسطورة ، ويا للأسف .

(ب) جارجانتوا

تنبىء مقدمة الجزء الأول من هذا الكتاب (أو الجزء الثانى فى الأصل) للتو بمذاق الكتاب كله ورائحته :

« يا أشرف السكارى وأذيعهم صيتاً . وأنتم يا أغلى القذيان المرحين ،

المفترى عليهم ، (لأنه إليكم أنتم دون سواكم أهدى كتاباتى) . . .
لو أنكم تأملتم شكل سقراط وقدرتموه حسب مظهره الخارجى لما ساوى
فى نظركم قشرة بصلة . . . إنكم يا تلاميذى الطيبين وغيركم من
الحمقى المرحين ، المؤثرين الراحة والدعة ، إذ تقرءون العناوين السارة
لبعض الكتب التى نخترعها . . . تتسرعون فى الحكم بأنه ليس فيها سوى
النكات والدعابات الساخرة والحديث الفاجر والأكاذيب المروحة عن
النفس . . . ولكن . . . حين تطلعون على هذا المقال ستجدون . . .
تعليماً ذا تفكير أعمق وأكثر تجرداً . . . . سواء فيما يتصل بديننا أو
شئون الحكم العام والحياة الاقتصادية . . . وقد يتكلم أحمق مغرور مشوش
العقل بشر عن كتبى ، فلا تعبأوا به ، وامرحوا الآن يا أبنائى . واشرحوا
صدوركم ، واقرأوا بابتهاج . . . . هيا إلى آخر كلمة » .

وهذا الكلام منقول عن ترجمة أوركهارت الشهيرة ، التى تتجاوز
الأصل أحياناً ، ولكنها هنا تلتزمه بدقة ، حتى لتذكر الكلمات العنيفة
التى لم يعد مسموحاً بها فى حديث المثقفين . وفى هاتين الفقرتين تطالعنا
روح رابليه وهدفه : الهجاء الجاد مغلفاً فى تهريج يخفف من عنفه ،
وملطخاً أحياناً بسناج خالص . ونحن نمضى فى هذه المغامرة على ما فيها
من خطر ، شاكرين لأن الكلمة المطبوعة لا تنبعث منها رائحة خبيثة ،
آملين أن نعثر وسط هذا الكوم من القمامة على بعض الأحجار الكريمة .

ويبدأ جارجانتوا بسلسلة نسب فريدة تحاكى أنساب التوراة شكلا .
أما أبو المارد فهو جرانجوزييه ملك يوتوبيا ، وأما أمه فهى جارجاميل ،
حملته أحد عشر شهراً ، ولما بدأت آلام مخاضها اجتمع أصدقاء الأسرة
ليسمروا وهم يحتسون النبيذ ، زاعمين أن الطبيعة تكره الفراغ . ويقول
الأب المخمور لزوجته بلهجة من لا يعرف الألم « امضى بشجاعة النعجة ،
وأخرجى لنا هذا الغلام بسرعة ، وسنعكف بعدها على العمل فوراً . . .

لنصنع غيره » . وتتمنى الزوجة لحظة أن يلقى حظ أبيلار ؛ ويقترح هو أن ينجز ما تتمناه للتو ، ولكنها تعود فتعدل . أما جارجانتوا الجنين فاذ وجد المنفذ العادى للوليد مسدوداً بقابض أخذ فى غير أوانه . فقد « دخل وريد جارجاميل الأجوف » وتساق حجابها الحاجز وعنقها . ثم « انبثق من الأذن اليسرى » . وما ان ولد حتى راح يصيح ، ويصيح بصوت علا حتى أسمع إقليمين : « الشراب ! الشراب ! الشراب ! » وخصص لطعامه ١٧،٩١٣ صفيحة من اللبن ، ولكنه منذ البدء أبدى إيثاره للنبيـــذ .

ولما آن أوان تعليم المارد الصغير وتهيئته لارتقاء العرش ، عين له مرب خاص هو الأستاذ جوبلان الذى أحاله فتى غبياً ، لأنه حشا ذاكرته بالحقائق الميتة وأربك عقله بحجج الكلاميين . واضطر جارجانتوا إلى سلوك سبيل يائس ، فنقل الغلام ووضعه فى رعاية الأديب الإنسانى بونوكراتيس . وانطلق الأستاذ وتلميذه إلى باريس لتحصيل أحدث تعاليم فيها . وكان جارجانتوا يركب فرساً ضخمة قطع ذيلها الهفاف الغابات الفسيحة أثناء مرورها ، وهكذا أصبح جزء من فرنسا سهلا . ولما بلغا باريس ارتقى جارجانتوا برجاً من أبراج نوتردام واستهوته أجراس الكاتدرائية فسرقها ليعلقها حول عنق فرسه . وبدأ بونوكراتيس من جديد تعليم المارد الذى أفسد تعليمه ، وذلك باعطائه مسهلا هائلا ليطهر أمعاءه ومخه جميعاً ، ولا غرو فكلاهما وثيق الصلة بالآخر . فلما تنقى جارجانتوا على هذا النحو أولع بالتعلم وبدأ بحماسة يدرب جسده وعقله وخلقه فى وقت معاً . فدرس الكتاب المقدس والآداب القديمة والفنون ؛ وتعلم أن يعزف على العود والبيان وأن يستمتع بالموسيقى . وكان يجرى ويقفز ويصارع ويتسلق ويسبح ، ومارس الركوب والدفع بمنكبيه والمهارات التى يحتاج إليها المقاتل فى الحرب ، والصيد ليربى شجاعته .

ولكى ينمى رئتيه كان يصيح حتى سمعته باريس كلها . وزار صناع المعادن وقاطعى الأحجار والصياغ والكيمائيين والنساجين وصانعى الساعات والطباعين والصباغين ودرس حرفهم « باعطائهم شيئاً يشربونه » وكان فى كل يوم يشارك فى عمل بدنى نافع ، ويذهب أحياناً لحضور محاضرة أو مشاهدة تجربة أو الاستماع إلى « مواعظ الوعاظ الإنجيليين » (وتلك غمزة بروتستنتية) .

وفجأة استدعى جارجانتوا وهو يتلقى هذا التعليم كله إلى مملكة أبيه لأن ملكاً آخر يدعى بكروشول أعلن الحرب على جرانجوزييه . لماذا ؟ إن رابليه يسرق هنا قصة من كتاب بلوتارخ « حياة بيروس » ويروى أن قواد بكروشول راحوا يفاخرون بما يستطيعون فتحه من بلاد تحت قيادته : فرنسا وأسبانيا والبرتغال والجزائر وإيطاليا وصقلية وكريت وقبرص ورودس واليونان وأورشليم . . . ويغتبط بكروشول وتنتفخ أوداجه . غير أن فيلسوفاً عجوزاً يسأله : « وما نهاية كل هذه المتاعب والأسفار ؟ » ويجيب بكروشول : « حين نعود سنجلس ونستريح ونبتهج » . ويقترح عليه الفيلسوف هذا الرأى « ولكن هبك لم تعد إلى وطنك قط لطول الرحلة وخطرها ، أفلا يحسن بنا أن نستريح من الآن ؟ » وصاح بكروشول « كفى . امضوا بنا قدماً . إننى لا أخشى شيئاً . . . وليتبعنى من يحبنى » (١ — ٣٣) . وتكاد فرس جارجانتوا تنهى الحرب مع بكروشول بالفوز عليه لأنها أغرقت آلافاً من رجال العدو بدفقة بسيطة واحدة من بولها .

ولكن بطل الحرب الحقيقى هو الأخ يوحنا ، وهو راهب أحب القتال أكثر من الصلاة ، وسمح لتطلعه الفلسفى أن يغامر فى مسالك أكثر خطراً . فهو يتساءل مثلا « ما السبب فى أن فخذى السيدة النبيلة تبدوان دائماً غضتين رطبتين ؟ » — ومع أنه لا يجد فى كتب أرسطو أو بلوتارخ ما ينيره فى هذه المشكلة الجذابة ، فانه هو نفسه يجيب إجابات

غنية فى العلم بفنون الأفخاذ . وقد أحبه كل رجال الملك ، وهم يقدمون له من الطعام والنبيذ ما يشتهى ، ويدعونه لخلع رداء الرهبنة حتى يستطيع ابتلاع المزيد من الطعام ، ولكنه يخشى ألا تتوفر له الشهية الطيبة لو خلعه . ويذم المؤلف جميع النقائص التى يرمى بها المصلحون البروتستنت جماعة الرهبان ، عن طريق هذا العضو المرح من أعضاء هذه القبيلة : كالكسل والشره والإسراف فى الشراب والتمتمة بالصلوات والعداء للدرس والأفكار كلها ، اللهم الا رقعة متضائلة منها . يقول الأخ يوحنا : « فى ديرنا لا نعكف على الدرس أبداً مخافة أن نصاب بالتهاب الغدة النكفية » . (١ — ٣٩) .

واقترح جارجانتوا أن يكافئ الراهب على حسن بلائه فى الحرب بتعيينه رئيساً على دير قائم . ولكن يوحنا رجا بدل هذا أن يوفر له المال لتشييد دير جديد له قوانين « تناقض قوانين الأديار كلها » فيجب أولا ألا تقام حوله أى أسوار تحصره ، وأن يكون نزلاؤه أحراراً فى تركه حين يشاءون . ثانياً : يجب ألا تمنع النساء من دخول الدير ، ولكن لا يدخله منهن سوى « الجميلات الحسنات الصورة الدمثات الخلق » ممن تتراوح أعمارهن بين العاشرة والخامسة عشرة . ثالثاً : لا يقبل من الذكور سوى من كان بين الثانية عشرة والثامنة عشرة ، على أن يكونوا وسيمى الوجوه كريمى المولد والطباع ، ولا يسمح للسكيرين أو المتعصبين بالدخول ، ولا للمتسولين أو المحامين أو القضاة أو الكتبة أو المرابين أو الجشعين النهابين أو المنافقين المتزلفين بدخول الدير . رابعاً : لا يسمح بنذور للعفة أو الفقر أو الطاعة ، فللأعضاء أن يتزوجوا وأن يستمتعوا بالمال وأن يكونوا أحراراً فى جميع شئونهم . ويطلق على الدير اسم تليمى أى « ماشئت » ، أما قانونه الوحيد فهو « افعل ما تريد » لأن « الناس الأحرار الطيبى العنصر الحسنى التربية الكريمى المعشر أوتوا بالطبع

غريزة وحافزاً يدفعانهم للفعال الفاضلة ويبعدانهم عن الرذيلة ، وهذه الغريزة اسمها الشرف » (١ — ٥٧) . وقد قدم جاجارجانتوا المال اللازم لإقامة هذه الفوضى الارستقراطية ، وارتفع بناء الدير حسب المواصفات التى وضعها رابليه فى تفصيل أغرى المعماريين برسم رسوم له . وقد زوده بمكتبة ومسرح وحمام سباحة وملعب للتنس وآخر لكرة القدم وكنيسة صغيرة وحديقة وأرض للصيد وبساتين فاكهة واسطبلات و ٩٣٣٢ حجرة . لقد كان فندقاً أمريكياً مقاماً فى بلد للنزهة . على أن رابليه نسى أن يزود الدير بمطبخ أو أن يدلنا على من يقوم بالأعمال الوضيعة فى هذا الفردوس .

ج — بنتاجرويل

بعد أن خلف جارجانتوا أباه على العرش جاء دوره فى الإنجاب والتربية . فحين بلغ من العمر أربعمائة وثمانين وأربعة وأربعين عاماً أنجب بنتاجرويل من زوجته باديبيك التى ماتت وهى تلد الغلام فبكى عليها جارجانتوا « كما تبكى البقرة » و « ضحك كما يضحك العجل » حين رأى ولده القوى البدن . وشب بنتاجرويل حتى استفحل حجمه : وفى إحدى وجباته ابتلع رجلا عن غير قصد ، ولم يكن بد من إخراجه بعملية تعدين فى قناة المارد الصغير الهضمية ، ولما ذهب بنتاجرويل إلى باريس ليتلقى تعليمه العالى أرسل له جارجانتوا رسالة تشم فيها عبير النهضة الأوربية : —

ولدى الأعـــز :

. . . . مع أن المرحوم أبى الطيب الذكر جرانجوزييه بذل ما وسعه من جهد ليبسر لى الإفادة من جميع نواحى العلم والمعرفة السياسية ، ومع أن جهدى وعكوفى على الدرس قابلا رغبته هذه بل جاوزاها . فان

الزمن كما تعلم جيداً لم يكن يومها مواتياً كما هو الآن للتعلم . : . لقد كان زمناً مظلماً تحجب سماءه غيوم الجهالة وينبعث فيه شيء من نحس القوط ونكبتهم ، القوط الذين دمروا كل الأدب الطيب حيثما استقرت أقدامهم ، ذلك الأدب الذى رد بفضل الله فى عصرى إلى سابق إشراقه وكرامته بحيث لا يكاد يسمح لى الآن بدخول الصف الأول فى مدرسة ثانوية للصبيان . . . .

أما اليوم فقد زودت عقول الناس بشتى العلوم . وأحييت العلوم القديمة التى ظلت منقرضة أجيالا كثيرة ، وأعيدت لغات الثقافة إلى نقائها القديم — وأعنى اليونانية (التى يخجل الإنسان بدونها من أن يعد نفسه أديباً أو عالماً) ، والعبرية ، والعربية ، والكلدية ، واللاتينية . كذلك شاع استعمال الطباعة ، أنيقة دقيقة بحيث لا يمكن تصور ما هو أرقى منها . . .

وفى نيتى . . . أن تتعلم اللغات تعليماً كاملا . . . أما التاريخ فلا يفتك حفظ أى جزء منه . . . وأما الفنون الحرة كالهندسة والحساب والموسيقى فقد أتحت لك تذوقها حين كنت بعد صبياً . . . فامض فيها قدماً . . . وأما الفلك فادرس كل أصوله ، ولكن دعك من التنجيم . . . لأنه ليس سوى غش وغرور خالصين . . . وأما القانون المدنى فانى أريدك أن تحفظ نصوصه عن ظهر قلب ثم تبحثها مسترشداً بالفلسفة . . . وأما أعمال الطبيعة فانى أود أن تدرسها بدقة . . . ولا يفتك أن تطلع بعناية على كتب الأطباء اليونان والعرب واللاتين ، ولا تحتقر التلموديين ، والقبلانيين ، واستكثر من التشريح لتلم إلماماً تاماً بذلك العالم الصغير ، أعنى الإنسان . كذلك اعكف فى بعض ساعات النهار على درس الكتاب المقدس : أولا العهد الجديد باليونانية ، ثم العهد القديم بالعبرية . . .

ولكن بما أن الحكمة كما قال سليمان الحكيم لا تدخل عقلا شريراً، والعلم بدون ضمير ليس إلا مجلبة لخراب النفس ، فان من واجبك أن تخدم الله وتحبه وتخشاه . . . كن خدوماً لكل جيرانك وأحبهم كما تحب نفسك ، واحترم معلمك وتجنب حديث من لا ترغب فى التشبه بهم ، ولا تضيع المواهب التى منحك الله إياها . فاذا رأيت أنك حصلت كل ما يجب تحصيله من العلم فى تلك الناحية ، فعد إلى لكى أراك وأمنحك بركتى قبل أن أموت . . .

أبوك
جارجانتوا (٣٠)

وعكف بنتاجرويل على الدرس فى حماسة ، وتعلم لغات كثيرة ، وكان من الممكن أن يكرس وقته كله للقراءة والدرس لولا أنه التقى ببانورج . وهنا أيضاً يبرز التابع أكثر من السيد ، بأوضح حتى من بروز الراهب يوحنا ، كما يحجب سانشو بانزا أحياناً شخصية سيده دون كخوته . فرابليه لا يجد فى جارجانتوا ولا فى بنتاجرويل المجال الطليق لدعاباته البذيئة وألفاظه الصاخبة ، إنما هو فى حاجة إلى هذا المخلوق — الذى فيه أثر من الوغد ، ومن المحامى ، ومن الشاعر فيون ، ومن الفيلسوف — ليستخدمه أداة للهجو . وهو يصف بانورج (ومعنى الاسم : مستعد لعمل أى شىء) بأنه نحيل كالقط الجائع ، يسير فى حذر شديد « كأنه يمشى على قشر بيض » وأنه إنسان شهم وإن شابه بعض الفجور ، وأنه « عرضة لضرب من المرض . . . يسمى الإعسار » ، وأنه نشال ، « ومتشرد فاسق ، ومحتال ، وسكير . . . ورجل داعر جداً ، ولكنه فيما عدا ذلك خير الناس فى هذه الدنيا وأكثرهم فضيلة » (٢ — ١٤ ، ١٦) . وعلى فم بانورج يسوق رابليه أشد نكاته فحشاً . . . كان بانورج يمقت على الأخص ما درجت عليه نساء باريس من تزرير

أقمصتهن فى أعلى ظهورهن ، فقاضى النساء فى المحكمة . ولعله كان خاسراً دعواه ، ولكنه هدد بأن يبدأ عادة مماثلة فى سراويل الرجال . وهنا أمرت المحكمة بأن يترك النساء فتحة متواضعة ولكنها سالكة من الأمام (٢ — ١٧) . وحدث أن غضب بانورج من امرأة احتقرته . فرش ثوبها وهى راكعة للصلاة فى الكنيسة بسائل حيوان مدلل شديد الشهوة ، فلما قامت تبعها جميع كلاب باريس الذكور . وعددها ٦٠٠,٠١٤ فى ولاء إجماعى لا يعرف الكلل (٢ — ٢١ — ٢٢). ويولع بنتاجرويل بهذا الوغد تخففاً من الفلسفة . برغم أنه أمير بالغ غاية التهذيب . فيدعوه لمصاحبته فى كل رحلاته .

وبينما تمضى القصة فى جذل إلى الجزء الثالث يناقش بانورج موضوع زواجه بينه وبين نفسه وبينه وبين غيره . فيعدد ما للمشروع وما عليه خلال مائة صفحة فيها المشرق ، والكثير فيها ممل . ولكننا فى هذه الصفحات نلتقى بالرجل الذى تزوج امرأة خرساء . والفقيه الشهير بريدلجوس الذى ينتهى إلى أكثر أحكامه سلامة برمى الزهر . وتستوحى مقدمة الجزء الرابع لوكيان فتصف « مجمعاً للآلهة » فى السماء . وجوبيتر يشكو من الفوضى اللاأرضية . التى تسود الأرض . والثلاثين حرباً المستعرة فى وقت واحد . والكراهية المتبادلة بين الشعوب . وانقسامات اللاهوتيين ، وأقيسة الفلاسفة « فماذا نحن فاعلون بهذه الحرب حرب راموس وجالان — هذين اللذين يحرشان باريس كلها بعضها ببعض ؟ » — ويشير عليه الإله بريابوس بأن نحول هذين البطرسين Pierres إلى صخرتين (pierres) ، وهنا نرى رابليه يسطو على تورية من الكتاب المقدس :

ثم يعود إلى الأرض فيسجل فى الجزئين الرابع والخامس(*) رحلات

(*) نشر الجزء الرابع فى ١٥٦٢ بعد موت رابليه بتسع سنوات . ولعل الخمسة عشر فصلا الأولى قد خلفها رابليه (٣١) ، أما الفصول الاثنان والثلاثون الباقية فنسبتها إليه مشكوك فيها .

طويلة أشبه برحلات جلفر ، خرج فيها بنتاجرويل وبانورج والأخ يوحنا وأسطول يوتوبى ملكى ليبحثوا عن « معبد القارورة المقدسة » ، وليسألوا هل يحسن ببانورج أن يتزوج . وبعد عشرات المغامرات ، وبعد التنديد بأصوام « الصوم الكبير » ، وبكارهى البابا من البروتستنت ، وبعباد البابا من المتعصبين ، وبالرهبان ، وبتجار الآثار المزيفة ، وبالمحامين (القطط ذات الفراء) ، وبالفلاسفة الكلاميين ، وبالمؤرخين . تنتهى الرحلة إلى المعبد . وعلى بوابته كتابة يونانية تقول : «إن فى النبيذ لحقاً » . وفى نبع قريب قارورة غمرت فى النبيــــذ إلى نصفها ينبعث منها صوت يقرقر قائلا « ترنك » ، وتقول الكاهنة باكبوك : إن النبيذ خير الفلسفات ، وإن « ما يميز الإنسان ليس الضحك بل شرب . . . . النبيذ الرطب اللذيذ » . ويسعد بانورج ان تؤيد الكاهنة ما كان يعرفه طوال الوقت . فيصمم على أن يأكل ويشرب ويتزوج ويتحمل العواقب كما يخلق بالرجال ، وهو ينشد أغنية عرسية بذيئة ، ثم تصرف باكبوك الجماعة بعد أن تمنحها هذه البركة « ايحفظكم ذلك المحيط الفكرى الذى يوجد مركزه فى كل مكان ، ولا يوجد له نهاية فى أى مكان ، والذى ندعوه الله ، فى رعايته القوية القادرة » . (٥ — ٤٧) . وهكذا تختتم القصة العظيمة بمزيج مثالى من البذاءة والفلسفة .

(د) مضحك الملك :

أى معنى يتوارى خلف هذا الهراء ، وهل من حكمة فى هذا السيل الدافق من المرح الفالبرنى — البريابى ؟ يقول رابليه وهو يجرى الكلام على لسان أحد حمقاه « نحن مهرجى الريف فينا شىء من الحلاقة ، نميل إلى تحطيم الألفاظ وتفكيك أوصالها » . (٥ — ١٨) . إنه يحب الألفاظ ، وعنده منها معين لا ينضب ، وهو يخترع مئات من الكلمات الجديدة ،

ويشتقها كشكسبير من كل حرفة ومهنه. ومن كل ميدان فى الفلسفة أو اللاهوت أو القانون .وهو يضع قوائم بالنعوت أو الأسماء أو الأفعال، وكأنما يلذه تأملها (٣ — ٣٨)، ثم يستكثر من المترادفات فى نشوة من الإطناب ، ولقد كان هذا الحشو من قبل حيلة قديمة فى المسرح الفرنسى[٣٢] . وهو جزء من فكاهة رابليه التى لا حد لها ولا ضابط، وفيض تتضاءل أمامه حتى فكاهة أرستوفان أو موليير . أما بذاءته فوجه آخر من وجوه هذا الفيض الذى لا يمكن التحكم فيه . ولعل بعضها رد فعل للنسك الديرى ، وبعضها لامبالاة تشريحية لا تستغرب من طبيب ، وبعضها تحد جرىء للحذلقة ، وكثير منها يساير أسلوب العصر . وما من شك فى أن رابليه قد غلا فى فحشه غلواً شديداً ، حتى أننا بعد أن نقرأ عشر صفحات أونحوها من التفاصيل الماوثة بالتبول والتناسل والإفراز والغازات نمل القراءة وننصرف عنها . ولم يكن بد من مجىءجيل جديد من التأثير الكلاسيكى ليروض هذا الفوران البركانى ويخضعه للنظام .

على أننا نغتفر هذه العيوب لأن أسلوب رابليه ينطلق معنا فى يسر كما انطلق معه؛ إنه أسلوب خال من التكلف والصنعةالأدبية ، أسلوب طبيعى سهل متدفق، هو بالضبط الأداة لسرد قصة طويلة . والسر فى حيوية رابليه هو الخيال مضافاً إليه النشاط مضافاً إليهما الوضوح . وهو يرى مئات الأشياء التى لا يراها معظمنا، ويلحظ دقائق لا حصر لها فى اللباس والسلوك والحديث ، ثم يجمع بينها بطريقة خيالية غريبة؛ ويطلق هذه الأخلاط يطارد بعضها البعض فوق صفحاته الضاحكة .

ثم تراه يستعير يمنة ويسرة جرياً على عادة جيله ، معتذراً عن هذا بما اعتذر به شكسبير من أنه يجود كل شىء يسرقه . فهو يتناول مئات من نتف الأمثال الواردة فى كتاب إرزمس « أداجيا »[٣٣] ، ويحكى

الكثير مما سبقه فى « مدح الحماقة » أو « الأحاديث » ، وهو يتمثل خمسين موضوعاً من بلوتارخ ، وذلك قبل سنوات من ترجمة آميو التى فتحت سجل العظماء هذا لأى لص من لصوص الأدب . وهو ينتحل من كتاب لوكيان « الحديث السماوى » وقصة فولنجو عن الخروف الذى أغرق ذاته ، ونجد فى كوميديات عصره قصة الرجل الذى ندم على أنه شفى زوجته من الخرس ، ويستعمل عشرات الأفكار التى توحى بها الخرافات والقصص الصغيرة التى انحدرت من فرنسا الوسيطة . وحين يصف رحلات بنتاجرويل نراه يعتمد على الحكايات التى نشرها رواد الدنيا الجديدة والشرق الأقصى . ومع ذلك ، فعلى الرغم من هذه الاستعارات كلها ، ليس هناك مؤلف أكثر منه أصالة ، ولسنا نجد فى غير شكسبير وسرفانتيس مخلوقات واسعة الخيال ، مفعمة بالقوة والحياة ، كالراهب يوحنا ، أو كبانورج . على أن رابليه نفسه هو أهم خلق خلقه الكتاب ، إنه مزيج من بنتاجرويل ، والراهب يوحنا ، وبانورج ، وإرزمس ، وفيزاليوس ، ويوناثان سويفت ؛ مزيج ثرثار ، فوار ، محطم للأصنام ؛ عاشق للحياة .

وتعشقه للحياة هو الذى جعله يسلخ جلود أولئك الذين جعلوها أقل فتنة وإغراء . ولعله قسا بعض الشىء على الرهبان الذين لم يستطيعوا مشاركته ميوله أدبياً إنسانياً ، ولا بد أن محامياً أو محاميين قد أنشبا براثنهما فيه ، لأنه يمزق فراء المحامين فى غل شديد . يقول محذراً قراءه « أنصتوا إلى ، إن عشتم ست دورات أولمبية فقط مضافاً إليهما عمر كلبين ، فسترون قطط القانون هؤلاء سادة على أوربا بأسرها » . ولكنه يسوط أيضاً القضاة ، والمدرسين ، واللاهوتيين ، والمؤرخين ، والرحالة ، وباعة صكوك الغفران ، والنساء . ولا تكاد تعثر فى الكتاب كله على كلمة طيبة عن النساء ، وتلك هى أشد نقط رابليه عمىً ، ولعلها الثمن الذى

دفعه راهباً وقسيساً وأعزب لافتقاره طول حياته إلى الحنان .

وقد اختلف المتشيعون له فى أمره . أهو كاثوليكى أم بروتستنتى أم حر التفكير أم ملحد . فهو فى رأى كالفن ملحد . أما عاشقه أناطول فرانس فينتهى إلى هذا الحكم « فى اعتقادى أنه لم يصدق أى شىء »[٢٤]. وكان أحياناً يكتب كأشد ما يكون الكاثوليكيون سخرية من الناس واحتقاراً لهم ، كما ترى فى لغة الغنام فى حديثه عن أمثل الطرق لإخصاب الحقول (٤ — ٧) . كان يتهكم بالصوم ، وبصكوك الغفران . وبرجال محاكم التفتيش ، وبالمراسيم البابوية ، ويلذه شرح الشروط التشريحية المطلوبة فى المرشح للبابوية (٤ — ٤٨) . ويبدو أنه لم يؤمن بالجحيم (٢ — ٣٠) . وتراه يردد حجج البروتستنت الذين قالوا إن البابوية تنزح أموال الشعوب (٤ — ٥٣) ، وأن كرادلة روما يحيون حياة البطنة والنفاق (٤ — ٥٨ — ٦٠) . وكان يتعاطف مع المهرطقين من الفرنسيين ، وقد قال إن بنتا جرويل لم يطل مكثه فى تولوز لأن القوم هناك « يحرقون حكامهم أحياء كما تشوى الرنجة الحمراء » — مشيراً بذلك إلى إعدام أستاذ قانون مهرطق (٢ — ٥) ولكن يبدو أن ميوله البروتستنتية اقتصرت على الإنسانيين من البروتستنت دون غيرهم . ولقد تبع إرزمس فى إعجاب . ولكنه لم يمل إلى لوثر إلا فى اعتدال . وقد صدف فى اشمئزاز عن جزمية كالفن وغلوه . كان يتسامح فى كل شىء إلا عدم التسامح . وكان كجميع الإنسانيين إذا أكرهوا على الاختيار يؤثر الكاثوليكية بأساطيرها وعدم تسامحها وفنونها ، على البروتستنتية بقدريتها وعدم تسامحها ونقائها . وكثيراً ما أكد إيمانه بالعقائد الأساسية فى المسيحية ، ولكن لعل هذا كان من قبيل الحصافة فى رجل كان على استعداد فى سبيل الدفاع عن آرائه لأن يلقى عقاب الحرق دون سواه . ولقد أحب تعريفه لله حباً جعله (أو جعل من أكمل كتابه) . يعيده غير مرة (٣ — ١٣ ؛ ٥ — ١٤٧) . ويبدو أنه آمن بخلود النفس

(٢ — ٨ ، ٤ — ٢٧) ، ولكنه آثر بوجه عام حديث الموضوعات الداعرة على حديث الأخرويات . ولقد اتهمه فاريل بالارتداد لأنه قبل وظيفة كاهن مودون(٣٥) . ولكن هذا القبول كما فهمه واهب الوظيفة ومتلقيها على حد سواء لم يكن سوى سبيل إلى الرزق .

أما إيمانه الحقيقي فكان بالطبيعة . ولعله فى هذه الناحية كان لا يقل عن جيرانه المحافظين إيماناً وسذاجة . لقد آمن بأن قوى الطبيعة تعمل للخير فى النهاية ، ولم يقدر حيادها نحو الناس والحشرات على السواء حق قدره . وكان كروسو ، وعلى النقيض من لوثر وكالفن ، يؤمن بطبيعة الإنسان الخيرة ، أو يثق كغيره من الإنسانيين بأن التعليم الجيد والبيئة الطيبة كفيلان بجعل الإنسان خيراً . وقد نصح الناس كما نصحهم مونتينى بأن يتبعوا الطبيعة ، ولعله كان ينظر بعدم اهتمام خبيث بما قد يحدث عندها للمجتمع والحضارة . وقد يبدو فى وصفه لدير تيليمى مبشراً بالفوضى الفلسفية ، ولكن الأمر لم يكن كذلك ؛ فهو لا يسمح بدخول الدير إلا لمن يؤهله حسن تربيته وتعليمه وإحساسه بالشرف لامتحانات الحرية .

لقد كانت « البنتاجرويليه » فلسفته النهائية . وعلينا ألا نخلط بين هذه الكلمة وبين كلمة بنتاجرويليون . التى تعنى عشباً مفيداً ليس فى حقيقته غير القنب . وفائدته النهائية أنه يصلح لصنع أربطة رقبة مناسبة للمجرمين . أما البنتاجرويلية فهى العيش على طريقة بنتاجرويل فى عشرة لطيفة متسامحة مع الناس والطبيعة ، وفى استمتاع شاكر بكل طيبات الحياة ، وفى تقبل بشوش لما يصيبنا من تقلبات ومن نهاية لا مفر منها . وقد عرف رابليه هذه البنتاجرويلية مرة بأنها « ضرب من فرح الروح كامن فى احتقار أحداث الحياة » (٤ — المقدمة) . وهى تجمع بين فلسفات الرواقى زينون ، والكلبى ديوجين ، والفيلسوف أبيقور :

وخلاصتها تحمل كل الأحداث الطبيعيةبرباطة جأش . والنظر دون تضرر إلى جميع الحوافز والعمليات الطبيعية ، والاستمتاع بكل لذه سليمة دون كبت دينى متزمت أو تبكيت لاهوتى للضمير . لقد كان بنتاجرويل « يتقبل كل شىء برضى ، ويفسر كل فعل بأحسن نية . لا يناكد نفسه ولا يزعجها . . . لأن كل ما تحويه الأرض من متاع . . . لا يساوى أن تضطرب من أجله عواطفنا أو تختل ، وأن نفكر أو نحير بسببه حواسنا أو أرواحنا » (٣ — ٢) . ويجب ألا نبالغ فيما تحويه هذه الفلسفة من عنصر أبيقورى . فخمريات رابليه لفظية أكثر منها كحولية . وهى لا تنسجم تماماً مع ما وصفه به أحد معاصريه من أنه رجل « طلق المحيا لطيف الوجه هادئه »[٣٦] . أما الخمر الذى احتفى به فهو خمر الحياة . إن هذا الأمير المزعوم لمدمنى الخمر يضع على فم جارجانتوا عبارة تصوغ فى بضع كلمات تحدى العصر الذى نعيش فيه «إن العلم بغير ضمير ليس إلا مجلبة لخراب النفس » . (٢ — ٨) .

ولقد اعتزت فرنسا برابليه أكثر من اعتزازها بأى من عمالقة القلم فيها باستثناء مونتيني وموليير وفولتير . ووصفه إتيين باسكييه الذى عاش فى قرنه بأنه أعظم كتاب العصر . وحين تصلبت عادات المجتمع الفرنسى فى القرن السابع عشر تحت الخرمات والباروكات . وطغت الأشكال الكلاسيكية . فقد رابليه بعض مكانته فى ذاكرة الأمة ، ولكن حتى فى تلك الفترة اعترف موليير وراسين ولافونتين بتأثرهم به ، وأحبه فونتينيل ، ولابروير ، ومدام دسفنيه . وانتحل باسكال تعريفه لله . أما فولتير فقد بدأ باحتقار جلافته ، وانتهى بالولاء له . وحين تغيرت اللغة الفرنسية استعصى فهم رابليه على القراء الفرنسيين فى القرن التاسع عشر ، ولعله اليوم أكثر شعبية فى البلاد الناطقة بالإنجليزية منه فى فرنسا . ذلك أن السر توماس أوركهارت نشر فى ١٦٥٣

و١٦٩٣ ترجمة للجزئين الأول والثالث صاغها فى إنجليزية قوية لا تقل حيوية وتدفقاً عن الأصل الفرنسى . ثم أكمل بيتر دموتيه الترجمة فى ١٧٠٨ ، وبفضل جهود هذين الرجلين أصبح جارجانتوا وبنتاجرويل من عيون الأدب الإنجليزى . ولقد سرق منه سويفت كأنما يستند إلى حق انتمائه إلى الاكليروس . ولا بد أن ستيرن وجد فى الكتاب خميرة لسخريته اللاذعة . إنه أحد الكتب التى لا تنتمى إلى أدب بلد بعينه بل إلى الأدب العالمى . .

٦ — رونسار وجماعة البلياد (النجوم السبعة) Péiade

كان فيض غامر من الشعر يتدفق خلال هذه الفترة على فرنسا . وقد وصل إلى علمنا أسماء نحو ٢٠٠ شاعر فرنسى لمعوا إبان حكم فرانسوا الأول وأبنائه . ولم يكن هؤلاء الشعراء أصواتاً جوفاء تصرخ فى برية لا تعبأ بهم ، بل مقاتلين يخوضون معركة أدبية — معركة الشكل ضد المضمون . ورونسار ضد رابليه — قررت طبيعة الأدب الفرنسى حتى عصر الثورة .

ولقد ألهمتهم حماسة معقدة . فهم من ناحية يتوقون إلى مباراة اليونان والرومان فى نقاء الأسلوب وكمال الشكل . ومنافسة كتاب السونيتات الإيطاليين فى رشاقة الكلام وجمال الأخيلة ، ولكنهم من ناحية أخرى مصممون على ألا يكتبوا باللاتينية كالأدباء الذين علموهم وأثاروا حماستهم ، بل بلغتهم القومية وهى الفرنسية . وهم فى الوقت ذاته يريدون أن يلينوا ويهذبوا هذه اللغة التى ما زالت خشنة ، وذلك بتعليمها الألفاظ والعبارات والتراكيب والأفكار التى سرقوها محكمة من الآداب الكلاسيكية. وافتقار رواية رابليه إلى الشكل المحدد ، بما يتخللها من أحداث عرضية ، جعلها فى نظرهم إناء خشناً من الطين شكل باليد على عجل ثم أعوره

الطلاء والصقل . لذلك اعتزموا أن يضيفوا إلى حيوة رابليه « الأرضية » ضبطاً للشكل المصمم بعناية ، وللشعور الخاضع لحكم العقل .

وبدأت الحملة الكلاسيكية في ليون إبان حياة رابليه نفسه . فقد أنفق موريس سيف جانباً من حياته فيما خاله تحديداً لموقع قبر لورا حبيبة بترارك . ثم كتب ٤٤٦ مقطعاً شعرياً لحبيبته ديلي . ومهد الطريق أمام رونسار بفضل ما تميز به شعره من رقة حزينة . وكان أقدر منافسيه في ليون امرأة تدعى « لويز لابيه » راحت وهى مدججة بسلاحها الكامل تقاتل كأنها جان دارك أخرى في بربنيان . ثم هدأت ثائرتها بزواجها من صانع حبال أغضى — على طريقة الفرنسيين اللطيفة عن غرامياتها الجانبية . كانت تقرأ اليونانية واللاتينية والإيطالية والإسبانية . وتعزف على العود عزفاً ساحراً . وتحتفظ بصالون لمنافسيها وعشاقها . وقد كتبت بضع قصائد من أسبق وأروع ما كتب من سونيتات في اللغة الفرنسية . وحسبنا للحكم على شهرتها أن نستشهد بجنازتها (١٥٦٦) التي قال مؤرخ إخبارى أنها « كانت انتصاراً . فقد حمل نعشها مخترقاً المدينة ووجهها مكشوف ورأسها مكلل بتاج من الزهور . لقد عجـــز الموت عن أن يشوهها . وجلل أهل ليون قبرها بالزهور والدموع » .(٣٧) وعن طريق شعراء ليون هؤلاء انتقل الأسلوب والمزاج البتراركيان الى باريس ودخل إلى جماعة البلياد .

وكلمة البلياد ذاتها صدى يردد الكلاسيكية . ذلك أن إسكندرية القرن الثالث قبل الميلاد كان فيها كوكبة من شعراء سبعة أطلق عليهم هذا الاسم مأخوذاً من الثريا التي خلدت ذكر بنات أطلس وبليونى الاسطوريات . على أن رونسار ، ألمع نجوم البلياد الفرنسي . قل أن استعمل هذا اللقب . وكانت نماذجه التي حاكاها هى أناكريون ؛ وهوراس

لا ثيوقريطس أو كاليماخوس الإسكندريان . وفى ١٥٤٨ التقى فى فندق صغير بتورين بيواكيم دبلليه Du Bellay ، وائتمر معه على توجيه الشعر الفرنسي صوب الكلاسيكية وضما إلى مشروعهما أربعة شعراء شبان آخرين هم : أنطوان دبايف ، ورِمى بيللو ، وإتيين جوديل ، وبونتيس دتيار . ثم انضم إليهم أيضاً الأديب جان دورا الذى كان لمحاضراته عن الأدب اليونانى فى كلية فرنسا وكلية كوكبريه الفضل فى تأجيج حماستهم للشعراء اليونان الغنائيين . وأطلقوا على أنفسهم لقب البريجاد (اللواء) وأقسموا أن ينقذوا ربة الشعر الفرنسى من أيدى جان دمونج ورابليه الخشنة . ومن بحور فيون ومارو المفككة . وكانوا يشمئزون من لغة جارجانتوا وبنتاجرويل الصاخبة وحكمتهما المستترة ، ولم يروا أى ضابط كلاسيكى فى تلك الأفعال والنعوت المختلطة ولا فى تلك التدفقات البذيئة ، ولم يجدوا فيها أى شعور بجمال شكل المرأة أو الطبيعة أو الفن . ولاحظ أحد أعدائهم من النقاد أنهم سبعة شعراء ، فأطلق عليهم لقب « البلياد » . ولكن انتصارهم جعل من هذا اللقب ناراً على علم .

فى ١٥٤٩ أذاع الشاعر دبلليه البرنامج اللغوى لهذه الجماعة فى كتابه « دفاع عن اللغة الفرنسية وجلاء لها » . فأما الدفاع فقد قصد به أن فى الاستطاعة تمكين الفرنسية من التعبير عن كل ما عبرت عنه اللغات القديمة . وأما الجلاء فقصد به أن فى استطاعة الفرنسية أن تكتسب بريقاً جديداً . وأن تصقل ذاتها وتجلو نفسها بنبذ الكلام الخشن الذى يسود النثر الفرنسى . والأغانى الشعبية . والقصائد القصيرة المتكررة اللازمات . والألوان القديمة من الشعر الفرنسى . وأن تجدد وتثرى ذاتها باقتباس العبارات ودراسة الأشكال الكلاسيكية . كما توجد فى أناكريون وثيوقراطيس وفرجيل وهوراس وبترارك . ولا غرو فقد أصبح بترارك فى نظر جماعة الشعراء السبعة كاتباً كلاسيكياً . وغدت السونيت أكمل الأنماط الأدبية قاطبة .

أما « بيير رونسار » فقد حقق فى شعره تلك المثل التى أعرب عنها دبلليه فى نثره الرائع . وهو سليل أسرة خلعت عليها النبالة مؤخراً ، فقد كان أبوه رئيس خدم فرانسوا الأول ، وعاش بيير حقبة من حياته فى البلاط الملكى الفخم . وكان تابعاً للدوفن فرانسوا ، ثم لمادلين التى تزوجت جيمس الخامس ملك إسكتلنده ، ثم مرافقاً للأمير الذى أصبح فيما بعد الملك هنرى الثانى . وكان يصبو إلى المشاركة فى المغامرات الحربية . ولكنه ابتلى بالصمم وهو بعد فى السادسة عشرة . ومن ثم فقد أخذ سيفه وجرد عوضاً عنه قلمه . والتقى بشعر فرجيل صدفة ، فرأى فيه « كمالا فى الشكل واللفظ لاعهد لفرنسا به » . وأخذ دوريه بيده فانتقل به من اللاتينية إلى اليونانية ، وعلمه قراءة أناكريون واسخيلوس وبندار وارستوفان . وصاح به الفتى « سيدى ! لم أخفيت عنى هذه الكنوز طوال هذا الزمن ؟ »(٣٨) وحين بلغ الرابعة والعشرين التقى بالثائر دبلليه . ومن ذلك التاريخ وزع وقته باخلاص بين الأغانى والنساء والخمر .

وقد أكملت « قصائده الغنائية Odes » (١٥٥٠) هذه الثورة الغنائية . وكانت تقليداً صريحاً لهوراس ، ولكنها أدخلت هذا اللون فى الشعر الفرنسى ، ووقفت القصائد على قدميها سواء فى نقاء اللغة أو جمال العبارة أو إحكام الشكل . وبعد عامين اتخذ بترارك نموذجاً له فى ١٨٣ قصيدة من السونيتات التى نشرها فى ديوانه « غراميات » وبلغ فيها من الرشاقة والصقل ما لم يبزه أحد قط فى الشعر الفرنسى . وكان يكتب ليتغنى الناس بشعره ، وقد لحنت له قصائد كثيرة فى حياته ، بعضها لحنه كبار الموسيقيين أمثال جانكان وجودتميل . وكان فى قصائده يغرى النساء اللاتى يتغزل فيهن بتلك الدعوة القديمة ، دعوة الاستمتاع بالحياة ما دام حسنهن مضيئاً ، ولكنه حتى فى هذا الموضوع القديم راح يعزف نغمة أصيلة . كتنبيهه فتاة حذرة إلى أنها ستندم يوماً ما لأنها فوتت فرصة الغواية من

شاعر شهير مثله . يقول : « حين يتقدم بك العمر كثيراً . إذ تجلسين في المساء إلى المدفأة تتحدثين وتخيطين على ضوء شمعة ، ستنشدين قصائدى وتقولين في عجب : لقد أذاع رونسار اسمى يوم كنت جميلة . عندها لن يكون من بين خدماتك اللذين يسمعون بنبأ كهذا — حتى ولو بعث طنين المناسج النوم إلى أجفانهم — من لا يفيق وهو يسمع اسمى . ليباركك على ما حظيت به من مديح خالد . عندها سأكون راقداً تحت الثرى ، شبحاً بلا عظم ، ثاوياً تحت الآس . وستكونين يومها عجوزاً قد احدودب ظهرها وهى جالسة إلى المدفأة ، وستأسفين على حبى وعلى ازدرائك الفخور . فاستمعى إلى وعيشى الآن دون انتظار لغد . واقطفى منذ اليوم ورود الحياة » .

وكانت عظمة الأسلوب تليق ببلاط كاترين دمديتشى التي جلبت معها إلى فرنسا حاشية إيطالية حملت بترارك فيما حملت من كتب . وما لبث الشاعر الجديد — بمشيته المختالة برغم ما مسه من صمم . وبقوامه العسكرى وشعر رأسه ولحيته الذهبي ، ووجهه الشبيه بوجه هرمز كما وصفه براكسيتيليس — أن أصبح أثيراً لدى كاترين ، وهنرى الثانى ، ومارى ستيوارت . بل وإليزابث ملكة إنجلترة التى أهدته خاتماً من الماس بوصفها ابنة خاله السابعة عشرة . ووجدت أسطورة البلياد اليونانية الرومانية ترحيباً . وحين تحدث الشعراء عن أوليمبوس قدر البلاط لهم هذه التحية .(٣٩) فهنرى هو النظير لجوبيتر ، وكاترين هى المقابل لجونو ، أما ديان فهى ديانا ، وأكدت هذا التشابه التماثيل التى نحتها المثال جوجون .

وبعد موت هنرى واصل شارل التاسع مصادقة رونسار ، دون أن تسفر هذه الصداقة عن نتيجة طيبة . ذلك أن الملك الشاب كان يبغى أن ينظم له الشاعر ملحمة عن فرنسا تطاول ملحمة الاينيادة . وكتب الملك المغفل يقول : « أستطيع أن أعطى الموت ، أما أنت فتستطيع أن تعطى

الخلود(٥٠) . » وبدأ رونسار نظم « الفرنسيادة » المنشودة . ولكنه ألفى ربة شعره أقصر نفساً من أن تجرى هذا الشوط الطويل . وما لبث أن أقلع عن المحاولة المزعومة . وعاد إلى غنائياته وحبه . وقضى أيامه فى دعة وسلام حتى أدركته الشيخوخة وهو فى مأمن من ضجيج الدنيا . محافظاً فى السياسة والدين دون ما خطر . مكرماً من شباب الشعراء . محترماً من الجميع إلا من الموت . وقد وافته منيته فى ١٥٨٥ ودفن فى تور ، ولكن باريس منحته جنازة أولمبية مشى فيها كل أعيان العاصمة ليسمعوا أسقفاً يرتل « قصيدة جنائزية » .

أما الشعراء الذين خلعوا عليه لقب الإمارة فقدأصدروا كثيرا من دواوين الشعر . ولكنه شعر ميت برغم رقته . وكان أكثرهم كسيدهم وثنيين يعلنون كثالكتهم المحافظة حين يروقهم إعلانها . ويحتقرون الهيجونوت المتزمتين ، وكانوا أرستقراطيين كبرياء . ودما أحياناً . وإن خوت جيوبهم ، يكتبون لدائرة من القراء أتيح لها من الفراغ ما يكفى للاستمتاع بالشكل . ورد رابليه على خصومتهم بالسخرية من حذلقتهم ، ومن تقليدهم الوضيع للبحور والعبارات والنعوت اليونانية والرومانية . ومن ترديدهم التافه للموضوعات القديمة وللأخيلة والمراثى البترار كية . وفى هذا الصراع بين المذهبين الطبيعى والكلاسيكى تقرر مصير الأدب الفرنسى . فأما شعراء فرنسا وكتاب مآسيها المسرحية فآثروا الطريق المستقيم الضيق ، طريق البناء الكامل والجمال المنحوت الدقيق . وأما كتاب النثر فقد استهدفوا إمتاع القراء بقوة مادتهم دون سواها . ومن ثم بات الشعر الفرنسى قبل عصر الثورة عصياً على الترجمة . فأنت لا تستطيع تحطيم إناء الشكل ثم إعادة صبه فى قالب أجنبى . على أن هذين النهرين التقيا فى فرنسا القرن التاسع عشر . وامتزج نصفا الحقيقة . واقترن المضمون بالشكل ، وعقد اللواء للنثر الفرنسى .

٧ — وايات وصـــرى

مر التأثير الإيطالى بفرنسا وبلغ إنجلتره ، لا فيضا دافقا بل نهراً ينطلق إلى البحر بمخارج كثيرة . فالعلم والدرس اللذان شغلا جيلا ألهما الأدب فى الجيل التالى ، وأصبح وحى اليونان والرومان المقدس إنجيل النهضة . ففى عام ١٤٨٦ مثلت مسرحيات بلوتوس فى إيطاليا ، ثم انتقلت سريعاً إلى بلاطى فرانسوا الأول وهنرى الثامن المتنافسين . وفى عام ١٥٠٨ افتتحت مسرحية كالاندرا للكاتب ببينا عهد الملهاة الكلاسيكية المكتوبة باللغة الوطنية فى إيطاليا . وفى عام ١٥٥٢ بدأت المأساة الكلاسيكية المكتوبة بالفرنسية فى فرنسا بمسرحية جوديل « كليوبطره أسيرة » ، وفى عام ١٥٥٣ أخرج نيكولاس أودال أول ملهاة إنجليزية ذات شكل كلاسيكى ، قال ناقد عنها «إن مسرحية رالف رويستر دويستر تشم فيها رائحة بلوتس»[٤١]. وهذا حق ، ولكنك تشم فيها أيضاً رائحة إنجلترة ، ورائحة هذه الفكاهة القوية التى كان شكسبير مزمعاً أن يقدمها للدهماء من رواد المسارح الإليزابيثية .

وتجلى التأثير الإيطالى فى أروع صوره فى الشعر إبان حكم أسرة تيودور . كان أسلوب العهد الوسيط لا يزال حياً فى بعض القصائد الشعبية الجميلة مثل « العذراء غير السمراء » (١٥٢١) ، ولكن حين انصرف الشعراء الذين أظلهم الملك الشاب هنرى الثامن برعايته إلى قرض الشعر اتخذوا بترارك وأشعاره الغنائية « الكانزونييري » مثلا يحتذونه . وقبل ارتقاء إليزابيث العرش بسنة واحدة نشر رتشرد توتل ، أحد الطباعين اللندنيين ، كتاباً سماه « منوعات » كشفت فيه قصائد رجلين من رجال البلاط البارزين عن انتصار بترارك على تشوسر ، وانتصار الشكل الكلاسيكى على فيض خماسة العهد الوسيط . أما أول الرجلين ، وهو السر توماس وايات Wyatt فقد قام برحلات كثيرة إلى فرنسا وإيطاليا بوصفه دبلوماسياً

فى خدمة الملك ، وجاب معه بعض الإيطاليين ليعاونوه فى تهذيب أصحابه وتمدينهم . ولقد أحرق أصابعه بنار الحب كما يخلق برجل بلاط أصيل يعيش فى عصر النهضة . وفى رواية أنه كان واحداً من عشاق آن بولين الأوائل ، وأنه سجن فترة قصيرة حين أرسلت إلى برج لندن(٤٢). وقد ترجم أثناء ذلك سونيتات بترارك . وكان أول من ضغط الشعر الإنجليزى فى تلك الصورة المحكمة .

فلما مات وايات بالحمى وهو يعد فى التاسعة والثلاثين (١٥٤٢) تلقى القيثارة من يده شاعر رومانسى آخر من بلاط هنرى يدعى هنرى هوارد (إيرل أف صرى Surrey) . وتغنى صرى فى شعره بمفاتن الربيع ، وأنحى باللوم على الصبايا العازفات عن حبه ، وأقسم ليكونن وفياً إلى الأبد لكل منهن بدورها . وقد ولع بالمغامرات الليلية فى لندن ، وقضى فى السجن فترة عقاباً له على تحديه غريماً فى مبارزة ، وقدم للمحاكمة جزاء أكله اللحم فى الصوم الكبير . وحطم بعض النوافذ بقوسه العابثة . وقبض عليه ثانية ، ثم أفرج عنه . وأبلى فى الحرب على أرض فرنسا بلاء حسناً دفاعاً عن وطنه إنجلتره . ولما عاد راح يداعب فكرة ارتقاء العرش الإنجليزى على مسمع من الناس ، فحكم عليه بالشنق وانتزاع أحشائه وتقطيعه أرباعاً ، واكتفى من ذلك كله بضرب عنقه (١٥٤٧) .

كان الشعر ترفاً عارضاً وسط حياة صرى العنيفة . وقد ترجم بعض أجزاء من الإنيادة ، وأدخل الشعر المرسل فى الأدب الأنجليزى ، وخلع على السونيت الشكل الذى استخدمه شكسبير فيما بعد . وقد وجه إلى أحد شعراء الرومان أنشودة رعوية حزينة تتغنى بحياة الريف الرتيبة وما يشيع فيها من سلام وطمأنينة ، ربما حين توقع أن مسالك المجد الذى لا حق لصاحبه فيه قد توردة موارد الحتوف . « أى مارتيال ، إليك الأشياء التى ألفيتها مفضية إلى الحياة السعيدة : الزهد فى المال الذى لا يكسب بالعرق ،

والأرض المثمرة . والفكر الهادىء . والصديق الكفوء لصديقه ، لا بغضاء ولا شحناء ، لا تغيير فى السلطة ولا فى الحكومة ، حياة سليمة خلت من المرض ، وأسرة متصلة الأجيال ، وطعام بسيط لا ترف فيه ، وحكمة صادقة مقرونة بالبساطة ، وليل خلاً من كل هم ، لا تستبد فيه الخمر بالعقل ، وزوجة وفية لا تلج فى النقاش ، ونوم يزجى الليل ، ورضى بما ملكت يداك . لا تخشى الموت ولا تخاف صولته » .

٨ — هانز زاكس

فى القرن الذى تلا مقالات لوثر تاه العقل الألمانى فى جدل المائة عام الذى مهد لحرب الثلاثين عاماً . وبعد عام ١٥٣٠ توقف نشر الكتب الكلاسيكية القديمة إلى حد كبير ، وقل عموماً عدد الكتب المنشورة ، وحل محلها سيل من الرسائل الجدلية . فراح راهب فرنسسكانى اسمه توماس مورنر ذو قلم حاد يسوط الناس يمنة ويسرة بسلسلة كتيبات عن الأوغاد أو الحمقى (طائفة الأوغاد ، مجمع الحمقى) . . . وكلها منقول بتوسع من كتاب برانت **Narrenschiff** سفينة الحمقى(*) » . وكثير من الحمقى الذين هاجمهم مورنر كانوا من رجال الكنيسة ، وفى البداية ظنه الناس لوثرياً ، ولكنه أعلن أن لوثر « كلب صيد متوحش ، ومارق مجنون ، غبى ، مجدف »(١٣) . فوصله هنرى الثامن بمائة جنية .

أما سبستيان فرانك فكان أنبل من صاحبه وأصفى معدناً . وكان كاهناً فى أوجزبورج حين أقبلت حركة الإصلاح البروتستنتى ، فرحب بها ثورة جريئة تمس إليها الحاجة ، وأصبح بعد ذلك قسا لوثرياً

(*) نقل الكسندر باركلى مثل هذا من برانت فى كتابه « سفينة الحماقات » (١٥٠٩) مضيفا اليه طعنات من عنده .

(١٥٢٥) . وبعد ثلاث سنوات تزوج من أوتيلى بهام ، وكان آخوتها من القائلين بتجديد العماد ، فعطف على هذه الطائفة المضطهدة ، وندد بالتعصب اللوثرى ، فطرد من ستراسبورج ، واحترف صناعة الصابون فى أولم ليكسب قوته . وسخر من تحكم النبلاء الألمان فى سلامة العقيدة ، فقال : « إذا مات أمير فأدخل خليفته مذهباً آخر ، أصبح هذا المذهب لاتو كلمة الله »[٤٤] . « تتسلط على جميع الناس اليوم غيرة مجنونة تزعم أننا يجب أن نؤمن . . . أن الله إلهنا وحدنا . وأنه لا جنة ولا إيمان ولا روح ولا مسيح إلا فى مذهبنا » . أما إيمانه فكان الالوهيـــة الكونية التى لا توصد باباً . « إن قلبى ليس غريباً عن أى إنسان . فلى إخوة بين الترك والبابويين واليهود وجميع الشعوب[٤٥] » . وكان يتوق إلى « مسيحية . . . حرة لامذهبية . . . لا يقيدها أى شىء خارجى ، حتى ولا الكتاب المقدس[٤٦] . وأقصته أولم هى الأخرى إذ صدمتها هذه المشاعر التى لا تليق بجيله . فعمل طباعاً فى بال . وهناك مات شريفاً برغم فقره (١٥٤٢) .

ثم انغمس الشعر والدراما الألمانيان فى اللاهوت انغماساً أفقدهما صفة الفن وأحالها بعض أسلحة القتال . وفى هذه الحرب استحل الكتاب كل جعجعة وجلافة وفحش فى القول . ولو أنك استثنيت الأغانى الشعبية والتراتيل لما وجدت للشعر أثراً إلا فى وابل من طلقات القوافى المسمومة . ولم تعد الجماهير تتذوق مسرحيات القرن الخامس عشر الدينية التى ينفق على إخراجها بسخاء ، فحلت محلها مهازل شعبية تتهكم بلوثر أو بالبابوات .

على أن ألمانيا لم تعدم بين الحين والحين رجلا يطفو فوق هذا الحقد والعنف ليرى الحياة كلا متكاملا . ولو أن هانز زاكس استمع إلى قضاة نورمبرج لظل صانع أحذية كما كان ؛ ذلك أنه حين نشر تاريخاً منظوماً لبرج بابل دون أن يحصل على الإذن المدنى بطبعه ، صادروا الكتاب

وأكدوا لصاحبه أن الشعر ليس ميدانه ما فى ذلك ريب . وأمروه أن يلتزم قوالب أحذيته(٤٧) . ولكن هانز كان يتمتع ببعض الحقوق التى نالها بفضل مروره بالمراحل العادية التى أهلته لأن يصبح رئيس فرقة المغنين . ولعل المفارقة التى تبدو لنا فى كونه حذاء وشاعراً تنتفى إذا لاحظنا أن نقابة الغزالين والحذائين التى انتمى إليها كانت تمارس بانتظام الغناء الكورالى ، وتعزف فى حفلات موسيقية عامة ثلاث مرات فى السنة . ولهذه النقابة ، وفى أية مناسبة أخرى ، كان زاكس يكتب الأغانى والتمثيليات فى مثابرة وجلد كأنه يلوك فى فمه مسامير أحذيته .

وعلينا ألا نحسبه شاعراً عظيماً ، فما هو إلا صوت عاقل مبتهج يعلو وسط قرون من الكراهية . وكان شغله الشاغل هم البسطاء من الناس لا العباقرة ، وتمثيلياته كلها تقريباً تدور حول هؤلاء . بل إن الله نفسه يبدو فى هذه التمثيليات أحد العامة الخيرين ويتكلم كما يتكلم قسيس الناحية . وبينا راح معظم الكتاب يتبلون صحائفهم بالمرارة أو التبذل أو فحش القول ، كان هانز يصور ويمجد فضائل المحبة والواجب والتقوى والوفاء الزوجى والحب الأبوى والبنوى . وقد بدأ بنشر قصائد (١٥١٦) ، تستهدف « زيادة الثناء على الله والتحدث بمجده » و « مساعدة إخوانه على أن يحيوا حياة التوبة »(٤٨) . وظلت هذه الروح الدينية تبعث الدفء فى فى كتاباته إلى النهاية . وقد نظم نصف الكتاب المقدس ، مستخدماً نص الترجمة التى قام بها لوثر ، وحياه هانز ولقبه بـ « بلبل فتنبرج » الذى سينقى الدين ويرد الفضيلة . « استيقظوا ؛ استيقظوا ؛ فقد بزغ الفجر ، وهأنذا أسمع فى الغابات أنشودة تتردد . إنه البلبل العظيم تصدح موسيقاه فوق السهل والجبل . هاهو الليل يتلاشى فى الغرب ، والصبح يطلع من الشرق ، والفجر يقبل فيطرد غيوم الليل المنصرم »(٤٩) .

وأصبح زاكس الآن شاعراً ملحمياً لحركة الإصلاح البروتستنتى ،

وراح يندد بأخطاء الكاثوليك فى إصرار ساخر . فكتب التمثيليات عن الأوغاد من الرهبان ، وأرجع قبيلتهم إلى الشيطان ، ونشر مسرحيات كاريكاتورية ساخرة وهزليات تعرض على سبيل المثال كاهناً يغوى فتاة أو يتلو القداس وهو مخمور . وفى ١٥٥٨ نشر «تاريخاً منظوماً للبابة جوانا» — وهى قصة خرافية تقبلها معظم الوعاظ البروتستنت على أنها تاريخ . ولكن هانز ندد باللوثريين أيضاً ، ورماهم بالتناقض الفاضح بين حياتهم وعقيدتهم . «إنكم معشر اللوثريين جلبتم على الإنجيل أشد الاحتقار بسبب نهمكم للحم ، وضجيجكم الصاخب ، وذمكم للكهنة ، وشجاركم وسخريتكم وسبابكم وغير ذلك من مظاهر سلوككم الشائن[٥٠] .» وشارك الكثيرين فى الحزن على ما شاب الحيل من جرى وراء الكسب وفساد فى الخلق .

ونحن إذا استثنينا فكرة فاجنر المثالية ، وجدنا على الجملة أن هانز زاكس ربما كان الممثل للرجل الألمانى الطيب برغم ما يشوبه من فجاجة وجلافة ، والذى لا بد كان أغلبية فى الجنوب على الأقل . ونحن نراه سعيداً فى بيته ، مترنماً بشعره طوال أربعين عاماً . ولما ماتت زوجته الأولى (١٥٦٠) تزوج وهو فى الثامنة والستين من حسناء فى ربيعها السابع والعشرين ، وظل ينعم بالحياة برغم هذه المحنة . ولا بد انا من إنصاف عصر ومدينة مكنا حذاء من أن يصبح فى ظلهما أديباً إنسانياً ، وشاعراً ، وموسيقياً ، وأن يقتنى مكتبة كبيرة ويستعملها ، وأن يتعلم الأدب اليونانى والفلسفة اليونانية ، وأن ينظم ٦٠٠٠ قصيدة ، وأن يعيش متمتعاً بقسط لا بأس به من الصحة والسعادة حتى وافته المنية وقد بلغ الثانية والثمانين .

٩ — ربه الشعر الإيبيرية ١٥١٥ — ٥٥

كانت هذه فترة مفعمة بالنشاط والحيوية فى أدب البرتغال . ذلك أن حافز الاكتشاف المثير ، والثروة المنتشرة بفضل التوسع فى التجارة ، والتأثير الإيطالى ، والأدباء الإنسانيين فى كويمبرا ولشبونه . والرعاية التى بسطها بلاط مثقف — كل هذا تضافر لإحداث ازدهار سيبلغ ذروته فى « اوزيادات » كاموينز (١٥٧٢) : ونشبت معركة مرحة بين « المدرسة القديمة » — مدرسة جل فيتشنتى الذى تعلق بالموضوعات والقوالب القومية ، ومدرسة أبناء القرن الخامس عشر (ويقابله عندنا السادس عشر) الذين اتبعوا صا دى مراندا فى تحمسه للنماذج والأساليب الإيطالية والكلاسيكية . قد ظل جل فيتشنتى — وهو « شكسبير البرتغالى » — طوال أربعة وثلاثين عاماً مهيمناً على المسرح بفصوله التمثيلية البسيطة . . . ورضى البلاط عنه ، وتوقع منه إحياء كل حدث ملكى بمسرحية ، وحين دب الشقاق بين الملك والبابا ، سمح لجل بأن يهجو البابوية فى غير تحرج حتى قال اليآندر بعد أن شاهد إحدى هذه التمثيليات فى بروكسل « ظننتنى فى قلب سكسونيا أستمع إلى اوثر »[٥١] . وكان هذا الكاتب المسرحى الخصب يكتب تارة بالإسبانية ، وتارة بالبرتغالية ، وتارة بكلتيهما ، متخللا كتاباته بنتف من الإيطالية والفرنسية واللاتينية الكنسية والعامية الريفية . وكثيراً ما كان يقطع حركة المسرحية — كشكسبير — بأشعار غنائية تتسلل إلى قلوب الشعب . وكان جل كشكسبير ممثلا كما كان كاتب تمثيليات ومديراً للمسرح ومشرفاً على تنظيم مكان وزمان المشاهد المسرحية . وكان إلى ذلك من خيرة صاغة الذهب فى جيله .

وفى ١٥٢٤ عاد فرانشسكو صادى مراندا من إيطاليا بعد أن قضى فيها ست سنوات وجلب معه الحمى الكلاسيكية التى أتت بها النهضة . وكما

فعل رونسار وجماعة البلياد فى فرنسا ، وسبنسر وسدنى فى إنجلترة . رأى مراند أن يضفى الكرامة والوقار على الأدب القومى بصوغ موضوعاته وبحوره وأسلوبه على غرار القوالب الكلاسيكية . وقد سلك بتراركا فى عداد الكلاسيكيين — شأنه فى ذلك شأن يواكيم دبلليه — وقدم السونيت لمواطنيه . وكما فعل جوديل ، كتب مراندا أول مأساة كلاسيكية بلغته القومية (١٥٥٠) ، وكان من قبل (١٥٢٧) قد ألف أول ملهاة نثرية برتغالية ذات شكل كلاسيكى . أما صديقه برنارديم ربيرو فنظم شعراً ريفياً بأسلوب فرجيل ، وعاش مأساة على طريقة تاسو ، فقد أثار بغرامه باحدى نساء البلاط ضجيجاً عالياً انتهى بنفيه من وطنه ، ثم عفى عنه ورضى عنه مليكه ، وأخيراً مات مجنوناً (١٥٥٢) .

وقد سجلت مدرسة من المؤرخين تنبض كتبهم بالحياة الانتصارات التى أحرزها المستكشفون . ومن هؤلاء المؤرخين كاسبار كوريا الذى ارتحل إلى الهند وارتقى فى السلم الوظيفى حتى أصبح أحد سكرتيرى ألبوكيرك ، وندد بفساد الموظفين الحكوميين ، ثم قتل فى ماقا فى ١٥٦٥ . وقد ألف إبان هذه الحياة النشيطة ، فى خمسة مجلدات ، كتاباً سماه « خلاصة موجزة » للفتح البرتغالى للهند ، مفعماً بالأوصاف الحية التى اتسم بها عصر التوسع هذا . أما فرناو لوبيس دى كاستانهيدا فقد قضى نصف حياته فى الشرق ، وأنفق جهداً امتد عشرين عاماً فى كتابة « تاريخ لكشف البرتغال وفتحها للهند » . أما جواو دى باروس فقد شغل عدة وظائف إدارية فى « بيت الهند » بلشبونه على مدى أربعين عاماً ، وأخجل سلفه بزهده فى جمع المال . وكانت المحفوظات والسجلات جميعها فى متناوله ، فألف بينها فى تاريخ اكتفى بتسميته « آسيا » ولكن الكتاب اكتسب اسماً آخر هو « العقود » لأن ثلاثة من مجلداته الأربعة الضخمة تناول كل منها فترة عشر سنوات تقريباً . والكتاب فى ترتيبه ودقته

ووضوحه يثبت للمقارنة بأى مؤلف تاريخى معاصر له باستثناء أعمال مكيافللى وجويتشارديني . ولو أخذ رأى أمته الفخورة لأنكرت هذين الاستثنائين ، فقد خلعت على باروس لقب « ليفى البرتغالى » .

كانت اللغة القشتالية قد أصبحت اللغة الأدبية لأسبانيا . وعاشت اللهجات الجليقية والبانسية والكتالونية والأندلسية فى الحديث الدارج ، وأصبحت اللهجة الجليقية اللغة البرتغالية ، ولكن استخدام القشتالية لغة للدولة والكنيسة أيام فرديناند وإيزابيلا وكسيمينيس ارتفع بهذه اللهجة إلى مقام لا يضارع . ومنذ ذلك العهد إلى يومنا هذا كان رنينها القوى الأداة المعبرة عن أدب أسبانيا . وقد أبدى بعض كتاب هذا العصر ولعاً باللغة . فضرب أنطونيو دى جيفارا المثل فى البحوث اللغوية والمحسنات البلاغية . وقد أعانت ترجمة اللورد بيرنرز لكتاب جيفارا « مزولة الأمراء » (١٥٢٩) على صياغة ذلك التأنق اللفظى الذى يتسم به كتاب جون لايلى Euphues واللعب السخيف بالألفاظ الذى نلحظه فى كوميديات شكسبير الأولى .

وتغنى الأدب الأسبانى بالدين والحب والحرب . وبلغ الولع بروايات الفروسية مبلغاً حمل مجلس النواب الأسبانى فى ١٥٥٥ على أن يوصى بحظرها قانوناً . وقد صدر هذا المرسوم فعلا فى أمريكا الإسبانية ، ولو أنه نفذ فى أسبانيا لكان من الجائز أن نحرم من دون كخوته » . ومن بين الروايات التى أبقى عليها الكاهن أثناء تنقيته لمكتبة « الفارس » رواية ألفها جورجى دى مونتيمايور تدعى Dian enamorata (١٥٤٢) ، وهى تقليد لرواية « أركاديا » التى كتبها الشاعر الأسبانى الإيطالى ساناتزارو (١٥٠٤) ؛ وقد قلدها هى الأخرى السر فليب سدنى فى قصة أركاديا (١٥٩٠) . ورواية مونتيمايور النثرية الشعرية مثال من مئات الأمثلة على تغلغل النفوذ الإيطالى فى الأدب الأسبانى . وهنا أيضاً نرى المغلوب

وقد غلب غالبيه . وترجم جوان بوسكان « Cortigiano » لكاستايونى نثراً لا يقل روعة عن الأصل ، ووافق على اقتراح الشاعر البندقى نافاجيرو بتعميم شكل السونيت فى أسبانيا .

وللتو تقريباً ارتقى صديقه جاركيلازو دى لافيجا بالسونيت إلى مرتبة الكمال فى اللغة القشتالية . وكان ككثيرين من كتاب هذه الفترة الأسبان سليل أسرة عريقة ، إذ أن أباه كان سفيراً لفرديناند وإيزابللا فى روما . وقد ولد جاركيلازو بطيلطلة عام ١٥٠٣ ، ونذر للجندية منذ صباه . وفى ١٥٣٢ أبلى أحسن البلاء فى رد الترك عن فينا ، وفى ١٥٣٥ جرح مرتين جراحاً خطيرة فى حصار تونس ، وبعد ذلك بشهور شارك فى حملة شارل الخامس الفاشلة على بروفانس . وفى فريجى تطوع بأن يقود هجوماً على قلعة تعرقل تقدم الجيش ، وكان أول المتسلقين لسور القلعة . فتلقى ضربة على رأسه قضت عليه بعد أيام وهو فى الثالثة والثلاثين . وفى إحدى قصائده السبعة والثلاثين التى تركها لصديقه بوسكان تسمع نغمة تتردد فى كل الحروب : يقول « والآن أصابت اللعنة أشد ما أصابت جيلنا هذا ، وكل ما مضى يتغير من سيء إلى أسواء . وأحس كل منا وطأة الحرب — حرب تتلوها حرب ، ونفى وأخطار ورعب . ونشأنا سُمٌ فى صميم نفسه من رؤية دمه مراقاً على رمح وهو حى لأن الرمح لم يصب هدفه . وقد فقد بعض القوم بضاعتهم وكل متاعهم . وذهب كل شيء ، حتى اسم المنزل والأسرة والزوجة والذكرى . وما جدوى هذا كله ؟ أبعض الشهرة ؟ أم شكران الأمة ؟ أم مكان فى التاريخ ؟ سيكتبون يوماً كتاباً ، وعندها سترى »[٥٢] .

ولم يعش ليره ، ولكن مئات الكتب خلدت ذكره فى إعزاز كبير . وسجل المؤرخون موته باعتباره أحد أحداث عصره الكبرى . وطبعت أشعاره فى مجلدات سهلة التداول حملها الجنود الأسبان فى جيوبهم

إلى عديد من الأقطار . ولحن الموسيقيون الأسبان شعره قصائد غنائية ، وأحال كتاب المسرحيات حوار قصائده الرعوية تمثيليات .

أما المسرحية الأسبانية فتوقفت عن الحركة ، ولم تدر أنها عما قليل ستكون قريعاً للمسرحية الإليزابيثية . وكانت الملهاة ذات الفصل الواحد ، والحزليات الناقدة ، والفصول المأخوذة من الروايات الشعبية . تمثلها الممثلون الجوالون فى الميادين العامة أو فى أفنية الفنادق الصغيرة . وأحياناً فى منزل أمير أو بلاط ملك . وقد حقق لوبى دى رويدا . الذى خلف جل فيتشانى باعتباره أهم مورد للفصول التمثيلية لهذه الفرق . لنفسه الشهرة ، وأعطانا لفظاً جديداً . بمهرجيه (البوبو) .

وكثر عدد المؤرخين . وعين شارل الخامس جونزالو فرنانديز دى أوفيدو مؤرخاً رسمياً للدنيا الجديدة ، وأنجز عملا متوسط الجودة هو تأليف كتاب ضخم سيء الترتيب سماه « التاريخ العام والطبيعى لجزر الهند الغربية » (١٥٣٥) ، وقد أثرى خلال الأعوام الأربعين التى قضاها فى أمريكا اللاتينية بفضل التنقيب عن الذهب ، وساءه كتاب « قصة خراب جزر الهند »(١٥٣٩ وما بعدها) الذى فضح فيه بارتلمى دلاس كازاس الاستغلال القاسى للعمال الوطنيين المستعبدين فى المناجم الأمريكية . وكان لاس كازاس قد أبحر مع كولمبوس فى ١٥٠٢ ، وأصبح أسقفاً لكيابا بالمكسيك . وكرس حياته كلها تقريباً للدفاع عن قضية الهنود الحمر . وقد وصف فى «مذكراته» التى وجهها للحكومة الإسبانية السرعة التى يموت بها الوطنيون فى ظروف العمل الشاقة التى فرضها عليهم المستعمرون . فقال إن الهنود لم يألفوا غير العمل الخفيف بسبب حرارة مناخهم وبساطة طعامهم ، ولم يستخرجوا الذهب من مناجمهم بل قنعوا بأخذه من سطح الأرض أو من قيعان

الجداول الضحلة ، ولم يستعملوه إلا حلية . وقد قدر لاس كازاس أن السكان الوطنيين لجزر الهند تناقصوا من ١٢،٠٠٠،٠٠٠ (وهو رقم مغالى فيه ولا ريب) إلى ١٤،٠٠٠ فى ثمانية وثلاثين عاماً(٥٣) . وانضم المرسلون الدومنيكان والجزويت إلى لاس كازاس فى الاحتجاج على هذا الرق الهندى(٥٤) ، وكانت إيزابالا لا تفتأ تندد به(٥٥) . ووضع فرديناند وكسيمينيس شروطاً رحيمة بعض الشيء لتجنيد العمال الهنود(٥٦) . ولكن تعليمات هؤلاء السادة بشأن معاملة الوطنيين كانت تلقى الإهمال فى أغلب الأحيان أثناء استغراقهم الشديد فى شئون السياسة الأوربية .

وقام جدل صغير حول فتح المكسيك ؛ ذلك أن فرانشسكو لوبيز دجومارا كتب يروى قصة هذا السطو الظالم فى انحياز شديد لكورتيز . واحتج برنال دياز ديل كاستيللو على الرواية بأن ألف فى ١٥٦٨ « التاريخ الحقيقى لفتح إسبانيا الجديدة » وفيه دان كورتيز على اختصاصه نفسه بكل مفاخر الفتح ومكاسبه دون أن يترك إلا أقل القليل للجنود البواسل من أمثال برنال ، هذا مع ثنائه على كورتيز بما يستحقه ؛ والكتاب يستهوى القارىء لأنه يزخر بشهوة الحركة وبهجة الانتصار والدهشة البريئة مما كانت ترفل فيه مكسيك الأزاتكة من ثراء وترف ؛ يقول « حين شاهدت ما أحاط بى من مناظر قلت لنفسى هذه جنة الدنيا » ثم يضيف « وهذا كله دمر » (٥٧) .

وقد نسبت أنضج المؤلفات فى تاريخ إسبانيا ، وأشهر رواية إسبانية كتبت فى هذه الفترة ، إلى كاتب واحد ، اسمه دنجو أورتادو دى مندوزا ولد بغرناطة بعد أن فتحها فرديناند بنحو أحد عشر عاماً . وكان أبوه قد ظفر بالمجد لحسن بلائه فى حصارها ، فعين حاكماً للمدينة بعد سقوطها ؛ وتلقى الفتى علومه فى سلمنقة ، وبولونيا ، وبادوا ، فحصل ثقافة عريضة فى اللاتينية واليونانية والعربية ، وفى الفلسفة والقانون ، وراح

يجمع النصوص الكلاسيكية بحماسة أمير من أمراء النهضة ، وحين أراده سليمان القانونى أن يحدد المكافأة التى يختارها جزاء خدمات معينة أداها للباب العالى ، لم يطلب سوى بعض المخطوطات اليونانية . وقد حظى بمكانة مرموقة خلال خدمته الدبلوماسية لشارل الخامس فى البندقية وروما ومجمع ترنت . ولما وبخه البابا بولس الثالث على حمله رسالة جافة من شارل إلى البابا ، أجاب بكل كبرياء النبيل الأسبانى : « إننى فارس ، وكان أبى فارساً قبلى ، وبهذا الوصف أرى أن واجبى يقتضينى أن أصدع بأوامر سيدى الملك ، دون أن يساورنى أى خوف من قداستكم ، ما دمت أراعى واجب التبجيل لنائب المسيح . إننى خادم لملك أسبانيا . . وما دمت ممثلا له فأنا فى مأمن حتى من سخط قداستكم »(٥٨) .

وتتشكك الأبحاث الحديثة فى صحة نسبة أول رواية بطلها متشرد (Picaresque) فى الأدب الأوربى لمندوزا . واسم الرواية « حياة ومغامرات لازاريللو دى تورميس » . ومع أنها لم تطبع إلا عام ١٥٥٣ فالراجح أنها كتبت قبل ذلك بأعوام كثيرة . ومما يثير الغرابة أن سليلا لأسرة لا تفوقها فى النبالة إلا الأسرة المالكة يختار لصاً ليكون بطلا لقصة ، وأشد غرابة أن رجلا ربى فى صباه ليكون قسيساً يهجو رجال الدين هجوا لاذعاً حمل محكمة التفتيش على حظر أى طبعات جديدة من الكتاب قبل تنقيته من جميع الشوائب المؤذية(٥٩) . ولازاريللو(*) هذا صبى متشرد يتعلم حيل السرقات الصغيرة أثناء اشتغاله قائداً لمتسول مكفوف ، ثم يرتقى إلى جرائم أكبر حين يعمل خادماً لكاهن ، ثم لراهب ، ثم لقسيس كنيسة خاصة ، ثم لناظر زراعة . ثم لبائع متجول لصكوك

(*) ومعناها « لعازر الصغير » ، اشارة الى لعازر المسكين الوارد فى انجيل لوقا الاصحاح ١٦ ، ثم أصبح « متسولا صغيرا » ثم صبيا يقود شحاذا أعمى .

الغفران . ولكن حتى هذا اللص الشاب ، المتمرس بشئون هذه الدنيا ، تروعه بعض الغرائب التى لجأ إليها بائع صكوك الغفران المتجول ترويجاً لبضاعته . يقول « يجب أن أعترف أننى — ككثيرين غيرى — كنت مخدوعاً وقتها فحسبت سيدى آية فى القداسة »[٦٠]. وقد أدخلت هذه الرواية المرحة « أسلوب المتشرد » gusto picaresco فى التقصص ، وابتعثت عدداً لا يحصى من الروايات المقلدة لها ، والتى بلغت الذروة فى أشهر قصص التشرد ، وهى جيل بلا (١٧١٥ — ٣٥) لمؤلفها ألين لساج Lesage .

واعتكف مندوزا فى غرناطة بعد أن نفى من بلاط فيليب الثانى لأنه جرد سيفه فى جدل بينه وبين غريم ، وهناك نظم أشعاراً خفيفة فيها من التحرر ما حال دون طبعها وهو حى ، ثم روى قصة ثورة المغاربة فى ١٥٦٨ — ٧٠ فى « تاريخ حرب غرناطة » فى نزاهة وإنصاف للمغاربة حبسا هذا الكتاب أيضاً عن النشر ، فلم يتيسر طبعه إلا فى ١٦١٠ . ولم يطبع منه وقتها غير جزء واحد . واتخذ مندورزا من صالوست مثالا يحتذيه ولكنه تفوق عليه ، وسرق من تاسيتوس موضوعاً أو اثنين . ولكن يمكن القول على الجملة ان كتابه كان أول مؤلف أسبانى تجاوز مجرد السرد الإخبارى أو الدعاية إلى التاريخ الواقعى المفسر بادراك فلسفى . والمعروض بمهارة أدبية . ومات مندوزا عام ١٥٧٥ وهو فى الثانية والسبعين ، وكان من أكثر الشخصيات تكاملا فى عصر حفل بالرجال المتكاملين .

فى هـــذه الصفحات العجلى يدخل الضمير دائماً فى سباق مع الزمن . وينبه القلم المستعجل إلى أنه ، كالمسافر المسرع ، إنما يمس السطح فقط . فكم من ناشرين ومعلمين وعلماء وأدباء ورعاة للعلم وشعراء وروائيين وثوار متهورين جاهدوا نصف قرن اينتجوا هذا الأدب الذى ضغطناه

فى هذه الصفحات . كم من روائع أغفلنا اسمها ، وأمم ضربنا صفحاً عن ذكرها . وأشخاص كانوا يوماً فى عداد العباقرة الخالدين أهملناهم إلا من كلمات معدودات ! ولكن لا حيلة لنا فى هذا . فالمداد ينضب ، ويجب قبل نضوبه أن نقنع بما يسفر عنه رشاشه وخطوطه من صورة غائمة لرجال ونساء يتخففون برهة من عناء اللاهوت والحرب . ويحبون أشكال الجمال كما يحبون سراب الحقيقة والقوة ، يبنون الألفاظ وينحتونها ويصورونها — إلى أن يجد الفكر فنا يكسوه ، وتمتزج الحكمة بالموسيقى . وينهض الأدب ليتيح لأمة أن تتكلم ، ولعصر أن يصب روحه فى قالب شكلى فى شغف كبير ليصونه الزمن نفسه وينقله خلال مئات الكوارث تراثاً للبشرية :

الفصل السادس والثلاثون

الفن في عصر هولبين

١٥١٧ — ٦٤

١ — الفن ، والإصلاح البروتستنتى ، والنهضة

لقد فرض على الفن أن يقاسى من جراء حركة الإصلاح البروتستنتى ، ولو لمجرد إيمان البروتستنتية بالوصايا العشر . ألم يقل الرب الإله ، « لا تصنع لك تمثالا منحوتاً ولا صورة ما مما فى السماء من فوق ، وما فى الأرض من تحت ، وما فى الماء من تحت الأرض » (خروج ٢٠ - ٤) فانى للفن التصويرى أن يعيش بعد هذا التحريم الشامل ؟ فاما اليهود فقد صدعوا بالأمر وأغفلوا الفن . وأما المسلمون فكادوا يغفلونه . واكتفوا بجعل فنهم فناً زخرفياً ، تجريدياً إلى حد كبير ، يمثل فى أغلبه الأشياء ، وقل أن يمثل الأشخاص . ولا يمثل الله أبداً . واتبعت البروتستنتية هذا الخط السامى بعد أن كشف العهد القديم من جديد ، وأما الكاثوليكية التى طغى تراثها اليونانى الرومانى على أصلها اليهودى فقد تجاهلت هذا التحريم المرة بعد المرة . وشكل النحت القوطى القديسين والآلهة من الحجر ، وصور الرسم الإيطالى قصة الكتاب المقدس ، ونسيت النهضة كل النسيان هذه الوصية الثانية وسط ازدهار الفن التصويرى ازدهاراً رائعاً : فلعل هذا الحظر القديم قصد به تحريم التصوير لأغراض السحر ؛ وكان لرعاة الفن فى إيطالية النهضة من الفطنة وسلامة الإدراك ما جعلهم يضربون صفحاً عن تحريم بدائى لم يعد له الآن معنى .

وكانت الكنيسة ، وهى أعظم رعاة الفن قاطبة ، قد استخدمت الفنون لتنشئ غير المتعلمين على عقائد الإيمان وأساطيره . وبدا هذا الاستخدام أمراً معقولا فى نظر رجل الدولة الكنسى ، الذى شعر بأن الأساطير ضرورة لا غنى عنها للأخلاق. ولكن حين احتالت الكنيسة بأساطير — كأسطورة المطهر — لتجمع المال الذى تنفقه فى مختلف وجوه الإسراف والفساد ، تمرد المصلحون — ولهم العذر — على التصوير والنحت اللذين يثبتان الأساطير فى عقول الناس . وفى هذا الأمر كان لوثر معتدلا ، حتى إذا اضطره الأمر لمراجعة الوصايا . « أنا لا أزعم أن على الأنجيل أن يدمر كل الفنون كما يعتقد بعض المؤمنين بالخرافات . فانا على العكس أتمنى أن أرى جميع الفنون . . . . تخدمه تعالى وهو الذى خلقها ووهبنا إياها. إن ناموس موسى لم يحرم سوى تمثال الله »[1] . وفى عام ١٥٢٦ دعا أتباعه إلى «مهاجمة » . . الوثنيين الذين يعبدون عدو المسيح (بابا روما) بالتصوير »[2] : وحتى كالفن ، الذى كان أتباعه أشد محطمى الأصنام حماسة ، وافق على التماثيل موافقة محدودة فقال : «لست شديد التزمت بحيث أحكم بتحريم كل التماثيل . : . ولكن بما أن فن التصوير والنحت . . . آت من الخالق ، فانى أريد أن تصان ممارسة الفن نقية مشروعة » لذلك يجب ألا يرسم أو ينحت شىء إلا ما يرى بالعين[3] » » ولكن المصلحين الأقل إنسانية من لوثر ، والأقل حذراً من كالفن ، آثروا تحريم التصوير والنحت الدينيين بتاتاً ، وتجريد كنائسهم من الزخارف إطلاقاً . وأقصى « الصدق » الجمال لأنه كافر . أما فى إنجلتره واسكتلندة وسويسرة وشمالى ألمانيا فكان التدمير بالجملة وبلا تمييز » وأما فى فرنسا فقد صهر الهيجونوت أوعية الذخائر والنفائس الدينية وغيرها من الآنية التى عثروا عليها فى الكنائس التى وقعت فى أيديهم » وعلينا أن نتصور غيرة رجال خاطروا بحياتهم ليصلحوا الدين قبل أن نستطيع فهم سورة

الغضب التى دمرت فى لحظات الانتصار تلك التماثيل التى عاونت على إخضاعهم . لقد كان التخريب وحشياً وهمجياً . ولكن الذنب فيه يجب أن يلقى على تلك المؤسسة التى ظلت قروناً تضع العقبات فى طريق إصلاح ذاتها :

وانتهت حياة الفن القوطى فى هذه الفترة . ولكن حركة الإصلاح البروتستنتى لم تكن سوى سبب واحد من أسباب موته . صحيح أن الانتقاض على الكنيسة الوسيطة رافقه زهد فى طرز العمارة والزخرفة التى طالما اقترنت بهذه الكنيسة . بيد أن الفن القوطى كان يحتضر حتى قبل أن يتكلم لوثر . كان يشكو فى فرنسا الكاثوليكية شكواه فى ألمانيا وانجلترة المتمردتين . لقد احترق فى وهج ناره . وكانت النهضة كما كانت حركة الإصلاح البروتستنتى كارثة عليه . ذلك أن النهضة أقبلت من إيطاليا التى لم تحب الفن القوطى قط ، والتى سخرت منه حتى وهى تقتبسه . وقد انتشرت النهضة أكثر ما انتشرت بين المتعلمين الذين لم يستطع تشككهم المهذب أن يتفهم ذلك الإيمان المشبوب . إيمان الحروب الصليبية وعهد القوط . وإذ تقدمت حركة الإصلاح البروتستنتى . أصاب الكنيسة ذاتها ؛ التى وجدت فى العمارة القوطية التعبير الفنى الأسمى لها . فقر شديد من جراء فقدها بريطانيا وألمانيا واسكندناوه ؛ ومن جراء الغارات التى شنها الملوك الكاثوليك على دخلها بحيث لم تقو على تمويل الفن بالسخاء الذى مولته به من قبل ؛ أو على تقرير الذوق والطراز الفنى . وراحت النهضة — تلك الحركة ذات التأثير الدنيوى والوثنى — تؤكد يوماً بعد يوم ميولها ونزعاتها الكلاسيكية التى تغلبت على التقاليد المتقادمة : تقاليد الإيمان والشكل الوسيطين . وتخطى الناس — فى غير تقوى — قروناً من التقوى والخوف ليستعيدوا من جديد مشاعر العصر القديم الشبرية ، مشاعر حب العالم وحب اللذة . وأعلنت الحرب على الفن القوطى بوصفه

فن الهمج الذين دمروا الإمبراطورية ، وعاد إلى الحياة الرومان المغلوبون ، فبنوا معابدهم من جديد ، وأخرجوا من ظلام الإهمال تماثيل آلهتهم ، وأمروا إيطاليا أولا ، ثم فرنسا وانجلتره ، أن تستأنف ذلك الفن الذى تجسد فيه مجد اليونان وعظمة الرومان . وهكذا هزمت النهضة الفن القوطى ، أما فى فرنسا فقد هزمت الإصلاح البروتستنتى .

(٢) فن النهضة الفرنسية

١ — مرض البناء

خاض الفن القوطى معركة فى المعمار الكنسى الفرنسى لمد فى أجاه حيناً ، ونجح فى معركته : فأضافت بعض الكاتدرائيات القديمة عناصر جديدة كانت بالضرورة قوطية ، وهكذا أكملت كنيسة القديس بطرس بمدينة كان خورسها الشهير ، وبنت كنيسة بوفيه جناحها الجنوبى ، وبذل الفن القوطى جهد المحتضر تقريبا حين شيد جان فاست فوق معبد هذا الجناح برجا ارتفع ٥٠٠ قدم (١٥٥٣) . فلما انهارت هذه الجرأة الشامخة فى عيد الصعود عام ١٥٧٣ وسقط البرج فوق الخورس المتهدم ، كانت الكارثة رمزاً لخاتمة أنبل الطرز فى تاريخ العمارة .

وارتفعت فى هذه الفترة مفاخر قوطية أقل من هذه شأناً فى بونتواز وكوتانس وأكثر من عشر مدن فرنسية أخرى . وفى باريس التى تكشف كل نظرة إليها عن معجزة من معجزات ماض مؤمن ، بنيت كنيستان قوطيتان جميلتان : سانت إتيين دمون (١٤٩٢ — ١٦٢٦) ، وسانت أوستاش (١٥٣٢ — ١٦٥٤) . غير أن ملامح النهضة تسللت إليهما : كالحجاب الحجرى الفخم الذى يستدير فوق الخورس فى كنيسة سانت إتيين ، والعمد المركبة والتيجان شبه الكورنثية فى سانت أوستاش .

كان حاول عمارة النهضة اللادينية محل العمارة القوطية الكنسية انعكاساً

لمذوق فرانسوا الأول ، ولاتكاء النزعة الإنسانية على اللذة الدنيوية دون الرجاء السماوى . وانصرفت الآن كل ثمرات الازدهار الاقتصادى ، والرعاية الارستقراطية ، ونزعة اللذة الوثنية — هذه كلها التى غذت من قبل نيران الفن فى إيطالية النهضة ، انصرفت إلى تغذية الجهود المخلصة التى بذلها المعماريون والرسامون والنحاتون والخزافون والصائغون فى فرنسا . واستقدم الفنانون الإيطاليون إلى فرنسا ليمزجوا بين مهاراتهم وعناصرهم الزخرفية وبين ما تخلف من الأشكال القوطية . وتضافرت روعة التصميم الإيطالى ، وواقعية التصوير الفلمنكى ، وذوق الارستقراطية الفرنسية وجمالها الخنثوى ، لتنتج فى فرنسز فناً تحدى تفوق الفن الإيطالى وورث هذا التفوق . ولم يقتصر هذا الفن على باريس وحدها ، بل جاوزها إلى فونتنبلو ، ومولان ، وتور ، وبورج ، وأنجيه ، وليون ، ودیجون ، وأفنيون ، وإكس أن بروفانس .

وكان على رأس الحركة ملك أحب الفن حب المتيم المتحمس ولكن فى فهم وتمييز . وتركت روح فرانسوا الأول الخلية المشرقة طابعها على المعمار خلال حكمه . وكان يقول لفنانيه الجرأة الجرأة ! »(٤) ويتركهم ليجربوا بطريقة لم تسمح بها حتى إيطاليا من قبل . وقد تبين براعة الفنانين الفلمنك فى تصوير الأشخاص ، فاحتفظ بجان كلويه رساماً لبلاطه ، وطلب إلى جوس فان كليف أن يرسم صوراً له ولحاشيته . ولكن إيطاليا كانت ملهمته فى جميع فنون الصقل والزخرفة . فقد زار ميلان وبافيا وبولونيا وغيرها من المدن الإيطالية عقب انتصاره فى مارنيانو (١٥١٥) ، وراح يدرس فى حسد عمارة هذه المدن ورسومها وفنونها الصغيرة : وقد نقل تشلليني عنه قوله : «أذكر جيداً أننى فحصت خيرة الأعمال الفنية التى أبدعها عظم الفنانين فى إيطاليا كلها»(٥) . ولعل هذه المبالغة أن تكون من صنع تشلليني المتحمس . على أن

فازارى يلاحظ فى مواضع كثيرة شراء فرانسوا الأول للآثار الفنية الإيطالية بواسطة عملاء له فى روما وفلورنسة والبندقية وميلان . وبفضل هذه الجهود استطاعت « موناليزا » ليوناردو ، و « ليدا » ميكلانجلو ، و « فينوس برونزينو وكيوبيده » ، و « مجدلية » تيشان (تزيانو) : ومئات الزهريات والمداليات والرسوم الصغيرة والصور الزيتية وقطع النسيج المرسومة — استطاعت هذه كلها أن تعبر جبال الألب لتستقر آخر المطاف فى اللوفر .

ولو كان الأمر بيد هذا الملك المتحمس لاستقدم نوابغ الفنانين الإيطاليين جميعاً . وكان هذا يقضى إغراءهم باغداق المال عليهم : قال لتشاليني واعداً « سأتخمك ذهباً » وجاءه بنفينوتو ومكث فترات متقطعة (١٥٤١ — ٤٥) ، كانت كافية لإرساء قدم الصياغة الفرنسية فى تقاليد من التصميمات البديعة والأساليب الفنية الرائعة . وكان دومنيكو برنابى « بوكادورو » قد وفد على فرنسا أيام شارل الثامن ، فوكل إليه فرانسوا الأول رسم « أوتيل دفيل » جديد لباريس (١٥٣٢) . وقد استغرق إنجازه قرابة قرن ، وأحرقه كومون ١٨٧١ ، فبنى من جديد وفق التصميم الذى وضعه بوكادورو . وأقبل ليوناردو فى شيخوخته (١٥١٦) ، وقدمت إليه دنيا الفن والنبالة الفرنسية فروض العبادة ، ولكننا لا نعرف له أثراً أبدعته يداه فى فرنسا . وجاء أندريا ديل سارتو (١٥١٨) ، ولكنه سرعان ما هرب . وأغرى جوفانى باتيستا « إلروسو » بالرحيل عن فلورنسة (١٥٣٠) فأقام بفرنسا حتى مات منتحراً . وتلقى جوليو رومانو دعوات عاجلة ، ولكن مانتوا كانت تفتنه بسحرها ؛ على أنه أوفد مساعده النابغة فرانشسكو بريماتيتشيو (١٥٣٢) ، وجاء فرانشسكو بللجرينو ، وكذلك جاكومو دا فنيولا ، ونيكولو دللاباتى ، وسبستيانو سرليو ، وربما كثيرون غيرهم ، وشجع الفنانون الفرنسيون فى الوقت ذاته على الذهاب إلى إيطاليا ودراسة قصور فلورنسه وفرارا وميلان وكنيسة القديس

يطرس الحارى تشييدها فى روما . ولم يحدث مثل هذا النقل الفنى للدم الثقافى منذ أن غزا الفن والفكر اليونانيان روما القديمة .

وساء الفنانين الوطنيين والفلمنلكيين هذا الإغواء الإيطالى ، وسجل تاريخ العمارة الفرنسية احتدام معركة ملكية طوال نصف قرن (١٤٩٨ — ١٥٤٥) بين طراز قوطى تأصلت جذوره فى التربة الفرنسية وسط حب الناس له وتعلقهم به ، وبين البدع الإيطالية المتسللة إلى فرنسا فى أذيال الفاتحين المغلوبين . وتجلى الصراع فى الحجر فى قصور اللوار . ففيها ظل الفن القوطى صاحب الكلمة العليا ، وسيطر مهرة البنائين الغالبين على تصميم البناء : قلعة إقطاعية يحيط بها خندق يحميها ، وأبراج أشبه بالحصون تعلو فى الأركان فى سمت عمودى جليل ، ونوافذ فسيحة ذات عمد لتغرى الشمس بالدخول ، وأسطح مائلة تنزلق من فوقها الثلوج ، و رواشن ناتئة من السقوف كأنها المونوكلات . على أنه سمح للغزاة الإيطاليين بخفض الباكية المدببة لتعود إلى شكلها المستدير القديم ، وينتظم الواجهات فى صفوف من النوافذ المستطيلة المدعمة بالعمد والمتوجة بالقواصر . وزخرفة الداخل بزخارف كلاسيكية من الأعمدة والتيجان والأفاريز والقوالب والحليات المدورة والنقوش الغريبة والحليات القرنية المنحوتة الممثلة للنبات والزهر والفاكهة والحيوان وصدور الأباطرة والآلهة الأسطورية . كان الطرازان القوطى والكلاسيكى من الناحية النظرية متناقضين . ولكن مزج الفرنسيين بينهما فى هذا الجمال المتسق بفضل التمييز والذوق الفرنسيين أعان على جعل فرنسا يونان العالم الحديث .

وتسلطت على فرنسا ، أو قل على فرانسوا « حمى البناء » كما سماها قائد أخذ منه العجب كل مأخذ[٦] . فأضاف إلى قصر بلوا القديم (١٥١٥ — ١٩) للملكة كلود جناحاً شمالياً كان مهندسه المعمارى فرنسيا يدعى جاك سوردو ، ولكن الطراز الذى بناه به كان طراز النهضة

بعينه . وإذ رأى سوردو من غير المناسب أن يبنى سلماً داخل الجناح المضاف فقد صمم رائعة من روائع العصر المعمارية — وهى بيت للسلم حلزونى خارجى يرقى فى برج مثمن ، بثلاثة طوابق ، إلى بهو معمد أنيق يبرز من السطح ؛ وكل طابق يحليه زخرف فاخر من شرفة منحوتة .

وبعد أن ماتت مليكته المرهقة ، وجه فرانسوا شغفه بالمعمار إلى شامبور ، وتقع على ثلاثة أميال جنوبى اللوار وعشرة أميال شمال شرق بلوا . وكان أمراء أورليان قد بنوا هناك استراحة للصيد ، فبنى فرانسوا عوضاً عنها قصراً غلب عليه الطراز القوطى ، وبلغ اتساعه حداً احتاج معه إلى جهد ١٫٨٠٠ عامل على مدى اثنى عشر عاماً ، ولا غرو فقد احتوى على ٤٤٠ حجرة ، ومرابط لخيل يصل عددها إلى ١٫٢٠٠ ؛ وأبدع مصمموه الفرنسيون رسم واجهته الشمالية ولكنها اختلطت بمتاهة من الأبراج ، و « الفوانيس » ، و القمم ، والزخارف المنحوتة . وميزوا داخل القصر ببيت للسلم حلزونى فخم جداً ، فريد بممره المزدوج الذى يفصل المصعد عن المهبط . وكان فرانسوا يؤثر شامبور ويراها مكاناً ممتعاً للصيد ، وفيها أحبت حاشيته أن تحتشد فى كل زينتها ، وفيها قضى سنى عمره الأخيرة . وقد دمر الثوار فى ١٧٩٣ معظم الزخرف الداخلى للقصر بدافع الانتقام المتأخر من إسراف الملوك الفرنسيين ، وهناك قصر آخر شيد على عهد فرانسوا — وهو قصر مدريد فى غابة بولون — وقد حلاه جيرولامو ديللا روبيا بواجهة من الخزف الإيطالى (الميوليك) ، ولكنه دمر تدميراً تاماً أيام الثورة .

على أن الإسراف لم يقتصر على الملك وحده . ذلك أن كثيراً من مساعديه شادوا لأنفسهم قصوراً ما زالت تبدو وكأنها مجلوبة من أرض الجان . ومن أروعها آزيه —لو— ريدو ، على جزيرة فى الآندر ، أما صاحبه

جيل برتيلو ، الذي بناه فى ١٥٢١ ، فلم يكن خازناً لفرنسا عبثاً ؛ وبنى توما بوييه كبير مأمورى الضرائب فى نورماندية قصر شينونسو (١٥١٣ وما بعدها) ، وأعاد جان كوتو وزير المالية بناء قصر مانتنون ، وشيد جيوم دمونمورنسى فى شانيتى (١٥٣٠) قصراً فخماً كان ضحية أخرى من ضحايا الثورة . وبنى ابنه آن دمونمورنسى ، أحد كبار موظفى الأمن فى فرنسا ، قصر إيكوان (١٥٣١ — ٤٠) على مقربة من سان دنيس . ورمم جان لبريتون ، وزير الدولة ، قصر فيللاندريه ، وأكمل شارل دسبينى قصر أوسيه . أضف إلى هذه كلها « أوتيلات » أو قصور فالنسى ، وسمبلانسى فى تور ، واسكوفيل فى كان ، وبرنوى فى تولوز ، ولالمون فى بورج ، وبور — ترولد فى روان ، وعشرات غيرها ، وكلها من نتاج هذا العهد المسرف ، وفى وسعنا أن نحكم الآن على مدى ثراء النبلاء وفقر الشعب فى تلك الفترة .

وأحس فرانسوا أن قصر فونتنبلو الذى يسكنه لا يفى بأغراضه ، فقرر أن يعيد بناء ما بناه لويس السابع ولويس التاسع من قبل ، لأن فونتنبلو كانت كما قال تشلليني « أحب بقاع المملكة إلى الملك » . لذلك رمم البرج المحصن والكنيسة . أما باقى القصر فهدم ، وأقام جيل دبريتون وبيير شامبيج مكانه ، بطراز النهضة ، مجموعة من القصور ربط بينها « بهو فرانسوا الأول » الرشيق . أما مظهر القصر فلم يكن جذاباً ، ولعل الملك رأى — كما رأى أقطاب التجارة بفلورنسة — أن واجهة ضخمة لقصر قريب جداً من المدينة قد تثير حسد الجماهير . فاحتفظ بميوله الجمالية ليشبعها بزخرفة الداخل ، واعتمد فى هذه المهمة على فنانين إيطاليين نشئوا على التقاليد الزخرفية التى أرساها رفائيل وجوليو رومانو .

وظل إل روسو — الذى اشتق لقبه هذا من تورد وجهه — عشر سنوات (١٥٣١ — ٤١) عاكفاً على زخرفة بهو فرانسوا الأول . ويصف فازارى

هذا الفنان الذى كان يومها فى عامه السابع والثلاثين بأنه رجل « ذو طلعة مشرقة ، وحديث رزين لطيف . موسيقار كفء ، وفيلسوف ضليع » و « معمارى ممتاز » ، وهو إلى ذلك نحات ومصور[٧] . وكذلك كان الرجال المتكاملون من أهل عصر التوسع الذى نحن بصدده . وقسم روسو الجدران إلى خمس عشرة حشوة . كلها محلى بطراز النهضة المسرف : قاعدة من السنديان الجوزى المنقوش والمطعم ، ولوحة جصية جدارية ذات مناظر من الأساطير الكلاسيكية أو التاريخ ، ومحيط غنى من الزخارف الجصية فى التماثيل ، والودع ، والسلاح ، والمداليات ، وأشكال الحيوان أو الإنسان . وأكاليل الزهر أو الفاكهة ، ثم سقف من الخشب العميق الحفر يكمل تأثير اللون الدافىء . والجمال الحسى ، والبهجة العابثة . وكان هذا كله ينسجم غاية الانسجام مع ذوق الملك ، فأنعم على روسو ببيت فى باريس ، وبمعاش قدره ١٫٤٠٠ جنيه (٣٥٫٠٠٠ دولار ؟) فى العام . يقول قازارى « وعاش الفنان فى بذخ النبلاء ، يحف به خدمه وخيوله . ويولم الولائم لأصدقائه »[٨] . وقد جند لخدمته من المصورين والنحاتين ستة من الإيطاليين ، وعدة فرنسيين ، وهم الأصل والنواة لـ « مدرسة فونتنبلو » . وفى قمة نجاحه وعظمته قضى طبعه الإيطالى الحاد على نشاطه . ذلك أنه اتهم أحد مساعديه المدعو فرانشسكو بللجرينو بالسرقة . ولكن براءة بللجرينو تكشفت بعد أن عذب عذاباً شديداً . وشعر روسو بالخزى وتأنيب الضمير ، فتجرع السم ومات معذباً ، ولما يجاوز السادسة والأربعين (١٥٤١) .

وحزن عليه فرانسوا ، ولكنه كان قد وجد فى بريماتتشيو فناناً قادراً على مواصلة عمل روسو بالأسلوب ذاته ، أسلوب الخيال الشهوانى . كان بريماتتشيو فتى وسيماً فى السابعة والعشرين يوم وطىء أرض فرنسا عام ١٥٣٢ . وسرعان ما تبين الملك كفاياته المتعددة معمارياً ومثالا ومصوراً .

فعين له عدداً من المساعدين ، وراتباً طيباً ، ثم اختصه بعد ذلك بموارد أحد الأديار ، وهكذا حولت عطايا المؤمنين إلى فن لعله كان يصدم مشاعر الرهبان لو شهدوه . وصمم بريما تتشيو رسوماً للمصنع الملكى للنسيج المرسوم ، وحفر رفاً رائعاً لمدفأة حجرة الملكة إليونورا بقصر فونتنبلو ، ورد على رعاية الدوقة ديتامب وحمايتها إياه بتزيين حجرتها فى القصر بصور وتماثيل جصية . وقد ماتت الصور مرات تحت ترميماتها العديدة ، ولكن التماثيل محتفظة بروعتها ، وبينها تمثال من الجص لسيدة ترفع يديها إلى طنف ، وهو من أبدع التماثيل فى الفن الفرنسى . ترى كيف يسع ملكاً تعشق مثل هذا العرى المتظاهر بالاحتشام أن يرتضى الكالفنية بديلا عن كنيسة تبتسم فى تسامح لتصوير هؤلاء العاريات الفاتنات ؟ .

ولم تهتز مكانة بريماتتشيو ولا هذب أسلوبه بعد موت هذا الملك « الساطير » وارتقاء هنرى الثانى العبوس للعرش ، فقد عكف الآن (١٥٥١— ٥٦) بمساعدة فيليبير ديلورم ونيكولو ديللاباتى على تصميم بهو هنرى الثانى فى فونتنبلو وتصويره ونقشه وتزيينه بشتى الزخارف . وقدد مرت اللوحات هى الأخرى ، ولكن جمال التماثيل الأنثوية ما زال يخلب الألباب ، وفى الجدار النهائى من العناصر الكلاسيكية ما يجعله الروعة مجسمة والجلال متجسداً . وفاق بهو أوليس فى روعته حتى بهو هنرى الثانى على ما روى (لأن البهو دمر فى ١٧٣٨) ، وقد زينه بريماتتشيو ورفاقه بمواضيع مختارة من الأوديسا بلغ عددها ١٦١ .

ويعين قصر فونتنبلو انتصار الطراز الكلاسيكى فى فرنسا . وقد ملأ فرانسوا قاعاته بتماثيل وتحف اشتريت له فى إيطاليا فدعمت روعتها رسالة الفن الكلاسيكى . وفى هذه الأثناء نشر سباستيانو سيرليو ، الذى عمل فترة فى قصر فونتنبلو ، كتابه Opere di architettura (١٥٤٨) ، وفيه بشر بالكلاسيكية الفتروفية التى دان بها أستاذه بالداسار

بتروتزى ، وقد قام بترجمته إلى الفرنسية لتوه جان مارتان ، الذى ترجم أيضاً فتروفيوس (١٥٤٧) . وراح الفنانون الفرنسيون الذين دربهم روسو أو بريماتتشيو يبثون من مدرسة فونتانبلو القواعد والمثل الكلاسيكية فى أرجاء فرنسا ، فظلت مسيطرة عليها قروناً هى وما يقابلها من أشكال الأدب الكلاسيكية التى بدأتها جماعة البلياد. وذهب الفنانون الفرنسيون أمثال جاك أ. دسرسو ، وجان بوللان ، وديلورم ، إلى إيطاليا منفعلين بسرليو وفتروفيوس ، لكى يدرسوا آثار العمارة الرومانية ، ونشروا بعد عودتهم أبحاثاً صاغوا فيها الأفكار الكلاسيكية . ونددوا كما ندد رونسار ودبلليه بالطرز الوسيطة لما فيها من همجية ، وصمموا على تهذيب المضمون وإحالته شكلا : وبفضل هؤلاء الرجال وكتبهم انبعث المعمارى فناناً متميزاً عن البناء الماهر ، ذا مكان مرموق فى السلم الاجتماعى: ولم تعد بعد ذلك حاجة إلى الفنانين الإيطاليين فى حركة البناء الفرنسية ، لأن فرنسا تخطت الآن إيطاليا إلى روما القديمة ذاتها تستوحيها فنون المعمار ، وجمعت جمعاً رائعاً بين الأساليب الكلاسيكية وتقاليد فرنسا ومناخها .

فى هذا الجو — جو الفكر والفن — ارتفع أنبل بناء مدنى فى فرنسا ؛ والمتأمل للوفر اليوم من شاطىء السين الأيسر ، والمتجول يوماً بعد يوم خلال متحف العالم هذا الحافل بالكنوز ، يتضاءل خشوعاً ورهبة أمام ضخامة هذا الأثر . ولو خيرنا أى بناء فرد نرى الإبقاء عليه فى كارثة عالمية مدمرة لاخترنا اللوفر : كان فليب أغسطس قد بدأ تشييده حوالى عام ١١٩١ قلعة محصنة تقى باريس شر الغزو على طول نهر السين . ثم أضاف شارل الخامس جناحين جديدين (١٥٣٧) وبيتاً للسلم من خارج ربما كان الموحى بتحفة قصر بلوا . ولما وجد فرانسوا أن هذا البناء الوسيط ، نصف القصر ونصف السجن ، غير صالح لسكناه ولهوه ،

أمر بهدمه وعهد إلى ببير ليسكو (١٥٥٦) أن يقيم فى مكانه قصراً قصراً يليق بملك يتربع على عرش فرنسا النهضة . ولما مات فرانسوا بعد عام أمر هنرى الثانى بالمضى فى المشروع .

كان ليسكو نبيلا وقسيساً ، فهو سيد كلانى الإقطاعى ، ورئيس دير كليرمون ، وكاهن نوتردام ، ومصور ونحات ومعمارى . وهو الذى صمم علية الصليب فى كنيسة سان جرمان لوكسروا (التى دمرت فى ١٧٤٥) والقصر الذى أصبح الآن « أوتيل كارنافاليه » . وقد استعان فى هذين العملين بصديقه جان جوجون ليقوم بالنحت الزخرفى ، وحين تقدم العمل فى اللوفر الجديد دعا جوجون ليزينه . وفى ١٥٤٨ شيد ليسكو الجناح الغربى للقصور التى تضم اليوم فناء اللوفر المربع (الكور كاريه) : أما الواجهة فهى من الأرض إلى السطح من إملاء طراز النهضة الإيطالية ، على وجه الحصر (كما كان رابليه يقول لو رآها) : ثلاثة صفوف من النوافذ المستطيلة ، وتفصل بين الصفوف كرانيش من الرخام ، أما النوافذ فتفصل بينها أعمدة كلاسيكية ، ثم ثلاثة أروقة تعتد على عمد كلاسيكية أنيقة ، ولم يكن فرنسياً غير السقف المائل ، ولكن الحليات المعمارية كانت هنا أيضاً ذات جمال كلاسيكى . ولولا أن جوجون أدخل تماثيل فى كوى الأروقة وحفر نقوشاً بديعة فى القواصر وتحت الكرانيش ، وتوج النتوء الأوسط بشعار هنرى وديانا — لولا هذا لكان المنظر العام شديد الصرامة : وفى داخل جناح ليسكو هذا بنى جوجون قاعة تسمى Salle des Cariatides — أربع إناث رائعات يسندن شرفة للموسيقيين ؛ وجوجون أيضاً هو الذى زخرف قبو السلم الكبير المؤدى إلى الحجرة الملكية التى نام فيها ملوك فرنسا ابتداء من هنرى الرابع إلى لويس الرابع عشر : واستمر العمل فى بناء اللوفر وزخرفته أيام شارل التاسع وهنرى الرابع ولويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر

ونابليون الأول ونابليون الثالث . ملتزماً على الدوام الطراز الذى حدده ليسكو وجوجون بحيث أصبح هذا الصرح الفسيح هو العصارة المركزة لثلاثة قرون ونصف من حضارة طحنت كد الشعب لتخرج منه هذه الروائع الفنية . ترى ، أكان ممكناً بناء اللوفر لو أنصفت الارستقراطية الشعب ؟ .

وأبدع فيليبر ديلورم لهنرى الثانى وديان دبواتييه آيات فى العمارة كأنها فى سحرها جنات عدن . وقد درس فيليبر فى شبابه آثار روما القديمة وفوقها ، فأحبها . ولكنه أعلن عقب عودته إلى فرنسا أن العمارة الفرنسية يجب منذ الآن أن تكون فرنسية . وكانت روحه روح الوثنية الكلاسيكية والوطنية الفرنسية — هى بالضبط برنامج جماعة البلياد . وقد صمم سلم « الكورد يزاديه » Cour des Adieux بفونتنبلو على شكل حدوة حصان ، والمدفأة والسقف الغائر النقوش فى بهو هنرى الثانى . وشيد لديان فى آنيه (١٥٤٨ — ٥٣) مدينة حقيقية من القصور والحدائق الرسمية ، وهناك وضع تشلليني تمثاله « حورية فونتنبلو » فى قوصرة . وبز جوجون المثال الفلورنسى بمجموعته التى تمثل ديانا وأيلها . ومعظم هذا الفردوس النفيس حل به الدمار ، ولم يبق منه سوى بوابة لا تثير إعجاباً بذكر فى فناء مدرسة الفنون الجميلة بباريس . ولأجل هذه الخليلة المنتصرة نفسها أكمل قصر شنونسو — هدية صغيرة من مليكها المتيم . وفيليب هو الذى فكر فى مد القصر عبر الشير . ولما أخذت كاترين مديتشى القصر من ديان ، واصل ديلورم جهوده الشاقة فيه حتى اكتملت هذه الآية الفنية . على أن أسلوبه الرياضى المسرف لم ينل الرضا حيناً ، فاعتكف ليؤلف بحثاً موسوعياً فى العمارة . ثم دعته كاترين ثانية فى شيخوخته ليستأنف العمل ، فصمم لها قصراً جديداً هو التويلرى (١٥٦٤ — ٧٠) الذى دمره كومون

١٨٧١ . وقد تلقى الفنان من جميع رعاة فنه مكافآت سخية . فأصبح قسيساً ، وشغل عدة وظائف كنسية مجزية . ثم مات فى ١٥٧٠ كاهناً لنوتردام ، بعد أن دبر فى وصيته مستقبل طفليه غير الشرعيين(٩) .

كان جان بولان ثالث المعماريين النوابغ الذين زينوا فرنسا فى عهود زوج كاترين وأبنائها . وقد اكتسب شهرته فى ثلاثيناته بمدينة اكوان إذ صمم قصراً ريفياً لآن دمونمورنسى بلغ الكمال فى خطوطه الكلاسيكية . وفى ستيناته خلف ديلورم فى بناء التويلرى وواصل العمل إلى أن مات « من يوم إلى يوم ، أموت وأنا أتعلم » على حد قوله .

لقد درج الناس على أن يأسفوا لاستيرادالعمارة الفرنسية للطرز الإيطالية ، وعلى أن يقولوا إن الفن القوطى الوطنى لو ترك دون أن يحرفه هذا التأثير لتطور إلى عمارة مدنية أنسب للرشاقة الفرنسية من الخطوط الصارمة نسبياً التى اتسمت بها الطرز الكلاسيكية . ولكن الفن القوطى كان فى طريقه إلى الموت من الشيخوخة . ربما من الإسراف الهرم والزوقة العتيقة ، لقد جرى شوطه وانتهى . وكان اتكاء الفن اليونانى على ضبط النفس والاستقرار والخطوط البنائية الواضحة خير ما يصلح للتخفيف من الاندفاع الفرنسى والسير به إلى نضج مهذب . وقد ضحى فى هذا السبيل ببعض طرافة العصر الوسيط ، ولكن هذه أيضاً عاشت أيامها وانقضت . وهى لا تبدو جذابة إلا لأنها ماتت . ولما طور معمار النهضة الفرنسية طابعه القومى الخاص ، مازجاً الرواشن والسطوح المائلة بالأعمدة والتيجان والقواصر ، منح فرنسا طوال ثلاثة قرون طرازاً فى البناء كان مثار حسد أوربا الغربية . ونحن نحس الآن أن هذا الطراز كان جميلا لأنه هو الآخر فى طريقه إلى الزوال .

٢ — الفنون الملحقــة

قام مئات من الصناع الفنانين بتزيين الحياة الفرنسية فى هذا العصر المرح . عصر فرانسوا الأول وهنرى الثانى . ونقش النجارون مقاعد المرتلين فى كنائس بوفيه ، وآميان ، وأوخ ، وبرو ، وتجرأوا على زخرفة المبانى القوطية بمناظر حية من النهضة تمثل آلهة الحقول ، والعرافات . وأتباع باخوس والسواتير ، بل تمثل بين الحين والحين فينوس أو كيوبيد أو جانيميد . أو قد تراهم — لكى نلاحقهم ملاحقة محمومة — يصنعون الموائد ، والكراسى ، والإطارات ، والمراكع ، والأسرة ، والخزائن ، وينقشونها بزخارف ربما كانت مسرفة ، أو يكفتونها بالمعادن أو يطعمونها بالعاج أو الأحجار الكريمة . أما صناع الأشغال المعدنية الذين بلغوا الآن ذروة الإتقان فقد خلعوا الجمال الرائع على الأوانى والأسلحة بزخرفتها بالنقوش الدمشقية أو بحفرها ، ورسموا النوافذ ذات المصبعات — بقصائد من الشعر فى زخرف حديدى من الشجر — للكنائس والهياكل والحدائق والمقابر ، أو صنعوا مفصلات كتلك التى نراها على أبواب نوتردام الغربية ، وفيها من الجمال ما جعل الأتقياء ينسبون صنعها إلى أيدى الملائكة . وقد اعترف تشلينى ، وهو الذى لم يبق لغيره مديحاً يذكر بعد أن أشبع حاجاته منه ، بأن الصياغ الفرنسيين قد بلغوا فى صنعهم آنية الكنائس — أو آنية المنازل كتلك التى حفرها جان دوريه لهنرى الثانى — « درجة من الإتقان والكمال لاتجدها فى أى بلد آخر »(١٠) . أما الزجاج الملون (المعشق) فى كنيسة مرجريت النمساوية فى برو ، أو فى كنيسة سانت إتيين فى بوفيه ، أو فى كنيسة سانت إتيين دمون فى باريس ، فقد كشف عن عظمة لم تكن فارقت فرنسا بعد . وقد أنشأ فرانسوا فى فونتنبلو مصنعاً تنسج فيه قطع النسيج

المرسومة قطعة واحدة بدلا من صنعها أجزاء منفصلة تخاط معاً كما كانت الحال من قبل ، وخلطت الخيوط الذهبية والفضية فى سداء بالحرير والصوف المصبوغين . وبعد عام ١٥٣٠ لم تعد نماذج قطع النسيج الفرنسى المرسوم ومواضيعه قوطية وفروسية ، بل اتبعت تصميمات النهضة وموضوعاتها المجلوبة من إيطاليا .

وغلبت رسوم النهضة الزخرفية على الحراريات فى خزف ليون (المايوليك) ، وفى قاشانى جنوبى فرنسا ، وفى صناعة المينا بليموج . ورسم ليونار ليموزان وغيره بألوان المينا المصهورة البراقة أشكالا أنيقة من النبات والحيوان والآلهة والبشر على الأوانى النحاسية كالأحواض والزهريات والأباريق والكئوس والأطباق وغيرها من الأوانى المتواضعة التى سموا بها إلى مرتبة التحف الفنية : وهنا أيضاً كان لفرانسوا فضل المشاركة ، فقد وضع ليونار على رأس مصنع المينا الملكى بليموج ، وخلع عليه لقب « الوصيف الخاص للملك » . وتخصص ليونار فى رسم صور الأشخاص بالمينا على الأطباق النحاسية ؛ وفى متحف المتروبوليتان بنيويورك نموذج رائع منها يصور فرانسوا نفسه ، وغير هذا كثير فى قاعة أبوللو باللوفر مما يشهد فى هدوء لهذا العهد الذهبى .

كان تصوير الأشخاص فناً مكتمل النضج فى فرنسا قبل قدوم الإيطاليين . فمن من الفنانين الإيطاليين فى فرنسا كان بوسعه أن يرسم أروع من صورة جيوم دمونمورنسى التى رسمها فنان كبير لم يذكر عليها اسمه حوالى عام ١٥٢٠ ، والمحفوظة اليوم بمتحف ليون ؟ — Voila un homme ! « هاكم رجل » — إنها ليست تحية مصورة . إنها رجل . لقد جلب روسو وبريماتتشيو وديللاباتى وغيرهم من مدرسة فونتنبلو إلى فرنسا ما تعلموه من رفائيل أو برينو ديلفاجا أو جوفانى دا أوديني أو جوليو رومانو عن زخرفة العمد والكرانيش والأسقف

. . . . بالـ « جروتسك » أو الأشكال العابثة — أشكال الملائكة (الكاروبيم) والأطفال واللوالب والزخارف العربية والنبات . وقد رسم عضو مجهول من أعضاء هذه المدرسة لوحة « ديان دبواتييه » المحفوظة الآن بمتحف ورستر بولاية ماساشوستس — جالسة إلى خوان زينتها وعلى رأسها تاج . وبعد عام ١٥٤٥ قدم إلى فرنسا كثير من المصورين الفلمنك ، فيهم بروجل الأب ، ليدرسوا الأعمال الفنية فى فونتنبلو . ولكن أسلوبهم كان أعمق جذوراً من أن يستسلم للتأثير الإيطالى . وتغلبت القوة الواقعية التى اتسم بها فنهم على الجمال الأنثوى الذى تجلى فى فن ورثة رفائيل .

وكادت أسرة فلمنكية واحدة فى فرنسا أن تؤلف مدرسة قائمة بذاتها . كان يوحنا كلويه Clouet ملحقاً ببلاط فرانسوا فى تور وباريس ، وكل الناس يعرفون الصورة التى رسمها للملك حوالى ١٥٢٥ والمحفوظة الآن باللوفر ، وجسم فيها الملكية المستكبرة المغرورة السعيدة قبيل كبوة من كبواتها » وخلف فرانسوا كلويه أباه يوحنا مصوراً للبلاط ، وسجل بالطباشير أو الزيت صور كبار القوم خلال حكم أربعة من ملوك فرنسا . واللوحة التى رسم فيها هنرى الثانى أروع من تلك التى صور فيها أبوه فرانسوا الأول . ويدهشنا أن نرى فى اللوحة تلك الهوة بين العاشق المرح والابن المكتئب المزاج ، وفى وسعنا أن نفهم منها كيف استطاع هذا الرجل أن يصدق على تشكيل « الغرفة الغيور » لاضطهاد المهرطقين ، وإن لم نلمح فى الوجه — الذى يكاد يكون بورجياً — أى إلماع لوفائه المقيم لديان . ووجدت أسرة كلويه من تحداها بعض الوقت فى شخص كورنيي الليونى الذى نافسها برسم خاص به . وظهر هذا التحدى فى صور كصورة المرشال بونيفيه ، عشيق مرجريت . ولكن أحداً من المعاصرين فى فرنسا لم يستطع مجاراة فرانسوا

كلويه فى ذلك الحشد من الصور التى رسمها لكاترين مدتشى ، وفرانسوا الثانى ، ومارى ملكة إسكتلندة ، وإليزابيث فالوا ، وفيليب الثانى ، ومرجريت زوجة هنرى الرابع المقبلة ، وشارل التاسع فى شبابه — وقد بدا ألطف من أن نتبين فيه ملك « المذبحة » المرتاع . فى هذه الصور نرى الواقعية والصدق الفلمنكيين وقد خففت من حدتهما الرقة والدقة والحيوية الفرنسية ، فالنبرة خافتة ، والخط دقيق مطمئن ، وعناصر الشخصية المعقدة مقتنصة وموحدة . مثل هذا المؤرخ النابض بالحياة لن تستمتع بفنه غير إنجلترة هولبين .

كان النحت خادماً للعمارة ، ومع ذلك فهو صاحب الفضل فى تألقها . والواقع أن النحت الفرنسى راح يخرج سيلا متدفقاً من الروائع التى لم يفقها إلا تلك التى كان ميكلانجلو وغيره ينحتونها من كارارا . مثال ذلك المقابر الفخمة ، كمقبرة لويس الثانى عشر ومقبرة آن البريتانية اللتين نحتهما جوفانى دى جيوستوبتى (فى سان دنيس) ، وكمقبرتى اثنين من كرادلة آمبواز نحتهما رولان لرو وجان جوجون (فى روان) ، وكمقبرة لوى دبريزيه ، زوج ديان ، فى الكاتدرائية ذاتها ، التى نحتها مثال غير معروف على التحقيق . وتبدو مقبرتا روان أوفر زينة مما يليق بجلال الموت ، ولكن الكردينالين يكادان يبعثان من جديد على صورة حكام أقوياء لا يحاول المثالان خلع الكمال عليهما ، إنما الدين عندهما أمر عارض وسط مهام الحكم . وقد دفن فرانسوا الأول ، وزجته كلود ، وابنته شارلوت ، بسان دنيس فى مقبرة من طراز النهضة صممها ديلورم ، تزينها منحوتات فخمة نحتهـا بيير بونتم ؛ وعلى مقبرة منها رائعة صغيرة من صنع بونتم — هى وعاء جنائزى لقلب الملك . وهكذا لم يعد المثالون الفرنسيون فى حاجة إلى الوصاية الإيطالية ليرثوا فن روما الكلاسيكى .

ولقد ورث جان جوجون الجمال الكلاسيكى على الأقل . ونحن نسمع به لأول مرة فى سنة ١٥٤٠ ، وقد ورد فى القائمة أنه « حجار وبناء » فى روان . وفى روان قطع الأعمدة التى يرتكز عليها الأرغن فى كنيسة سان ماكلو . ونحت تماثيل لمقبرتى الكردينالين ، وربما لمقبرة بريزيه . وقد زين حجاب الصليب فى كنيسة سان جرمان لوكسروا بمنحوتات محفوظ بعضها فى اللوفر . وهى تذكرنا بالنقوش الهلنستية البارزة فى الأناقة المتناغمة التى اتسمت بها خطوطها . وقد قاربت الكمال تلك الموهبة المميزة لفن جوجون ، وهى تجسيد الجمال الأنثوى . فى تمثال « الحوريات » ، الذى شارك به فى « نافورة الأبرياء » التى صممها ليسكو (١٥٤٧) ، وفى رأى برنينى أن هذه التماثيل أجمل آثار الفن فى باريس . وقد ذكرنا من قبل تمثال جوجون « ديانا والأيل » فى آنيه ، ومنحوتاته فى اللوفر . وتماثيله للآلهة الوثنيـــة . ولجسد المرأة الممثل فى صورة كاملة ، توحى بأن فرنسا قد انتصرت فيها النهضة على حركة الإصلاح البروتستنتى ، والأفكار الكلاسيكية على الأفكار القوطية . والمرأة على منتقصى قدرها فى العهد الوسيط . ومع ذلك وصف الرواة جوجون بأنه هيجونوتى . وعقاباً له على حضوره عظة لوثرية . حكم عليه حوالى عام ١٥٤٢ بأن يسير فى شوارع باريس بقميصه وبأن يشهد حرق واعظ بروتستنتى (١١). وحوالى عام ١٥٦٢ رحل عن فرنسا قاصداً إيطاليا . ومات فى بولونيا قبل عام ١٥٦٨ . مغموراً مهملا إهمالا لا يستحقه رجل ارتقى بفن النهضة إلى ذروته فى فرنسا .

٣ — بييــتر بروجل : ١٥٢٠ — ٦٩

كان هذا العصر مقفراً فى فن الأراضى المنخفضة إذا استثنينا بروجل والنسيج المرسوم . وتذبذب فن التصوير بين تقليد الإيطاليين — فى

الأسلوب المهذب والألوان الغنية والأساطير الكلاسيكية والنساء العاريات والخلفيات المعمارية الرومانية — وبين الميل المتأصل إلى التصوير الواقعى لكبار الشخصيات وللأشياء العادية . ولم يحظ الفنانون بالرعاية من البلاط والكنيسة والنبلاء فحسب ، بل نالوها باطراد من أغنياء التجار الذين عرضوا أجسادهم البدينة وألغادهم المتهدلة ليعجب بها الخلف ، وأحبوا أن يروا فى الصور المناظر المألوفة والمشاهد الطبيعية لحياتهم الفعلية . وحلت روح الفكاهة ، وحب « الجروتسك» أحياناً ، محل الإحساس بالتسامى فى فن كبار الفنانين الإيطاليين : وقد انتقد ميكلانجلو ما رآه افتقاراً إلى التمييز والسمو فى الفن الفلمنكى فقال : « إنهم لا يرسمون فى فلاندر إلا ليخدعوا العين الظاهرة ، أشياء تبهجك . : : حشائش الحقول ، وظلال الأشجار ، والكبارى والأنهار : : : وأشياء صغيرة هنا وهناك : : : دون عناية بالاختيار أو الرفض »(١٢) ، ولا غرو فالفن عند ميكلانجلو هو الاختيار ذو الدلالة لإبراز السمو ، لا التمثيل غير المميز للواقع ، وكانت طبيعته الوقور ، المحبوسة فى حذائه الذى لا ينزع وعزلته الكارهة للناس ، محصنة ضد التأثر بجلال الحقول الخضراء وحرارة الحب العائلى .

أما نحن فإننا ننحنى انحناءة العرفان ليواكيم باتينير ، ولو لما صورته لوحته « القديس جيروم » من منظر طبيعى يذكرنا بأسلوب ليوناردو دافنشى ، وبجوس فان كليف على لوحته الجميلة التى رسم فيها اليانور البرتغالية ، ولبرنيرت فان أورلى للوحة « العائلة المقدسة » فى البرادو ، ولتصميماته للنسيج المرسوم ، ولزجاجه المعشق فى كنيسة سانت جودول ببروكسل ؛ وللوكاس فان ليدن لما حفلت به سنوه التسعة والثلاثون من حشد النقوش والكلشيهات الخشبية ، ولجان فان سكوريل على صورة المجدلية وهى تعتز بقارورة الطيب التى غسلت منها أرجل المسيح ،

ولأنطونيس مور على صوره القوية لدوق ألفا ، وللكردينال جرانفيل ، ولفيليب الثانى ، ولمارى تيودور ، ولصورة ليست أقل شأناً من كل أولئك . وهى صورته هو .

وليلاحظ القارىء كيف تركز فن التصوير بالأراضى المنخفضة فى الأسر . من ذلك أن جوس فان كليف ورث بعض مهارته لابنه كورنيليس ، الذى رسم صوراً ممتازة قبل أن يصاب بالجنون . كذلك نرى جان ماسيس الذى ورث مرسم أبيه كوينتين يؤثر رسم العاريات أمثال « يهوديت » . و« سوسنة والشيوخ » ، وواصل ابنه كوينتين ماسيس الثانى هذه الحرفة ، فى حين حمل أخوه كورنيليس فنه إلى انجلترة ورسم لوحة لهنرى الثامن فى شيخوخته وقد بدا منتفخ البدن بشع المنظر . ورسم بييتر بوربوس وابنه فرانس لوحات للأشخاص وصوراً دينية فى بروج ، ورسم فرانس بوربوس الثانى ، وهو ابن فرانس ، لوحات فى باريس ومانتوا . وكان هناك إلى هؤلاء بييتر بروجل « المضحك » وزوجته المصورة ، وحماته المصورة ، وأبناه بييتر بروجل « الجحيم » وجان بروجل « المخمل » ، وحفدته المصورون ، وأبناء حفدته المصورون . . .

أما بييتر بروجل الأب ، الذى أصبحت شهرته من موضات عصرنا التى لا مهرب منها ، فلعله اشتق اسمه من إحدى قريتين فى برابانت اسمهما بروجل . وكانت إحداهما قريبة من هرتوجنبوش مسقط رأس هيرونيموس بوش . وربما رأى بييتر فى كنائس هذه القرية عدة رسوم بريشة الرجل الذى أثر فى فنه تأثيراً لم يفقه غير تأثير الطبيعة ذاتها ؛ وحين ناهز الخامسة والعشرين (حوالى عام ١٥٤٥) هاجر إلى أنتورب وتتلمذ لبييتر كوك ، وربما أعانت محفورات كوك الخشبية للمناظر الطبيعية على تكوين ميل المصور الشاب إلى الحقول والغابات والمياه

والجو والسماء . وكان بييتر كوك هذا قد أنجب فتاة تدعى ماريا . كان بييتر يهدهدها بين ذراعيه وهي طفلة . وقد أصبحت فيما بعد زوجاً له. وفى عام ١٥٥٢ اتبع التقليد الذى جرى عليه المصورون ، ورحل إلى إيطاليا ليدرس التصوير، ثم عاد إلى أنتورب بكراسة تضخمت برسوم المناظر الإيطالية ، ولكن لم يبد على أسلوبه الفنى تأثير إيطالى واضح . وقد ظل إلى النهاية يهمل من الناحية العملية تلك الدقة فى التشكيل . وفى توزيع الضوء والظل (الكياروسكيورو) ، وفى التزويق (الكولورا تورا) التى أخذ بها الفنانون الجنوبيون . ولما عاد إلى أنتورب عاش مع امرأة كانت خليلة ومدبرة لبيته . وقد وعدها بأن يتزوجها إذا أمسكت عن الكذب . وكان يسجل أكاذيبها بثلمات يحدثها فى عصا . وإذ لم يكن محتفظاً بعصا لذنوبه هو ، فقد هجرها حين فاضت العصا بالثلمات . وفى أواسط أربعيناته (١٥٦٠) تزوج ماريا كوك وقد بلغت السابعة عشرة ، واستمع إلى دعوتها إياه للرحيل إلى بروكسل ، ولم يكن باقياً له من العمر سوى ست سنوات .

ومع أن رسومه حملت الناس على تلقيبه بـ « بروجل الفلاح » فإنه كان إنساناً مثقفاً قرأ هومر وفرجل وهوراس وأوفيد ورابليه ، وفى الغالب إرزمس .[١٣] وقد وصفه كاريل ماندر (فازارى هولنده) بأنه « هادئ ، منظم ، قليل الكلام ، ولكنه ممتع الحديث إذا كان فى صحبة . يبتهج بافزاع سامعيه . . . بقصص الأشباح والأرواح المنذرة[١٤] . وربما كان هذا علة لقبه الثانى « بروجل المضحك » . وكانت فكاهته تميل إلى الهجاء ولكنه خففه بالعطف . وفى حفر معاصر يبدو فى لحية كثة ووجه يحمل سمات التفكير الجاد[١٥] . وكان أحياناً يقتدى ببوش فى نظرته إلى الحياة على أنها اندفاع معظم النفوس إلى الجحيم دون مبالاة . وفى لوحته المسماة « دوللى جريت » صور الجحيم تصويرا بشعاً مشوشاً كما فعل

بوش نفسه ، وفى لوحته « انتصار الموت » لم يتخيل الموت نوماً طبيعياً لأجساد مكدودة ، بل تقطيعاً بشعاً للأطراف والحياة — هياكل عظمية تهاجم الملوك والكرادلة والفرسان والفلاحين بالسهام والبلط والأحجار والمناجل — ومجرمين تدق أعناقهم أو يشنقون أو يوثقون إلى عجلة التعذيب — وجماجم وجثثاً تركب عربة ؛ هنا مثل مغاير آخر لـ « رقصة الموت » التى تسرى وسط فن هذا العهد القاتم .

وتواصل صور بروجل الدينية هذا المزاج الجاد . فهى خاو من فخامة الصور الإيطالية ومن جمالها الرشيق على السواء . وليست سوى ترجمة جديدة لقصة الكتاب المقدس بلغة المناخ والملامح والثياب الفلمنكية . وندر أن تكشف عن عاطفة دينية . وأكثرها معاذير لتصوير الجماهير . وحتى الوجوه فى هذه الصور خلو من العواطف . فترى الناس المتدافعين بالمناكب ليشاهدوا المسيح وهو يحمل صليبه وكأنهم لا يبالون بآلامه ، إنما هم تواقون لاتخاذ موقف يشهدون منه المنظر بوضوح . وبعض هذه الصور أمثال من الإنجيل كصورة « الزارع » ، وبعضها يقلد بوش فيتخذ الأقوال المأثورة موضوعاً له . فصورة « عميان يقودون عمياناً » ترينا صفاً من الفلاحين لهم عيون ذابلة . وفيهم قبح شنيع ، يتلو بعضهم بعضاً فى طريقهم إلى مصرف للمياه . ولوحة « الأمثال الهولندية » ، توضح فى صورة مكتظة واحدة ، قرابة مائة من الأقوال المأثورة القديمة ، بعضها تشم فيه عبير الحكم الرابلية .

كان هم بروجل الأكبر تصوير جماهير الفلاحين ، والمناظر التى تنتظم خيرها وشرها على السواء أنشطة البشر العقيمة المفتقرة . ولعله ظن أن فى تصوير الجماهير سلامة . فلا حاجة به عند تصويرها لأن يميز الوجوه أو يشكل الأجساد . وقد أبى أن يصور شخصاً يجلس أو يقف أمامه خدمة للفن أو للتاريخ . وآثر أن يظهر الرجال والنساء والأطفال يمشون

ويجرون ويقفزون ويرقصون ويلعبون بكل ما فى الحياة من ألوان الحركة والفطرة . وقد رجع إلى مشاهد طفولته . وأمتعه أن يتأمل ويشارك فى مباهج الفلاحين وولائمهم وموسيقاهم وأعراسهم . وكان فى عدة مناسبات يصطحب صديقاً ويتنكران فى زى مزارعين ليحضرا أسواق القرية وأفراحها . ثم يقدمان الهدايا للعروسين متظاهرين بأنهما من أقربائهما[١٧]. ولا شك أن بييتر كان فى هذه النزهات يحمل كراسته لأن بين رسومه الباقية كثيراً مما تظهر فيه وجوه الفلاحين وأحداث الريف . ولم يكن ذوقه يسيغ النبلاء الذين وجد مور وتيشان فى تصويرهم مجلبة للربح الوفير . ولا كلف بتصويرهم . ولم يرسم سوى بسطاء الناس . بل إن الكلاب التى رسمها كانت كلاباً حقيرة مهجنة كتلك التى تلقاها فى أى زقاق بالمدينة أو كوخ بالقرية . لقد خبر الجانب المر فى حياة الفلاح . وصور هذا الجانب أحياناً خليطاً محتشداً من الحمق . ولكنه أحب رسم ألعاب الأطفال القرويين . ورقصات كبارهم . وصخب أفراحهم . وفى لوحته « أرض كوكين » ترى الفلاحين الذين أرهقهم الكد أو الحب أو الشراب منبطحين على العشب فى الخلاء وهم يحلمون بعالم سعيد . وكأن بروجل يقول لنا إن الفلاح دون سواه هو الذى يعرف كيف يلعب وكيف ينام . كما يعرف كيف يشتغل وكيف يتزوج وكيف يموت .

ولم ير أمام الموت غير عزاء واحد . هو أنه جزء لا يتجزأ من الطبيعة . تلك الطبيعة التى تقبلها فى جميع صورها من جمال وقبح . ومن نمو وانحلال وتجدد . والمنظر الطبيعى عنده يفتدى الإنسان . ويخف الجزء يغتفر فى جلال الكل . لقد كان دأب المصورين من قبله — باستثناء ألتدورفر — أن يرسموا المناظر الطبيعية خلفيات وملحقات للناس والأحداث . أما بروجل فقد جعل المنظر الطبيعى ذاته هو اللوحة ، وليس الإنسان فيها سوى عرض من الأعراض . ففى لوحته « سقوط إيكاروس » ترى السماء والمحيط والجبال والشمس وقد استغرقت انتباه

المصور والمشاركين فى اللوحة ، أما إيكاروس فليس سوى ساقين غير ملحوظتين تغوصان فى البحر بشكل مضحك . وفى لوحته « العاصفة » لا تكاد ترى الإنسان ، فهو ضائع عاجز بين حرب العناصر وبطشها .

ويبلغ فن بروجل وفلسفته قمتهما فى اللوحات الخمس الباقية من مجموعة خططها لبيان تقلبات العام . ففى لوحة « حصاد القمح » يصور تخطيطياً قطع حزم القمح وتكديسها ، وترى فيها العمال يتناولون غذاءهم أو يرقدون فى إغفاءة فى قيظ الصيف وسكون هوائه الواضحين . وفى لوحة « حصاد الدريس » يحمل الصبيان والبنات فاكهة الحقول الخريفية فى سلال على رءوسهم ، ويشحذ فلاح منجله ، وتقلب الدريس نسوة أشداء ، ويرفعه الرجال إلى أعلى حمل العربة ، وتمضغ الخيل طعامها فى فترة راحة . ولوحة « عودة القطيع » نذير بقدوم الشتاء — فالسماء تكفهر والماشية تساق عائدة إلى مرابطها . وأجمل لوحات المجموعة هى « الصيادون فى الثلوج » . وفيها ترى الأسطح والأرض بيضاء ناصعة ، والمساكن تنتظم فى منظور مدهش على طول السهول والتلال ، والرجال يتزلقون ويلعبون الهوكى ويسقطون على الجليد ، والصيادين وكلابهم ينطلقون لاقتناص الطعام ، والأشجار عارية ولكن زقزقة العصافير فى الأغصان تبشر بمقدم الربيع . أما لوحة « اليوم الكئيب » فهى الشتاء مكفهراً اكفهرارة الوداع . فى هذه اللوحات بلغ بروجل قصاراه ، ووضع سابقة لرسم مناظر الثلوج ليحتذبها فن الأراضى المنخفضة المقبل .

ولا يستطيع الحكم على هذه الصور فى مرتبتها وأسلوبها الفنيين سوى رسام أو خبير . ويبدو بروجل قانعاً بأن يعطى أشكاله بعدين ، ولا يكترث لخلط الظل بمادتها ، وهو يترك لخيالنا أن يضيف لبعديه

بعداً ثالثاً إن لم يكن من هذا بد . واهتمامه بالحشود أكبر من أن يتيح له الاهتمام بالأفراد ، وهو يجعل كل فلاحيه تقريباً متماثلين ، كتلا غليظة من اللحم . وهو لا يزعم أنه واقعى إلا فى المجموع ، وهو يضع الكثير من الناس أو الأحداث فى لوحة واحدة بحيث يبدو أنه يضحى بالوحدة . ولكنه يقتنص الوحدة اللاشعورية — وحدة قرية، أو حشد ، أو موجه من موجات الحياة .

فما الذى يريد أن يقوله ؟ أهو ساخر فقط . ضاحك من الإنسان لأنه « فجلة مشعبة » غريبة الشكل . ومن الحياة لأنها اختيال غبى نحو الفناء ؟ لقد كان يستمتع بما فى رقص الفلاحين من هز عنيف . ويتعاطف مع كدهم ، وينظر فى مرح متسامح إلى نومهم المخمور . ولكنه لم يفق قط من تأثير بوش . فقد كان يجد لذة ساخرة كتلك التى وجدها ذلك الـ «جيروم » المجرد من التقوى فى تصوير الجانب المر من الكوميديا البشرية — المقعدين والمجرمين . المهزومين أو الداعرين . انتصار الموت الذى لا رحمة فيه . ويبدو أنه كان يبحث عن الفلاحين الدميمى الخلقة ، يرسمهم رسوماً ساخرة . ولا يسمح لهم أبداً بالابتسام أو الضحك . فإذا أضفى على جلافة وجوهم أى تعبير فهو تعبير اللامبالاه الغبية ، والحساسية التى محتها لطمات الحياة(١٧). وكان يثيره ويؤلمه ذلك الجمود الذى يحتمل به المحظوظون شقاء الأشقياء ، وتلك السرعة والراحه التى ينسى بها الأحياء الأموات . وكان يحزنه منظور الطبيعة الشاسع تلك السماء الهائلة التى تبدو تحتها كل الأحداث البشرية غارقة فى الضآلة . وتلوح الفضيلة والرذيلة ، والنمو والانحلال ، والشرف والخسة . مضيعة فى عبث مترام لا يفرق ولا يميز ، والإنسان وقد ابتلعه منظر العالم .

ولا ندرى أهذه فلسفة بروجل الحقيقية أم أنها دعابة فنه لا أكثر .

كذلك لا ندرى لم كف عن المعركة بهذه السرعة وقضى وهو بعد فى التاسعة والأربعين (١٥٦٩) . ولعله لو مد فى أجله لخففت السنون من غضبه . وقد أوصى لزوجته بلوحة غامضة هى « الطريق المرح إلى المشنقة » ، وهى تشكيل رائع فى ألوان خضراء نضرة وزرقاء نائية ، والفلاحون يرقصون قرب مشنقة القرية ومن فوقها حط طائر العقعق ، ويرمز به للسان الثرثار .

٤ — كراناخ والألمان

توارى المعمار الكنسى الألمانى خلال حركة الإصلاح البروتستنتى : فلم تشيد للفن ولا للدين كنائس جديدة ، وترك كثير من الكنائس دون أن يكمل ، وهدم الكثير منها وبنيت بأحجاره قلاع الأمراء : أما الكنائس البروتستنتية فقد انصرفت إلى البساطة الصارمة ، وأما الكنائس الكاثوليكية فقد أسرفت فى زينتها كأنها تتحدى البروتستنتية ، وذلك أثناء انتقال النهضة إلى طراز الباروك .

وحلت العمارة المدنية وعمارة القصور محل بناء الكاتدرائيات فى الوقت الذى حل فيه الأدواق محل الأساقفة واحتوت الدولة الكنيسة . وبعض المبانى المدنية الجميلة فى هذه الفترة كان من ضحايا الحرب العالمية الثانية : مثل الألتاوس فى برنزويك ، ومقر طائفة الجزارين فى هيلدسهايم ، والراتهاوس أو قاعة مدينة نيميجين المبنية بطراز النهضة . واتخذ أكثر معمار هذا العهد والعهد الذى تلاه طموحاً شكل القلاع الضخمة المشيدة لأمراء الأقاليم : كقلعة درسدن التى كلفت الشعب ١٠٠,٠٠٠ فلورين (٢,٥٠٠,٠٠٠ دولار ؟) ، وقصر دون كرستوفر فى شتوتجارت الذى أسرف الدوق فى تأثيثه وفرشه حتى أن قضاة المدينة حذروه من أن [يذخ بلاطه يتناقض تناقضاً مخزياً مع فقر شعبه ؛ وقلعة هيدلبرج المترامية

التى بدئ تشييدها فى القرن الثالث عشر وأعيد بناؤها بطراز النهضة فى ١٥٥٦ — ٦٣ ودمر جزء منها فى الحرب العالمية الثانية .

أما الحرف الفنية فقد احتفظت بتفوقها فى خدمة الأمراء والنبلاء والتجار ورجال المال . فتجارو الأثاث . ونقاشو الخشب والعاج ، والحفارون ، وصناع المنمنمات ، والنساجون ، وخراطو الحديد ، والخزافون ، والصائغون ، وصناع السلاح ، والجواهرية — كل أولئك احتفظوا بالمهارات القديمة التى كانت لأهل العصور الوسطى وإن نحوا إلى تضحية الذوق والشكل فى سبيل الزخرف المعقد . ورسم كثير من المصورين تصميمات للكلشيهات الخشبية بعناية فائقة كأنهم يرسمون صور الملوك : وعكف رسامو الكلشيهات من أمثال هانز لوتزبورجر البازلى على أعمالهم بتفان يليق بمصور كدورر . وبلغ صائغو نورمبرج وميونخ وفينا القمة بين أهل الحرفة ، وكان فى وسع صائغ كفنتزل يامنتزر أن يتحدى رجلا كتشلينى . وحوالى عام ١٥٤٧ بدأ الفنانون الألمان يرسمون الزجاج بألوان المينا ، وهكذا اتخذت الأوانى والنوافذ أشكالا وتصميمات غنية رغم فجاجتها ، واستطاع البورجوازى السرى أن يرى صورته وقد مزجت بألواح الزجاج فى بيتـــه .

واحتفظ المثالون الألمان بحبهم للتماثيل والنقوش البارزة المعدنية . فواصـــل أبناء بيتر فشر فنه . أما بيتر الابن فصب لوحة برونزية لـ « أورفيوس ويوربديس » . وأما هانز فصمم تمثالا جميلا يسمى « نبع أبوللو » لفناء قاعة مدينة نورمبرج ، وأما بول فينسب له عادة تمثال لطيف من الخشب يعرف بعذراء نورمبرج : وصب بيتر فلوتنز النورمبرجى نقوشاً بارزة رائعة مثلت الحسد ، والعدالة ، وساتورن ، وربة الرقص . ومن أمتع محتويات اللوفر تمثال نصفى صنعه يواكيم ديشلر لأوتو هينريش ،

كونت بالاتين ، يبلغ ارتفاعه ست بوصات ونصفاً ، وعرضه مثل هذا لبدانته ، وله وجه هو وليد أعوام من النهم . هنا ترى الفكاهة الألمانية أكثر ما تكون انطلاقاً .

أما فخر الفن الألمانى فقد ظل فى التصوير . فقد أدرك هولبين دورر ، ثم لحق بهما كراناخ ، وألف بالدونج جرين ، وألتدورفر ، وأمبرجر ، صفاً ثانياً مشرفاً . فأما هانز بالدونج جرين فقد اكتسب شهرته برسم لوحة لمذبح كاتدرائية فرايبورج إيم — برايسجاو ، ولكن لوحة « العذراء ذات الببغاء » أكثر جاذبية ، وتبدو فيها فتاة تيوتونية ممتلئة الوجه ذات شعر ذهبي ، وببغاء تنقر خديها . وأما كرستوفر أمبرجر فرسم صوراً أنيقة . ويحتفظ متحف ليل بلوحة « شارل الخامس » التى يبدو فيها مخلصاً ، ذكياً ،وفى أول عهده بالتعصب . وفى « صورة رجل » المحفوظة بمعهد الفن بشيكاغو وجه مهذب دقيق القسمات . وأما ألبرشت التدورفر فيتميز بين هذه المجموعة الصغيرة بغنى مناظره الطبيعية . ففى لوحته « القديس جورج » يكاد الفارس والتنين يختفيان وسط محيط من الشجر المتزاحم . وحتى لوحته « معركة أرابيلا » يتوه فيها الجيشان المقتتلان وسط الكثير من الأبراج والجبال والمياه والسحاب والضياء . وتعد هاتان اللوحتان ، مضافاً إليهما لوحته « وقفة خلال الهروب إلى مصر » ، من طلائع التصوير الصادق للمناظر الطبيعية فى عصرنا الحديث .

اتخذ لوكاس كراناخ الأب اسمه من مسقط رأسه كروناخ فى فرانكونيا العليا . ولا نكاد نعرف عنه أكثر من هذا إلى أن عين فى الثانية والثلاثين من عمره مصوراً للبلاط لدى الناخب فردريك الحكيم فى فتنبرج (١٥٠٤) . وقد احتفظ بوظيفته فى البلاط السكسونى ، سواء فى فتنبرج أو فى فايمار ، زهاء خمسين عاماً . وقابل لوثر ، وأعجب به ،

وصوره المرة بعد المرة ، ورسم لبعض كتابات المصلح صوراً كاريكاتورية للبابوات ، على أنه رسم أيضاً صوراً لبعض أقطاب الكاثوليك أمثال دوق ألفا وألبرشت رئيس أساقفة ماينز . وقد أوتى عقلية تجارية عملية . فحول مرسمه إلى مصنع لتصوير الأشخاص ورسم الصور الدينية . وإلى جوار المرسم باع الكتب والعقاقير ، وأصبح عمدة لفتنبرج فى عام ١٥٦٥ ، ثم مات شبعان مالا وأياماً .

كان التأثير الإيطالى خلال ذلك قد وصل إلى فتنبرج . وهو واضح فى جمال الصور الدينية التى رسمها كراناخ ، وأوضح فى صوره الأسطورية ، وأكثر وضوحاً من هذه وتلك فى صوره العارية . وقد أصبح مجمع الآلهة الوثنية ينافس الآن مريم والمسيح والقديسين كما نافسهم فى إيطاليا . بيد أن روح الفكاهة الألمانية يضفى الحيوية على التقليدى المتوارث ، وذلك بالسخرية من آلهة ماتوا ولم يعد هناك ما يخشى منهم . من ذلك أن لوحة كراناخ « حكم باريز » رسمت العاشق الطروادى (الذى أغوى هيلانه) يمضى إلى فراشه للنوم بينما الحسان المتنفضات من البرد ينتظرن حتى يستيقظ ويقضى بينهن . وفى لوحته «فينوس وكيوبيد» تبدو إلاهة الحب فى جسدها العارى كالعادة ، إلا من قبعة ضخمة — وكأن كراناخ يلمع فى خبث إلى أن الرغبة وليدة العادة ، بحيث يمكن تهدئتها بإضافة غير مألوفة . ومع ذلك فقد أقبل الناس على لوحة فينوس ، وأخرج كراناخ منها — بمساعدة غيره — أكثر من عشرة أشكال لتضىء فى فرانكفورت ، ولننجراد ، والقاعة البورجية ، والمتحف المتروبوليتانى للفن . . . وفى فرانكفورت تخفى فينوس مفاتنها ليستشفها الناظر من خلف خيوط رقيقة كنسيج العنكبوت ، وهذه أيضاً تستخدم فى لوحة « لوكريشيا » ببرلين ، إذ تتأهب فى ابتهاج لافتداء شرفها بطعنة من خنجر صغير . وفى لوحة « حورية الربيع » (نيويورك) رسم كراناخ

هذه السيدة ذاتها راقدة على فراش من الأوراق الخضراء إلى جوار بركة . وفى متحف جنيف تصبح « يهوديت » ، التى لم تعد عارية، بل مرتدية ثيابها لتقتل ، رافعة سيفها فوق رأس هولوفيرن المقطوع ، الذى يغمز بعينه فى سخرية من سوء طالعه . وأخيراً تعود السيدة إلى عريها فتصبح حواء فى لوحة « الفردوس » بفينا ، ولوحة « آدم وحواء » بدرسدن ، ولوحة « حواء والحية» بشيكاغو التى ترى فيها أيلا جميلا ينضم إلى جماعتها ويسميها باسمها . وكل هؤلاء العرايا تقريباً يتميزن بخلة تنقذهن من تهمة الإثارة الجنسية — هى فكاهة خبيثة ، أو دفء فى اللون ، أو رهافة إيطالية فى الخط ، أو نحافة فى قوام الأنثى تخرج على المألوف الوطنى ، فهاهنا محاولة جريئة لاختزال بدانة المرأة الألمانية (الفراو) .

وصور الأشخاص التى تدفقت من أيدى كراناخ ومساعديه أكثر طرافة من نسائه العاريات المكررات ، وبعضها يضارع صور هولبين. فلوحة « أنا كسبنيان » هى الواقعية تخففها الرقة والأثواب الفاخرة وقبعة فى شكل البالون . وقد جلس زوجها يوحنا كسبنيان إلى صورة أبدع حتى من صورة زوجته — فكل مثالية الأديب الإنسانى الشاب انعكست فى عينيه المفكرتين ورمز لها بكتاب يمسك به فى شغف . وقد خلد عشرات من كبار القوم فى الألوان الزيتية أو الطباشيرية فى هذا المرسم الشعبى ، ولكن أحداً منهم لا يستحق الخلود كما يستحقه الطفل « أمير سكسونيا » (واشنطن) الذى يفيض براءة ورقة وعقائص ذهبية . وفى الطرف الآخر من الحياة صورة الدكتور يوحنا شونر وقد بدا رهيب الملامح ولكن فى صورته صنعة رفيعة . ثم نلتقى هنا وهناك فى صور كراناخ بحيوانات رائعة الشكل ، كلها عريق النسب ، وظباء تبدو طبيعية جداً حتى أن صديقاً للمصور زعم أن « الكلاب تنبح حين تراها »(١٨)

ولولا أن كراناخ وفق هذا التوفيق السريع الكبير لجاز أن يكون فناناً أعظم . فكثرة رعاته وزعت عبقريته فلم يكن في وقته متسع لينصرف بكل هذه العبقرية إلى عمل واحد فقط . لذلك لم يكن بد حين جاوز الحادية والثمانين أن يعتريه الكلل والتراخى ، وأصبح رسمه الذى كان فى الماضى دقيقاً كرسم دورر مشوباً بالإهمال ، وراح يتجنب رسم التفاصيل ويكرر نفس الوجوه والعرايا والأشجار تكراراً أفقدها الحياة . ولا مفر لنا فى النهاية من أن نتفق مع الكهل دورر فى هذا الحكم الذى أصدره على كراناخ الشاب — « إن لوكاس يستطيع رسم الملامح لا الروح »(١٩) .

وحين بلغ الثامنة والسبعين فى ١٥٥٠ رسم لنفسه صورة بدا فيها عضو مجلس المدينة والتاجر البدين أكثر منه المصور والحفار . فى رأس مربع قوى ، ولحية بيضاء مهيبة ، وأنف عريض وعينين ممتلئتين كبرياء وقوة شخصية . وبعد ثلاثة أعوام أسلم جسده للزمن ، مخلفاً ثلاثة أبناء كلهم فنانون ، يوحنا لوكاس ، وهانز ، ولوكاس الابن الذى نقلت لوحته « هرقول النائم » موضوعاً من رابليه إلى سويفت . إذ أظهرت المارد وهو يتجاهل فى هدوء تلك السهام التى أصابته بالجهد فى طبقة المضغة الظاهرة من الأقزام المحيطين به . ولعل لوكاس الأب كان يتجاهل بمثل هذا الهدوء نقد الناقدين الذين نددوا به لمثله البورجوازية وعجلته التى لا يراعى فيها الذمة ، وهو اليوم راقد تحت نصب قبره الذى كتبت عليه عبارة مديح تحتمل معنيين : « أسرع المصورين » ؛

وبموته انقضى العصر الذهبى للتصوير الألمانى . ولعل السبب الأساسى فى هذا الانحطاط هو حدة النزاع الدينى أكثر من رفض البروتستنت للتصوير الدينى . ومن الجائز أن موجة من الفساد الخلقى كانت سبباً فى تبذل التصوير الألمانى بعد ١٥٢٠ . فبدأت أجساد العرايا تلعب دوراً

قيادياً ، وانصرفت الصور — حتى المأخوذ منها من الكتاب المقدس — إلى موضوعات مثل سوسنة والشيوخ ، أو زوجة فوطيفار تراود يوسف ، أو بتشبع فى حمامها . وتراجع التصوير الألمانى بعد موت كراناخ فترة قرنين من الزمان وارتد وراء قوى اللاهوت والحرب .

٥ — الطراز التيودورى ١٥١٧ — ٥٨

بدأ حكم هنرى الثامن برائعة من روائع الفن القوطى فى كنيسة هنرى السابع ، وانتهى بمعمار النهضة المتمثل فى القصور الملكية ، وكان تغير الطراز انعكاساً صحيحاً لانتصار الدولة على الكنيسة . وتعطلت العمارة الكنسية زهاء مائة عام نتيجة لهجوم الحكومة على الأساقفةوالأديار والموارد الكنسية .

كان هنرى السابع وهو يتوقع موته قد خصص ١٤٠٠٠٠ جنيه (١٤,٠٠٠,٠٠٠ دولار ؟) لبناء كنيسة صغيرة للسيدة العذراء فى دير وستمنستر لتحوى قبره . وهى رائعة فنية ، لا فى بنائها بل فى زخرفها ، ابتداء من المقبرة ذاتها إلى الحصاة الحجرية المتشابكة فى القبو المروحى ، التى وصفته بأنها « أعجب ماصنعته يد الإنسان فى فنون البناء » . ولما كان تصميم الكنيسة قوطياً وزخرفها ينتمى إلى طراز النهضة ، فإن فيها تتجلى بداية الطراز التيودورى أو المنمق . ولم يلبث هنرى الثامن ، الإنسانى الشاب ، أن افتتن بالأشكال المعمارية الكلاسيكية ، فاستقدم هو وولزى عدة فنانين إيطاليين إلى إنجلترا . وكلف أحدهم وهو بييترو توريجيانو بتصميم مقبرة والديه . ومن ثم أفاض المثال الفلورنسى على التابوت المصنوع من الرخام الأبيض والحجر الأسود زخارف مسرفة سواء بالحفر أو البرونز المذهب : أشخاص ممتلئو الأبدان ، وأكاليل زهر غاية فى الرشاقة ، ونقوش بارزة للعذراء وشتى القديسين ، وملائكة جالسين على قمة المقبرة مادين أرجلهم الجميلة فى الفضاء ،

وفوق هذا كله تمثالان مضطجعان هنرى السابع وزوجته إليزابث . وكان هذا نحتاً لا عهد لانجلترا به قط ، ولم يبزه فى إنجلترا نحت من بعد . « هنا — كما قال فرانسس بيكون — ينزل الملك الشحيح الذى يحرص على البنسات لينفق الجنيهات فى موته منزلا أبهى مما كان ينزل حياً فى أى من قصوره »[٢٠] .

لم يكن هنرى الثامن بالرجل الذى يسمح لأى إنسان بأن يدفن فى أبهة تفوق أبهة دفنه . ففى عام ١٥١٨ تعاقد على أن يدفع لتوريجيانو ٢,٠٠٠ جنيه نظير تصميمه مقبرة « أعظم بالربع » من مقبرة أبيه[٢١] . ولكن لم يكتب لهذه المقبرة أن تتم ، ذلك أن الفنان أوتى كما أوتى الملك طبعاً ملكياً حاداً ، وغادر توريجيانو إنجلترا فى سورة غضب (١٥١٩) . ولما عاد إليها لم يضف مزيداً إلى المقبرة الثانية . وبدلا من ذلك صمم لكنيسة هنرى السابع مذبحاً عالياً ، وحاجزاً خلفه ، ومظلة فوقه ، دمرها رجال كرومويل فى عام ١٦٤٣ . وفى عام ١٥٢١ رحل توريجيانو إلى أسبانيا .

واستؤنفت مهزلة الموت هذه حين كلف ولزى فلورنسيا آخر يدعى بنديتو دا روفتسانو بأن يبنى له مقبرة فى كنيسة القديس جورج بوندزور . كتب هربرت لورد تشوربرى يقول : « إن تصميمها أفخم جداً من تصميم مقبرة هنرى السابع »[٢٢] . ولما سقط الكردينال توسل إلى الملك أن يسمح له على الأقل بالاحتفاظ بتمثاله ليوضع على مقبرة أكثر تواضعاً فى يورك . فأبى هنرى ، وصادر المقبرة كلها لتكون مثوى له ، وأمر الفنانين أن يحلوا تمثاله محل تمثال ولزى ، ولكنه شغل بمشكلات الدين والزواج ، ولم يتم قط بناء هذا الأثر الجنائزى . ثم أراد تشارلز الأول أن يدفن فيه . ولكن برلمانه الذى ناصبه العداء باع الزخارف قطعة قطعة . فلم يبق منها سوى تابوت

الرخام الأسود ليؤلف آخر المطاف جزءاً من ضريح نلسن فى كنيسة القديس بولس (١٨١٠) .

ونحن إذا استثنينا هذه الجهود الفنية ، وما زينت به كنيسة الكلية الملكية بكمبردج من حجاب خشبى ومقاعد وزجاج معشق وقبو . وكلها رائع فاخر ، وجدنا أن المعمار البارز فى هذا العصر كرس لإضفاء العظمة على بيوت النبلاء الريفية حتى تصبح قصوراً أشبه بقصور الخان قائمة وسط حقول إنجلترا وغاباتها ؛ وكان المعماريون هنا إنجليزاً ، ولكن اثنى عشر إيطالياً جندوا لأشغال الزخرفة . هنا ترى واجهة عريضة عرضاً مهيباً امتزج فيها الفن القوطى بفن النهضة ، وبوابة ذات أبراج تفضى إلى فناء ، وقاعة فسيحة للاحتفالات المكتظة بالناس ، وبيت سلم ضخماً يصنع عادة من الخشب المنقوش ، وحجرات تزينها الصور الجدارية أو قطع النسيج المرسومة وتضيئها نوافذ شبكية أو ناتئة ، وحول المبانى حديقة ومسرح للغزلان ومن خلفها أرض للصيد — تلك هى فكرة الشريف الإنجليزى المسبقة : الشكاكة . عن النعيم .

وأشهر قصور النبلاء التيودورية هذه هو هامبتن كورت ، الذى بناه ولزى لنفسه (١٥١٥) وأوصى به لمليكه وهو فى رهبة منه (١٥٢٥). ولا يختص بفضل بنائه معمارى واحد ، بل لفيف من كبار البنائين الإنجليز الذين شيدوه أساساً على الطراز القوطى العمودى ووفق تصميم وسيط فيه الخندق والأبراج والأسوار ذوات الفوهات ؛ وأضاف جوفانى دا مايانو لمسة من لمسات فن النهضة تمثلت فى حلى مستديرة من التراكوتا على الواجهة . وقد وصف دوق فورتمبرج الذى زار إنجلترا فى ١٥٩٢ هامبتن كورت هذا بأنه أفخم قصور الدنيا قاطبة [٢٤]. وهناك قصور أخرى لا تقل عنه كثيراً فى الفخامة ، مثل صاتون بليس فى صرى ، الذى بنى للسر رتشارد وستون (١٥٢١ — ٢٧) ؛ وقصر

نونستشن الذى بدىء بتشييده لهنرى الثامن فى ١٥٣٨ على نطاق إمبراطورى . تقول رواية قديمة إنه « جلب له أمهر الصناع والمعماريين والنحاتين والمثالين من شتى الأمم ، إيطاليين وفرنسيين وهولنديين وإنجليزاً من وطنه ، فأتوا كلهم بمثال معجز من فنهم فى زخرفة القصر ، وزينوه من الداخل والخارج بتماثيل تذكرنا بآثار الرومان القديمة من حيث المحاكاة الدقيقة لها . ولكنها فيما عدا ذلك تفوقها إتقاناً ».(٢٥) واستخدم مائتان وثلاثون رجلا بصفة مستمرة فى بناء هذا القصر الذى قصد به أن يفوق بهاؤه بهاء قصرى فرانسوا الأول فى شامبور وفونتنبلو . ونادراً ما بلغ الملوك الإنجليز هذا الثراء ، أو الشعب الإنجليزى هذا الفقر . ومات هنرى قبل الفراغ من قصر نونستشن . وقد جعلته اليزابث مقرها المحبب . ووهبه تشارلز الثانى لخليلته الليدى كاسلمين (١٦٧٠) فأمرت بهدمه . وباعت أجزاءه قطعاً ، لأنها رأت فى هذا الوسيلة الوحيدة لتحويل هذا العبء المالى إلى ثروة .

٦ — هولبين الابن : ١٤٩٧ — ١٥٤٣

ما أشد عجز الألفاظ أمام عمل من أعمال الفن ! فكل فن يقاوم بنجاح ترجمته إلى أى وسيط آخر . ذلك أن له سمة لاصقة به إما أن تتكلم عن نفسها أولا تتكلم على الإطلاق . وليس فى طاقة التاريخ إلا أن يسجل كبار الفنانين وآياتهم الفنية . أما توصيل هذه الآيات فذلك ما يعجز عنه . والجلوس فى صمت أمام لوحة هولبين التى تمثل زوجته وأبناءه خير من ترجمة لحياة الفنان . ومع ذلك . . .

كان هولبين محظوظاً فى نسبه عنه فى زمانه . فقد كان أبوه من كبار المصورين فى أوجزبورج . ومنه تعلم هانز مبادئ التصوير . ومن هانز بوركمير شيئاً من الجمال والتشكيل الإيطاليين . وفى عام ١٥١٢

رسم أربع حشوات للمذبح محفوظة الآن بمتحف أوجزبورج — متوسطة الجودة حقاً ، ولكنها جيدة إلى حد مدهش بالنسبة لغلام فى الخامسة عشرة . وبعد عامين ارتحل هو وأخوه أمبروز ، وهو رسام أيضاً ، إلى بال . ولعل أباهما كان قد غالى فى التشبث بأسلوبه الذى ما زال قوطياً ، أو لعله لم يتوافر فى أوجزبورج من مال الطبقة المتعلمة ما يكفى الإعالة لقلة من الفنانين ، على أى حال قليلا ما يتعلق الشباب والعبقرية بالبقاء فى الوطن . وفى بال اكتشف الغلامان أن الحرية امتحان. ورسم هانز صوراً لعدة كتب من بينها كتاب إرزمس « فى مدح الحماقة » ، وقام ببعض أشغال الطلاء البسيطة ، وصنع لافتة لأحد المدرسين ، وزخرف رأس مائدة بمشاهد حية من قصة القديس المجهول الاسم — ذلك النكرة الذى يسهل تناوله ، والذى اتهم بكل الخبائث المجهولة ولم ينبس بكلمة دفاعاً عن نفسه . وكان جزاء هانز على هذا العمل مهمة مثمرة وكلت إليه — هى رسم لوحات للعمدة يعقوب ماير وزوجته (١٥١٧) . وذاع صيت هذه اللوحات ، وما لبث يعقوب هرتنشتين أن استقدم هانز إلى لوسرن ، وهناك رسم صوراً جصية على واجهة دار رب البيت وجدرانه ، ورسم لوحة بنـــدكت هرتنشتين المحفوظة الآن بمتحف المتروبوليتان بنيويورك . ولعله انتقل من لوسرن إلى إيطاليا ، فقد أفصح فنه منذ الآن عن تأثير إيطالى من حيث دقة التشريح والخلفيات المعمارية وتكييف الضوء . فلما عاد إلى بال وقد بلغ الثانية والعشرين أقام لنفسه مرسماً وتزوج من أرملة (١٥١٩) . وفى هذه السنة مات أخوه ، وفى ١٥٢٤ مات أبوهما .

وامتزجت الواقعية الألمانية بالعمارة الرومانسكية والزخارف الكلاسيكية فى الصور الدينية التى راح هولبين يرسمها الآن . وأنها لواقعية يجفل لها الناظر — وتذكر بمانتينيا — تلك التى تطالعنا فى لوحة « المسيح فى القبر » :

الجسد ليس سوى عظم وجلد ، والعينان مفتوحتان بصورة رهيبة، والشعر أشعث ، والفم فاغر فى جهد أخير للتنفس ، كل هذا يبدو موتاً لا رجعة فيه ، فلا عجب أن قال دستويفسكى عن الصورة أنها قد تدمر إيمان المرء[٢٦] . وحوالى هذه الفترة رسم هولبين صوراً جدارية لقاعة المجلس الكبير فى بال . فسر بها أعضاء المجلس ، وكلفه أحدهم بأن يرسم لوحة مذبح لدير كارتوزى . وهذه اللوحة ، واسمها «آلام المسيح» أوذيت فى حوادث الشغب التى قامت فى ١٥٢٩ لتحطيم الصور ، ولكن أنقذ منها مصراعان ، وأهديا لكاتدرائية فرايبورج — إيم — برايسجاو . وهما يستعيران الكثير من بالدونج جرين ، ولكنهما يتفردان بقوة تتجلى فى تلك الحركة العجيبة للضوء المنبعث من «الطفل» . وفى عام ١٥٢٢ طلب كاهن مدينة بال لوحة مذبح أخرى . وقد استخدم هولبين فى رسم هذه «المادونا» ذات الجمال الهادىء — والمحفوظة بمتحف الفن بسولوتورن — زوجته وابنه نموذجين ، وكانت الزوجة يومها امرأة ذات حسن متواضع لم تمسه المأساة بعد . ولعله حوالى هذه الفترة[٢٧] أخرج رائعته الدينية «العذراء والطفل مع أسرة العمدة ماير» — وهى فريدة تكويناً وخطاً ولوناً ، حارة عاطفة . وفى وسعنا أن نفهم فى تعاطف أكثر صلاة العمدة للعذراء إذا علمنا أن ولديه المرسومين عند قدميه ، وإحدى الزوجتين الجاثيتين إلى اليمين ، كانوا قد فارقوا الحياة .

ولكن أجر هذه الصور الدينية كان ضئيلا بالقياس إلى ما تطلبته من عناية وجهد . وأما صور الأشخاص فأربح للمصور ، الذى اقتضاه ازدياد أفراد أسرته مزيداً من نفقات إعاشتهم . فنى عام ١٥١٩ رسم هولبين صورة للعالم الشاب بونيفاكوس أمرباخ — وجه نبيل ما زال محتفظاً بالمثالية رغم النظرة الثاقبة إلى العالم . وحوالى عام ١٥٢٢ رسم لوحة للطباع الكبير فروبن — رجل متفان فى عمله ، قلق ، برته

الحياة نتيجة جهوده الخلاقة . وعن طريق فروبن عرف هولبين إرزمس. فني عام ١٥٢٣ رسم صورتين من صوره الكثيرة للأديب الإنسانى الذى غشيه الحزن ؛ وفى لوحته التى بدا فيها إرزمس فى ثلاثة أرباع قامته ، وفق الفنان ، وقد بلغت قدراته غايتها ، فى تفهم روح رجل عمر أكثر مما ينبغى ، فالمرض ولوثر عمقا تجاعيد وجهه واكتئاب عينيه . أما الصورة الجانبية المحفوظة بمجمع الفن ببال فيبدو فيها أكثر هدوءاً وحيوية ، فالأنف ينبرى للنزال كأنه سيف مجالد رومانى . ولعل المخطوط الذى يرى تحت قلمه مسودة لكتابه De libero arbitrio (١٥٢٤) الذى بدأ يدخل به صفوف المعارضين للوثر . وأكبر الظن أن هولبين صور إرزمس مرة أخرى فى عام ١٥٢٤ صورته المحفوظة بمتحف اللوفر ، وهى أفضل صورة قاطبة ؛ ونظرة إلى هذا الوجه العميق الذى طهره الألم تذكر المرء بتعقيب لنيزار فيه إدراك وتفهم « لقد كان إرزمس أحد أولئك الذين كان فخرهم فى أن يفهموا الكثير ويجزموا بالقليل »[٢٨] .

وحوالى ١٥٢٣صور هولبين نفسه وقد بلغ السادسة والعشرين وبدت عليه آثار النعمة ، ولكن النظرة الباردة توحى ببعض الامتعاض المناضل مما منى به فى الحياة من صدمات . وترميه الرواية بادمان غير مفرط على الخمر والنساء ، وتصوره رجلا غير سعيد مع زوجته. ويبدو أنه كان يشارك لوثر بعض آرائه . فلوحاته الخشبية المحفورة « رقصة الموت » (حوالى ١٥٢٥) تهجو الاكليروس — ولكن هذا فعله حتى الاكليروس أنفسهم فى ذلك العهد . وتصور هذه المجموعة الموت يتعقب خطوات كل رجل أو إمرأة أو طبقة — آدم ، وحواء ، والإمبراطور ، ونبيلا ، وطبيباً ، وراهباً ، وكاهناً ، وبابا ، ومليونيراً ، ومنجماً ، ودوقة ، ومهرجا ، ومقامراً ، ولصاً — كلهم فى طريقهم إلى الدينونة الأخيرة ،

واللوحة عمل فنى يضارع فى قوته أى عمل لدورر استخدم فيه هذا الوسيط . وإذا استثنينا هذه الرائعة من روائع الرسم ، وعذراء ماير ، لم نتبين فى هولبين أى عاطفة دينية واضحة . ولعله تشرب بعض التشكك من إرزمس وإنسانيى بال(٢٩). لقد كان اهتمامه بالتشريح أشد من اهتمامه بالدين .

ولقد عصفت حركة الإصلاح البروتستنتى بسوق صوره فى بال على الرغم من رضائه المرجح عنها . فلم تعد تطلب منه صور دينية . وتوقف دفع أجور اللوحات التى رسمها لقاعة المجلس. أما سراة القوم فقد لاذوا بالعزلة والشح إذ روعتهم حرب الفلاحين ، ورأوا أن الوقت غير مناسب للتصوير . كتب إرزمس من بال فى ١٥٢٦ يقول : «إن الفنون تتجمد هنا »(٣٠) . وقد زود هولبين بخطابات قدمه فيها لأصدقائه فى أنتورب ولندن ، وانطلق هولبين إلى بلاد الشمال سعياً وراء المال بعد أن ترك أسرته فى البيت . وزار كوينتين ماسيس، وما من شك فى أنهما تبادلا الرأى فى إرزمس . ومن أنتورب عبر البحر إلى إنجلترا . وضمن له خطاب إرزمس لقاء حاراً من تومس مور الذى هيأ له مسكناً فى بيته بتشلسى ، وهناك رسم صورته (١٥٢٦) المحفوظة الآن بصالة فريك فى بنيويورك . ويرى المؤرخ ، بادراكه المؤخر ، فى العينين المتوترتين اللتين يغشاهما بعض الاكتئاب إيذاناً بورع الشهيد وصلابته . أما أعجب ما فى اللوحة كما تراها بصيرة الفنان فهو فراء الكم وتلافيفه. وفى عام ١٥٢٧ رسم هولبين « تومس مور وأسرته » — وهى أقدم لوحة جماعية معروفة فى الفن غير الدينى عبر الألب .

وفى أواخر عام ١٥٢٨ عاد هولبين إلى بال بعد أن كسب بضعة جنيهات وشلنات ، وأعطى إرزمس نسخة من لوحة « مور وأسرته » ثم لحق بزوجته من جديد . وعكف الآن على رسم صورة من أعظم

صوره وأصدقها ، ترينا أسرته بواقعية لم يضن بها على نفسه . فكل وجه من الوجوه الثلاثة قد غشيه الحزن ، الفتاة مستسلمة بل تكاد تكون يائسة ، والصبي يتطلع إلى أمه مكتئباً ، أما هي فترمقهما بأسى وحب انعكسا انعكاساً عميقاً فى عينيها — أسى زوجة فقدت حب زوجها ، وحب أم لا يربطها بالحياة سوى ولديها . وترك هولبين أسرته ثانية بعد ثلاثة أعوام من رسمه هذا الاتهام الرائع لشخصه .

ورسم خلال إقامته هذه فى بال لوحة أخرى لفروين ، وست صور لإرزمس يعوزها ما تميزت به صور ١٥٢٣ — ٢٤ من عمق شديد . وجدد مجلس المدينة طلب رسوم جصية لحجراته ، ولكنه شجب الصور الدينية كافة مستسلماً لمحطمى الصور المنتصرين ، وأفتى بأن « الله لعن جميع من يصنعونها »(٣١). وهبط الطلب على الصور ، وفى عام ١٥٣٢ عاد هولبين إلى إنجلترا .

وهناك رسم صوراً بلغت من الكثرة حداً ظهر معه معظم الأشخاص ، الذين سيطروا على مسرح الأحداث فى إنجلترا خلال تلك السنوات الصاخبة ، وقد دبت فيهم الحياة بفضل ريشة هولبين الساحرة . فى مكتبة الملكة بقصر وندزور سبعة وثمانون رسماً تخطيطياً بالفحم أو الطباشير ، بعضها أعد لرسوم هزلية ، وأكثرها للوحات ، والظاهر أن الفنان لم يحتج لأكثر من جلسة أو جلستين من أصحاب رسومه ، ثم صورهم على لوحاته نقلا عن هذه الرسوم . وسعى التجار الهانسيون فى لندن إلى فنه ، ولكنهم لم يوحوا إليه بأفضل ما عنده . وقد رسم لقاعة نقابة الهانسيين صورتين جداريتين ، محفوظتين فى نسخ أو رسوم لها فقط ، مثلت إحداهما « انتصار الفقر » ، والأخرى : « انتصار الغنى » . وكلتاهما معجزة فى الشخصية المميزة ، والحركة الحية ، والتصميم المتماسك ، وهما توضحان شعار النقابة — « إن الذهب أبو الفرج وابن الهم ، المفتقر إليه حزين ، والمالك له قلق(٣٢)» .

وفى عام ١٥٣٤ أسلم تومس كرمويل وجهه الجامد وجسده الهش لريشة هولبين ، وكان مزمعاً أن يكون بشخصه مصداق هذه الحكمة . وعن طريقه اتصل الفنان بأرفع الشخصيات فى البلاط . ورسم لوحة « السفراء الفرنسيين » ووفق توفيقاً غير عادى فى تصوير واحد منهم يدعى شارل دسواييه ، إذ كشف عن الرجل المتوارى خلف رداء المنصب وشارته . وهناك أربعة آخرون — هم السر هنرى جلفورد (مراقب البيت الملكى) ، والسر نيكولاس كاريو (قيم الاسطبلات الملكية) . وروبرت تشيسمان (بازدار الملك) والدكتور جون تشيمبرز (طبيب الملك) — هؤلاء الأربعة تستشف فى صورهم صفاقة فى الجلد لولاها لاستحال عليهم العيش فى مأمن مع هذا الملك النارى الطبع . وقد أصبح هولبين واحداً منهم حوالى ١٥٣٧ بوصفه المصور الرسمى للبلاط . وأفرد له مرسم خاص فى قصر هوايتهول ، ونزل مسكناً مريحاً . وكان له كغيره عشيقات وأبناء غير شرعيين ، وغدا يرفل فى الخز والأثواب البهية [٣٣] . وطلب إليه أن يزخرف الحجرات ، ويصمم الأثواب الرسمية ، وأغلفة الكتب ، والأسلحة ، ومفارش المائدة ، والأختام . والأزرار والمشابك الملكية ، والأحجار الكريمة التى كان هنرى يهديها إلى زوجاته ، وفى عام ١٥٣٨ أوفده الملك إلى بروكسل ليصور الأميرة كرستين الدنمركية ، وقد تبين أن فيها كثيراً من الفتنة ، وود هنرى لو اتخذها زوجة ، لولا أنها اختارت الدوق فرانسوا اللوريني بدلا منه ، ولعلها آثرت أن تعلق فى قاعة للصور عن أن يقطع رأسها . وانتهز هولبين الفرصة لزيارة بال زيارة قصيرة . وهناك عين راتباً سنوياً لزوجته قدره أربعون جلدراً (١٠٠٠ دولار ؟) ثم أسرع بالعودة إلى لندن . وبعد عودته بقليل كلف بأن يصور آن كليفز ، وكاد هولبين أن يتنبأ بمصيرها فى العينين الحزينتين اللتين تطالعانك من صورتها المحفوظة الآن باللوفر .

أما الملك فقد رسم له عدة لوحات كبيرة فقدت كلها تقريباً . وبقيت منها واحدة فى قاعة « باربر سيرجنز » بلندن : « هنرى الثامن يمنح مرسوم شركة تضامنية لشركة باربر سيرجنز » ويرى فيها هنرى وقد طغى على المشهد فى أثوابه الرسمية : ورسم الفنان صورا جذابة لزوجة هنرى الثالثة جين سيمور ، ولزوجته الخامسة كاترين هوارد . وكان إذا جلس أو وقف له هنرى نفسه يرتفع إلى مستوى التحدى ويخرج لوحات لايفوقها من انتاجه سوى صور إرزمس المحفوظة باللوفر وبال . ولوحة عام ١٥٢٦ تظهر الملك بدينا بدانة التيوتون ، مزهواً زهوهم . وأعجب بها هنرى على الرغم منه ، وكلف هولبين بتصوير الأسرة المالكة صورة جصية ملونة بقصر وايتهول . وقد دمرت النيران هذه الصورة الجدارية عام ١٦٩٨ . ولكن نسخة أخرجت منها عام ١٦٦٧ لتشارلز الثانى تشف عن براعة التصميم : فى أعلى اليسار يرى هنرى السابع ، تقياً متواضعاً ، وفى أسفل ولده يلوح بشعارات السلطة ويمد ساقيه كأنه العملاق . وإلى اليمين أمه وزوجته الثالثة ، وفى الوسط أثر من الرخام يفصل باللاتينية فضائل الملوك . وقد فصل وجه هنرى الثامن بواقعيه ترددت بسببها أسطورة تحكى أن أشخاصا دخلوا الحجرة وحسبوا أن الصورة هى الملك الحى ذاته . وفى عام ١٥٤٠ رسم هولبين صورة أشد وقعاً فى النفس حتى من هذه . وهى « هنرى الثامن فى ثياب العرس . » واخيراً (١٥٤٢ .) أظهو لنا الرسام هنرى فى انحلال عقله وجسده . وكان عمل ربة الانتقام هنا بطيئا متأنيا . فمدت فى ثأر الآلهة ؛ وبدلا من الميتة الهادئة أو المباغته قضت عليه بانحلال طويل مذل .

وهناك صورتان جميلتان تكفران عن سيئات قاعة الصور الملكية ، إحداهما للامير إدوارد فى الثانية من عمره وهو يفيض براءة ، والأخرى لإدوارد فى السادسة (بمتحف المتروبوليتان للفنون) . وهذه اللوحة الثانية

بهجة للناظرين . وفى وسعنا أن نحكم على فن هولبين حين نراه خلال سنة أو سنتين يصور فى غير إحجام كبرياء الأب البدين ، ثم يلتقط بمثل هذه البراعة المحيّرة وداعة الابن البريئة .

وصور الفنان نفسه مرة أخرى حين بلغ الخامسة والأربعين (١٥٤٢) ، وبذات الموضوعية التى رسم بها الملك : رجلا مرتاباً مشاكساً ذا شعر ولحية وخطهما الشيب وبدا عليهما الإهمال ؛ ثم مرة أخرى عام ١٥٤٣ فى صورة مستديرة تظهره فى حالة أرق وألطف . فى ذلك العام اجتاح الطاعون لندن واختاره واحداً من ضحاياً .

كان من الناحية التقنية واحداً من عظماء المصورين . فهو يرى فى تدقيق بالغ ، ويرسم كما يرى ، وهو يمسك بكل خط ، أو لون ، أو موقف ، بكل زاوية أو تغير فى الضوء، يمكن أن يكشف عن دلالة أو مغزى ، ويثبته على الورق أو القماش أو الخشب أو الجدار . . . وأى دقة فى الخطوط ، وعمق ونعومة ودفء فى الألوان، وبراعة فى ترتيب التفاصيل ليؤلف بينها تأليفاً موحداً ! ولكننا فى كثير من اللوحات ، التى لم يكن الهدف منها تصوير الشخص بل تقاضى الأجر ، نفتقد ذلك التعاطف القادر على رؤية نفس الإنسان الخفية وعلى مشاركتها شعورها . هذا التعاطف نجده فى صور إرزمس المحفوظة باللوفر وبال ، وفى صورة أسرته ، وإذا استثنينا عذراء ماير ، فإننا نفتقد المثالية التى سمت بالواقعية فى لوحة فان إيك « عبادة الحمَل » . وقد قصر به عدم مبالاته بالدين عن بلوغ السمو الذى بلغه جرونفالد ، وأبعده عن دورر الذى ظل على الدوام محتفظاً بإحدى قدميه فى العصور الوسطى . ولم يكن هولبين فنان النهضة الخالص كتيشان ، ولا فنان الإصلاح البروتستنتى الخالص ككراناخ ، لقد كان ألمانياً — هولندياً — فلمنكياً — إنجليزياً فى واقعيته وإحساسه العملى . ولعل نجاحه حال دون دخول مبادىء التصوير الإيطالية ورقته

دخولا قوياً إلى إنجلترا . وبعد موته انتصرت البيورتانية على العاطفة الإليزابيثية ، وراح فن التصوير الإنجليزى يتعثر حتى جاء هوجارث . وفى الوقت ذاته فارق المجد التصوير الألمانى . ولم يكن بد من أن يتدفق فوق أوربا الوسطى سيل من الهمجية قبل أن يعود الإحساس بالجمال إلى التعبير عن نفسه هناك مرة أخرى .

٧ — الفن فى أسبانيا والبرتغال : ١٥١٥ — ٥٥

لم تعرف أسبانيا قط النهضة بالمعنى الإيطالى الغنى على الرغم من ظهور الجريكو وفيلاسكيز ، وسرفانتيس وكالديرون . فثروتها التى جاءتها من أقطار نائية أضفت على ثقافتها المسيحية زخارف جديدة ، وأتاحت لها إجزال العطاء للوطنيين النابغين فى الأدب والفن ، ولكنها لم تتدفق كما تدفقت الثروة فى إيطاليا وفرنسا إلى أى جهود مثيرة لاستعادة تلك الحضارة الوثنية التى ازدان بها عالم البحر المتوسط قبل المسيح وبعده ، والتى أنجبت سنيكا ولوكان ومارتيال وكونتيليان وتراجان وهادريان على أرض أسبانيا ذاتها . لقد طغى على ذكرى العهد الكلاسيكى طول الصراع بين المسيحية الإسبانية والمغاربة ، وكل الذكريات المجيدة كانت ذكريات ذلك الانتصار المتطاول ، وغدا الإيمان الذى حققه مقترناً بتلك الذكرى الفخور لا ينفصل عنها . وبينما كانت الدولة تذل الكنيسة فى كل أرجاء أوربا الأخرى ، كان النظام الكنسى فى أسبانيا يزداد قوة على الزمن ، فتحدى البابوية وتجاهلها ، حتى حين كان الأسبان يحكمون الفاتيكان ، وعاش رغم الاستبداد الورع الذى فرضه فرديناند وشارل الخامس وفيليب الثانى ، ثم سيطر على كل نواحى الحياة الأسبانية . وكانت الكنيسة فى أسبانيا الراعى الوحيد تقريباً للفنون ، ومن ثم فقد قررت اللحن الذى تريده ، وحددت الموضوعات ، وجعلت الفن كالفلسفة خادماً للاهوت . وعينت محاكم التفتيش الإسبانية مفتشين

لتحريم العرى أو البذاءة أو الوثنية أو الهرطقة فى الفن ، ولتحديد طريقة تناول المواضيع المقدسة فى النحت والتصوير ، ولتوجيه الفن الأسبانى وجهة التبصير بالإيمان وتثبيته .

ومع ذلك فقد كان التأثير الإيطالى يتدفق إلى أسبانيا . فارتقاء الأسبان عرش البابوية وفتح ملوك الأسبان نابلى وميلان ، وحملات الجيوش الأسبانية وبعثات رجال الدولة والكنيسة إلى إيطاليا ، والتجارة الرائجة بين أسبانيا والثغور الإيطالية ، وزيارة الفنانين الأسبان أمثال فورمنت وبيروجويتى وابنه لإيطاليا ، والفنانين الإيطاليين أمثال توريجيانو وليونى ليونى لأسبانيا — هذه العوامل كلها أثرت فى الفن الأسبانى من حيث طرائقه وزخرفته وأسلوبه ، ولم نوئثر تأثيراً يذكر فى روحه أو موضوعه ؛ أثرت فى التصوير أكثر مما أثرت فى النحت ، وكانت أقل ما تكون تأثيراً فى العمارة .

وسيطرت الكاتدرائيات على مشاهد الريف والمدن سيطرة الدين على الحياة . فالرحلة فى أسبانيا أشبه بالحج من هيكل إلى آخر من هذه الهياكل الجبارة . وضخامتها المهيبة ، وغنى زخارفها الداخلية ، وصمت أبهائها الذى يلفه ضوء خافت ، وأشغال الحجر المكرسة التى تبنى بها أروقتها ، كلها تبرز البساطة والفقر الوضحين فى مساكن الآجر الجميلة المتزاحمة فى أسفلها وهى تتطلع إليها كأنها الوعد بعالم أفضل . وظل الطراز القوطى هو السائد فى الكاتدرائيات الشامخة التى ارتفعت فى سماء سلمنقة (١٥١٣) وسقوبية (١٤٢٢) ، ولكن المعمارى ديبجو دى سيلوى ، وكان ابن نحات قوطى الفن ، صمم الأجزاء الداخلية من كاتدرائية غرناطة بأعمدة وتيجان كلاسيكية ، وتوج التصميم القوطى بقبة كلاسيكية (١٥٢٥) ؛ وأزاح طراز النهضة الإيطالية الطراز القوطى إزاحة تامة فى قصر شارل الخامس بغرناطة . وكان شارل قد وبخ أسقف قرطبة

على إتلافه المسجد الكبير ببناء كنيسة مسيحية داخل أعمدته البالغ عددها ٨٥٠[٣٤] ، ولكنه ارتكب ذنباً لا يكاد يقل فداحة حين هدم بعض قاعات قصر الحمراء وأبنيته ليفسح مكاناً لبناء كان من الجائز أن يتقبل المرء ضخامته الصارمة وتماثله السخيف دون تأذ لو أنه قام وسط أبنية مماثلة له فى روما ، ولكنه ظهر نابياً أشد النبوّ وسط القلعة المغربية برشاقتها الهشة وتنوعها البهيج .

وظهر شىء من ميل المغاربة للزخارف المعمارية فى طراز « الأطباق » الذى طبع أكثر ما طبع المعمار المدنى فى ذلك العهد . وقد اشتق اسمه من الشبه بينه وبين الحلى المعقدة الرقيقة التى كان صائغو الفضة (البلاتيرو) أو الذهب يحاون بها آنية المائدة وغيرها من تحف فنهم . وقد ملأ هذا الطراز قمم وجوانب البوابات والنوافذ بأحجار ملتفة عربية الطراز ، وحفر الأعمدة أو لولبها أو زهرها بخيال إسلامى غريب ، وثقب النوافذ المصبّعة والدرابزينات بورق شجر وبوشى من الرخام . وكان هذا الطراز طابع كنيسة أوبيسبو فى مدريد ، وكنيسة سانتو توماس فى أفيلا ، وخورس كاتدرائية قرطبة . وقد أطلق لنفسه العنان فى قاعة مدينة إشبيلية (١٥٢٦) . واقتبست البرتغال هذا الطراز على بوابة حفلت بالحلى وأعمدة نقشت بالزخارف فى دير سانتا ماريا الفخم فى بيليم (١٥١٧) ، وحمله شارل الخامس إلى الأراضى المنخفضة وألمانيا حيث نشر طابعه على قاعات مدينتى أنتورب وليدن وقلعة هيدلبرج . ولكن فيليب الثانى وجد فى هذا الطراز إسرافاً فى الزخرف لا يطيقه ذوقه ، فمات موتاً مبكراً تحت عبساته .

أما النحت الأسبانى فقد خضع للمد الإيطالى المتعاظم بأيسر مما خضع المعمار . فبعد أن كسر بيترو توريجيانوأنف ميكلانجلو فى فلورنسة ، وتحدى هنرى الثامن فى لندن ، استقر فى إشبيليه (١٥٢١) وصنع من

الطين المحروق تمثالا غليظاً للقديس جيروم ، ارتأى فيه جويا رأياً خاطئاً ، هو أنه أعظم أعمال النحت الحديث(٣٥). وأحس توريجيانو أنه نقد أجراً حقيراً لقاء صنعه تمثالا للعذراء ، فحطمه شذر مذر ، وقبضت عليه محكمة التفتيش فمات فى سجونها(٣٦). أما داميان فورمنت فقد حمل روح النهضة على إزميله وفى عباراته الطنانة بعد عودته إلى أراجون من إيطاليا . كان يصف نفسه بأنه « قريع فيدياس وبراكسيتيليس » . وتقبله الناس بالقدر الذى قدر به نفسه ، فسمحت له السلطات الكنسية بحفر صور له ولزوجته على قاعدة حاجز المذبح الخلفى الذى صنعه لدير مونتى أراجون . ثم صنع من المرمر لكنيسة نويسترا سينورا ديل بيلار فى سرقسطة رافدة مذبح كبيرة بالنقوش ضئيلة البروز ، مزج فيها العناصر القوطية بعناصر النهضة ، والتصوير بالنحت ، واللون بالشكل . وكرس فورمنت لرافدة مذبح أخرى فى كاتدرائية وشقة فى السنوات الثلاث عشرة الباقية من حياته (١٥٢٠ — ١٥٣٣) .

وكما أن بدرو بروجويتى هيمن على التصوير الأسبانى فى نصف القرن السابق على شارل الخامس ، فكذلك أصبح ابنه أكبر النحاتين الأسبان فى العهد الذى نحن بصدده . وقد تعلم ألونسو فن اللون من أبيه ، وذهب إلى إيطاليا واشتغل مع رفائيل مصوراً ، ومع برامانتى وميكلانجلو مثالا . فلما عاد إلى أسبانيا (١٥٢٠) جلب معه ولع ميكلانجلو بالوجوه تلتقط فى حدة الانفعال أو عنف المواقف . وعينه شارل مثالا ومصوراً للبلاط . وظل ست سنوات فى بلد الوليد ينحت من الخشب حجاباً لمذبح كنيسة سان بنيتو إل ريال ، طوله اثنان وأربعون قدماً وعرضه ثلاثون ، ولم يبق منه إلا قطع متناثرة ، أهمها صورة للقديس سباستيان ذات ألوان حية ، والدم يتدفق من جروحه . وفى ١٥٣٥ اشترك مع أهم منافسيه ، فيليبى دبورجونا ، فى نقش مقاعد للمرتلين فى كاتدرائية طليطلة ، وهنا

أيضاً كان أسلوب ميكلانجلو هو الموجه ليده ، والمنبئ بطراز الباروك فى أسبانيا . ولما قارب الثمانين كلف أن يقيم فى مستشفى القديس يوحنا بطليطلة أثراً تذكارياً لمؤسسة الكردينال جوان دى تافيرا . وأخذ معه ابنه ألونسو مساعداً ، وأبدع إحدى الروائع الكبرى فى النحت الأسبانى . ثم مات خلال هذه المحاولة وقد بلغ الخامسة والسبعين (١٥٦١) .

أما التصوير الأسبانى الذى كان لا يزال آنئذ تحت وصاية إيطاليا وفلاندر فلم يجد بفنان بارز فى عهد شارل الخامس . وكان الإمبراطور يؤثر المصورين الأجانب ، فاستقدم أنطونيس مور ليصور أعيان الأسبان ، أما عن نفسه فقد صرح بأنه لن يسمح لأحد أن يصوره غير تيشان العظيم . والمصور الأسبانى الوحيد الذى عبرت سمعته جبال البرانس هو لويس دى موراليس . وقد قضى السنين الخمسين الأولى من حياته فقيراً مغموراً فى بلدته بطليوس ، يرسم الصور للكنائس كبيرها وصغيرها فى إقليم استريمادورا . وكان يناهز الرابعة والخمسين حين أمره فيليب الثانى بالحضور والتصوير فى الاسكوريال (١٥٦٤) . فقدم نفسه للملك فى ثياب بهية رأى فيليب أنها لا تليق بفنان ، ولكنه لان حين علم أن لويس أنفق مدخرات العمر ليعد لنفسه ثياباً تليق بالمثول بين يدى جلالته . ولم تستهو الملك لوحته « المسيح حاملا الصليب » ، فعاد إلى بطليوس وحياة الضنك . وتعرض عدة لوحات بريشته فى الجمعية الأسبانية بنيويورك ، وكلها جميلة . غير أن أفضل مثال لفنه هو لوحة « العذراء والطفل » فى البرادو — وهى تذكرنا من بعض وجوهها برفائيل تذكيراً شديداً . ولما اجتاز فيليب ببلدة بطليوس فى عام ١٥٨١ خصص معاشاً متأخراً للفنان الذى أعجزه الفالج وضعف البصر ، فيسر له بذلك القوت المنتظم فى السنوات الخمس الباقية له من عمره .

أما صناع أسبانيا المهرة فكثيراً ما كانوا فنانين فى كل شىء ولا ينقصهم غير الاسم ؛ فقد ظلت أشغال التخريم والجلد تحظى بأرفع مكانة فى أوربا ؛ كذلك كان النجارون لا ضريب لهم ، وعند تيوفيل جوتييه أن الفن القوطى لم يدن قط من الكمال دنوه فى مقاعد المرتلين بكاتدرائية طليطلة . أما المشتغلون بالمصنوعات المعدنية فقد جعلوا من حجب الهياكل ، ومصبعات النوافذ ، ودرابزينات الشرفات ، ومفصلات الأبواب ، بل من المسامير ، تحفاً فنية . وأحال صاغة الذهب والفضة بعض المعدن النفيس المتدفق من أمريكا حلياً للأمراء وآنية للكنيسة . واشتهر من أشغالهم الآنية التى صاغوها بتخريم الفضة أو الذهب لاحتواء القربان المكرس . ولم يتمنع جل فيتشنتى بمكانته زعيماً لكتاب المسرحية فى البرتغال وأسبانيا فى هذه الفترة ، بل صنع وعاء للقربان المقدس — يخرج به الكاهن على جمهور المصلين — قيل فى تقديره « انه أروع أشغال الصياغة فى البرتغال »(٣٧) ؛ وواصل فرانشيسكو دى هولاندا ، البرتغالى برغم اسمه ، زخرفة المخطوطات ببراعة ، وهى فن كان بسبيله إلى الزوال .

ويمكن القول على الجملة إن هذه الفترة التى تقل عن نصف قرن قد وفقت توفيقاً مشرفاً فى مجال الفن على الرغم من استنفاد الطاقات وتمزقها فى الثورة الدينية . لم يكن كبار المعماريين والنحاتين والمصورين ممن يثبتون للمقارنة بالعمالقة الذين زلزلوا باللاهوت أوربا ، وكان الدين لحن العهد ، وقصارى ما كان يستطيعه الفن أن يكون مصاحباً له . بيد أن إل روسو ، وبريماتتشيو ، وليسكو ، وديلورم ، وجوجون ، وآل كلويه فى فرنسا ، وبروجويتى وابنه فى أسبانيا ، وبروجل فى فلاندر ، وكراناخ فى ألمانيا ، وهولبين فى كل بلد — كل أولئك كانوا قائمة نبيلة من الفنانين لعهد شديد الاضطراب بالغ القصر . إن

الفن نظام ، ولكن كل شيء كان فوضى — لا الدين فحسب ؛ بل الأخلاق ، والنظام الاجتماعى ، والفن نفسه . وكان الفن القوطى يخوض معركته الخاسرة مع الطرز والأساليب الكلاسيكية ، واضطر الفنان بعد أن اقتلع من ماضيه أن يجرب بمحاولات اجتهادية لم تستطع أن تمنحه جلال الاستقرار المتأصل فى زمان واثق من نفسه . كذلك كان الإيمان متردداً وسط هذا الاضطراب الشامل ، فلم يعد يعطى الفن أوامر وتوجيهات واضحة ، وهوجمت الصور الدينية وحطمت ، وأخذت الموضوعات المقدسة تفقد قدرتها على استثارة العبقرية أو الإعجاب أو التقوى بعد أن كانت مبعث إلهام لمبدع الجمال ولمشاهده على السواء . أما فى مجال العلم فقد راحت أعظم الثورات قاطبة تخلع الأرض عن عرشها اللاهوتى ، وتضيع فى الفراغ اللانهائى تلك الكرة الصغيرة التى كان الافتقاد الإلهى لها سبباً فى تكوين العقل الوسيط وخلق الفن الوسيط ؛ ترى ، متى يعود الاستقرار ثانية ؟

الفصل السابع والثلاثون

العلم في عصر كوبرنيق

(١٥١٧ – ٦٥)(*)

١ – الإيمان بالمستور (السحر والتنجيم وما إليهما)

من الحقائق الجديرة بالملاحظة أن هذا العهد الذي استغرقه اللاهوت والثقافة المدرسية قد أنجب رجلين لهما أرفع مقام في تاريخ العلم – كوبرنيق وفيزاليوس ، ومن العجيب أن الكتب التي احتوت عصارة حياتهما قد ظهرت في سنة واحدة ، هي « سنة العجائب » ١٥٤٣ . لقد وكان بعض الظروف مواتياً للعلم . فاكتشاف أمريكا وارتياد آسيا ، ومطالب الصناعة واتساع التجارة – كل هذا أثمر معرفة كثيراً ما ناقضت المعتقدات المتوارثة وشجعت التفكير الأصيل . وكان للترجمات من اليونانية والعربية ، ولطبع كتاب أبولونيوس « الأشكال المخروطية » (١٥٣٧) والنص اليوناني لأرخميدس (١٥٤٤) ، الفضل في حفز العلوم الرياضية والفزيائية . غير أن كثيراً من الرحالة كانوا كاذبين أو مهملين ، ونشرت الطباعة الهراء على نطاق أوسع من نشرها للمعرفة ، وكانت الأدوات العلمية بدائية برغم تعددها . فالمكروسكوب والتلسكوب والترمومتر والبارومتر والمكرومتر والمكروكرنومتر كلها كانت في ضمير الغيب . أما النهضة فقد ولعت بالأدب والأسلوب ، واهتمت بالفلسفة اهتماماً مؤدباً ، ولم تكد تكترث للعلم . حقيقة أن

(*) انظر الفصل ٣٠ في العالم الإسلامي ، والفصل ٣٢ في العالم اليهودي ، والفصل ١٩ من فصول النهضة في العالم الإيطالي .

بابوات النهضة لم يقفوا موقف العداء من العلم . فقد استمع ليو العاشر وكلمنت السابع إلى أفكار كوبرنيق بذهنين مفتوحين ، وتقبل بولس الثالث فى غير خوف إهداء كوبرنيق كتابه له ، « كتاب الدورات » الذى زلزل العالم . ولكن رد الفعل الذى جاء فى عهد بولس الرابع ، وتطور محكمة التفتيش فى إيطاليا ، وقرارات مجمع ترنت القطعية ، كل هذا جعل الدراسات العلمية شاقة خطرة بصورة متزايدة بعد عام ١٥٥٥ .

ولم تستطع البروتستنتية أن تؤيد العلم ، لأنها أسست صرحها على كتاب مقدس معصوم . ورفض لوثر فلك كوبرنيق لأن التوراة ذكرت أن يشوع أمر الشمس — لا الأرض — أن تقف . أما ملانكتون فكان ميالا للعلم ، فدرس الرياضيات ، والفيزياء ، والفلك ، والطب ، وحاضر فى تاريخ الرياضيات فى العصور القديمة ، ولكن روحه السمحة غلبتها طبيعة أستاذه القوية وطغيان لوثرية ضيقة الأفق بعد موت لوثر . أما كالفن فلم يكن به كبير تقدير للعلم ، وأما نوكس فلا تقدير على الإطلاق .

وظل مناخ مثبط من الإيمان بالمستور يحدق بعلماء الغد ويشوش أذهانهم بل يهدد سلامة عقولهم أحياناً كما حدث لكاردن وباراسيلسوس : فالسحر والكيمياء القديمة من مصر ، والفيثاغورية والأفلاطونية الحديدة الصوفيتان من اليونان ، والقبلانية من اليهودية ، كلها حيرت مئات العقول المتلمسة طريقها . وغزت القصص الأسطورية وقصص المعجزات كتابة التاريخ الرسمى ، وروى الرحالة حكايات عن تنانين تنفث اللهب وفقراء يتسلقون الحبال . وكاد يفسر كل حدث شاذ فى الحياة العامة أو الخاصة بأنه ليس إلا تدبيراً من الله أو الشيطان لإنذار الإنسان أو تهذيبه ، لفتنته أو تدميره . وآمن الكثيرون بأن

المذنبات والنيازك إن هى إلا كرات من النار يقذف بها إله غاضب[١]، ودخلت الكتب الرخيصة كل بيت قارئ ، مؤكدة إمكان تحويل المعادن الخسيسة ذهباً . وكما ذكرت رواية معاصرة . كان « كل الخياطين والحذائين والخدم والخادمات الذين يسمعون ويقرأون عن هذه الأشياء يعطون كل ما يوفرون من نقود . . . للجائلين والمحتالين » من المشتغلين بهذه الخدع[٢] . وقد ذكر مشعوذ يدعى وليم وتشرلى فى محاكمته بانجلترا عام ١٥٤٩ أن فى الجزيرة خمسمائة مشعوذ مثله[٣] . وكان الطلاب المتجولون فى ألمانيا يبيعون الأحجبة الواقية من الساحرات والشياطين . وأقبل الجند على التعاويذ والطلاسم التى تكفل تحويل رصاص البنادق عن هدفه[٤] . وكثيراً ما كان القداس نفسه يستعمل رقية لجلب المطر أو ضوء الشمس أو النصر فى الحرب . وشاعت إقامة الصلوات استدراراً للمطر ، وكانت أحياناً تبدو موفقة فوق ما يطلب ، فتقرع أجراس الكنائس لتنبيه السماء إلى الكف عن المطر[٥] . وفى ١٥٢٦ — ٣١ كان رهبان تروا يوقعون حرماً رسمياً على الديدان التى ابتليت بها المحاصيل ، ولكنهم يضيفون إلى هذا أن الحرم لا يجدى إلا فى الأطيان التى يدفع زراعها عشورهم للكنيسة[٦] .

ولعل الأحداث التى نسبت إلى الشيطان كانت أكثر من تلك التى نسبت إلى الله . يقول كاتب بروتستنتى فى عام ١٥٦٣ متفجعاً : « ندر أن تمر سنة دون أن نسمع بأبشع الأنباء من الإمارات والمدن والقرى عن الأساليب الفاجرة الرهيبة التى يحاول بها ملك الجحيم ، بظهوره جسدياً أو فى شتى الصور والأشكال ، أن يطفىء النور الجديد الساطع ـ نور الإنجيل المقدس »[٧] . وشارك لوثر عامة الناس فى نسبة معظم الأمراض إلى الأرواح الشريرة التى تدخل الجسد — وهى فكرة لا تتناقض على أية حال تناقضاً تاماً مع نظريتنا الشائعة الآن . وكان

الكثيرون يؤمنون بأن الأمراض تنجم عن العين الشريرة أو غيرها من أعمال السحر ، وأن فى الإمكان شفاءها بالجرعات السحرية — وهذا أيضاً لا يبعد كثيراً عن عاداتنا فى هذه الأيام . وكان أكثر العلاج يعطى حسب موقع الكواكب . ومن هنا دراسة طلبة الطب للتنجيم .

وقد اقترب التنجيم من العلم لأنه افترض حكم القانون فى الكون ولأنه اعتمد إلى حد كبير على التجربة . صحيح أن الاعتقاد بأن حركات النجوم ومواقعها هى التى تقرر الأحداث البشرية لم يكن شاملا كما كان من قبل ، ومع ذلك فقد كان فى باريس ٣٠,٠٠٠ منجم فى القرن السادس عشر ،[٨] كلهم على استعداد لكشف الطالع لقاء قطعة من النقود . وراجت التقاويم الحاوية لتنبؤات المنجمين رواجاً كبيراً . وقد قلدها رابليه ساخراً فى « التنبؤات البنتاجرويلية » للسيد ألكوفريباس . ووافقه فى هذه النقطة لوثر والسوربون ، فنددا بالتنجيم فى جميع صوره . واستنكرت الكنيسة رسمياً تنبؤات المنجمين لأنها تتضمن معنى الحتمية وخضوع الكنيسة للنجوم ؛ ومع ذلك فان البابا بولس الثالث ، وهو من أعظم مفكرى ذلك العصر ، كان على حد قول سفير فى القصر البابوى ، « يأبى أن يدعو لأى اجتماع هام لمجمع الكرادلة ، وأن يخرج فى أى رحلة ، دون تخير للأيام الملائمة ورصد لحركات الأبراج » .[٩] وكان فرانسوا الأول ، وكاترين دمديتشى ، وشارل التاسع ، ويوليوس الثانى ، وليو العاشر ، وأدريان السادس — كانوا كلهم يستشيرون المنجمين .[١٠] وقد غير ملانكتون تاريخ مولد لوثر ليهيىء له طالعاً أسعد ،[١١] وتوسل إليه ألا يسافر والقمر هلال بعد .[١٢]

وما زال أحد منجمى هذه الفترة مشهوراً ، فالمنجم نوسترادادموس كان بالفرنسية ميشيل دنوتردام . وقد زعم أنه طبيب وفلكى ،

وارتضته كاترين دمديتشي منجماً شبه رسمي . وبنت له مرصداً فى ليزال . وفى عام ١٥٦٤ تنبأ لشارل التاسع بأنه سيعمر إلى التسعين[١٣]، ولكنه مات بعد عشر سنوات فى الرابعة والعشرين . وقد ترك هذا المنجم عند مونه (١٥٦٦) كتاب تنبوءات صاغها بحكمة بحيث تحتمل معنيين . وبحيث يمكن أن تصدق بعض سطور الكتاب على أى حدث تقريباً فى التاريخ اللاحق .

كان مسيحيو القرن السادس عشر يؤمنون بامكان نيل قوى خارقة من الشياطين ، وكان الخوف من الشياطين يغرس فيهم منذ نعومة أظفارهم . لذلك شعروا بأنهم ملتزمون بحرق الساحرات . وأيد لوثر وكالفن البابا إنوسنت الثامن فى الحث على محاكمتهن . يقول لوثر « إنى لأرفض العطف على هؤلاء الساحرات ، وبودى لو أحرقتهن على بكرة أبيهن »[١٤] . وقد أحرق أربعة منهن فى فتنبرج فى ١٩ يونيو ١٥٤٠ . وأربعة وثلاثون فى جنيف عام ١٥٤٥[١٥] . وكان لدى دعاة الإصلاح البروتستنتى بطبيعة الحال مبرر من الكتاب المقدس لهذا الحرق . وأضاف استناد البروتستنتية إلى الكتاب إلحاحاً جديداً على اتباع ما ورد فى الآية الثالثة عشرة من الإصحاح الثانى والعشرين من سفر الخروج . وشجعت عادة إخراج الشياطين الكاثوليكية الإيمان بالسحر . لأنها افترضت أن قوة الشياطين تسكن فى البشر . وزعم لوثر أن خصمه الليبزجى يوهان إيك قد وقع ميثاقاً مع الشيطان . ورد يوهان كوخلايوس بأن لوثر نتاج جانبى لعبث الشيطان مع مارجريت لوثر[١٦] .

وكان الناس يلجأون أحياناً إلى اتهام أعدائهم بالسحر للتخلص منهم . وكان للمتهمة الخيار فى أن يوقع بها تعذيب طويل الأمد لاستخلاص اعتراف منها . أو أن تموت نتيجة للاعتراف . وقد نظم تعذيب المتهمين بالسحر فى أوربة القرن السادس عشر « بوحشية

هادثة لم تعهد . . . فى الأمم الوثنية »[١٧] . ويبدو أن كثيراً من الضحايا آمن بذنبهن — بأن لهن مع الشياطين معاملات وصلات ، جنسية أحياناً[١٨] . وكان بعض المتهمات ينتحرن ، وقد دون قاض فرنسى خمس عشرة حالة انتحار فى سنة واحدة[١٩] . وكثيراً ما بز القضاة العلمانيون رجال الكنيسة فى التحمس لهذا الاضطهاد . وقد نصت قوانين هنرى الثامن (١٥٤١) على عقوبة الإعدام لأى من عدة أفعال نسبت إلى الساحرات[٢٠] . ولكن محكمة التفتيش الأسبانية دمغت قصص السحر والاعترافات بالسحر بأنها أوهام العقول الضعيفة ، ونبهت مندوبيها (١٥٣٨) إلى تجاهل طلب الجماهير لحرق الساحرات[٢١] .

كانت الأصوات التى ارتفعت لحماية الساحرات أقل من تلك التى ارتفعت للدفاع عن المهرطقين . وكان المهرطقون أنفسهم يؤمنون بالساحرات . ولكن حدث فى عام ١٥٦٣ أن أصدر طبيب فى كليفز يدعى يوهان فير بحثاً سماه « فى الخدع الشيطانية » جرؤ فى استحياء وتردد على التخفيف من هذا الجنون . ولم يتشكك الطبيب فى وجود الشياطين ، ولكنه ألمع إلى أن الساحرات هن الضحايا الأبرياء لمس الشياطين ، وأن الشيطان يخدعهن ليصدقن السخافات التى يعترفن بها : وفى رأيه أن النساء والأشخاص المصابين بعلة فى البدن أو العقل يتعرضون أكثر من غيرهم لمس الشياطين . وخلص من هذا إلى أن السحر ليس جريمة بل هو مرض ، ثم ناشد ملوك وأمراء أوربا أن يقفوا إعدام هؤلاء النسوة العاجزات . وبعد بضع سنوات عدل فير وضعه ليتلاءم مع جيله . فكتب وصفاً مفصلا للجحيم وزبانيتها ، ونظامها ، وعملها .

وعبرت روح العصر عن ذاتها فى قصة فاوست . وأول سماعنا بجيورج فاوست كان فى خطاب كتبه يوهان تريتيميوس عام ١٥٠٧ ،

وهو يصفه بالمشعوذ ، ثم فى ١٥١٣ إذ يذكره موتيانوس روفوس بوصف ليس بأرق من هذا . وقد كتب فيليب بيجاردى، أحد أطباء فورمز فى ١٥٣٩ يقول : « فى السنوات الأخيرة كان رجل عجيب يجوب كل إقليم وإمارة ومملكة تقريباً . . . ويفاخر ببراعته الفائقة لا فى الطب فحسب بل فى قراءة الكف ، والفراسة،والعرافة بالتحديق فى الكرة البللورية، وما شابه ذلك من فنون . . . ولم ينكر أن اسمه فاوستوس »[٢٢](ومعناه المحظوظ) . ويبدو أن فاوست التاريخى مات فى ١٥٣٩ — ويقول ملانكتون إن الشيطان لوى عنقه . وبعد موته بأربع سنوات ظهرت أسطورة فاوست حليف الشيطان فى كتاب « عظات مرحة » بقلم قسيس بروتستنتى فى بال يدعى يوهان جاست . وقد تضافرت فكرتان قديمتان على تحويل الدجال التاريخى إلى شخصية بارزة أو علم سواء فى الأسطورة والمسرحية والفن : أولاهما أن الإنسان قد يكتسب قدرات سحرية بتحالفه الوثيق مع الشيطان ، والأخرى أن العلم اللادينى إنما هو غرور وقح قد يودى بصاحبه إلى الجحيم. وفى فترة ظن الناس أن الأسطورة كاريكاتور كاثوليكى يسخر من لوثر ، ولكن نظرة أعمق للأسطورة رأت أنها تعبير عن استنكار الدين للعلم « الدنيوى » الذى يناقض تقبل الكتاب المقدس فى تواضع ، لأن فيه الكفاية من العلم والحقيقة . أما جوته فقد استنكر هذا الاستنكار ، وسمح لتعطش الإنسان للعلم بأن يطهر ذاته باستخدامه للصالح العام .

وتجسدت أسطورة فاوست تجسداً مراً فى شخص هنرى كورنيليوس أجريبا : وقد ولد من أسرة طيبة بكولونيا (١٥٤٧) ثم شق طريقه إلى باريس ، وهناك التقى مصادفة بنفر من المتصوفة أو الدجاجلة الذين ادعوا الحكمة الخفية . وإذ كان متعطشاً للمعرفة والشهرة ، فقد احترف الكيمياء القديمة ، ودرس القبلانية ، واقتنع بأن هناك

عالماً من الاستنارة بعيد المنال على الإدراك أو التفكير العادى. وأرسل إلى الناشر تريتميوس مخطوطاً فى فلسفة السحر . **De occulta philosophia** مشفوعاً بالخطاب الشخصى التالى :—

« لقد أخذنى العجب الشديد ، لا بل السخط ، لأن أحداً لم ينبر إلى اليوم ليبرئ دراسة فى مثل هذا السمو والقدسية من تهمة الضلال . وهكذا استثيرت روحى . . . وشعرت أنا أيضاً بالرغبة فى التفلسف ، معتقداً أنى سأخرج كتاباً يستحق الثناء . . . إذا استطعت أن أدافع عن . . . ذلك السحر القديم ، الذى درسه جميع الحكماء ، مطهراً ومنقى من عيوب الضلال ، ومزوداً بنسقه المعقول » [٢٣].

ورد عليه تريتميوس مسدياً إليه هذا النصح الجميل . « تكلم على الأشياء العامة للعامة ، ولا تتكلم على الأشياء السامية والخفية إلا لأسمى وأخص أصحابك . إن الثور يطعم الدريس، والببغاء يطعم السكر : ففسر هذا القول تفسيراً صحيحاً وإلا أصابك ما أصاب غيرك وداستك الثيران »[٢٤] .

وسواء أكان الدافع لأجريبا هو الحذر أم الافتقار إلى ناشر ، فانه أمسك عشرين عاماً عن دفع كتابه إلى المطبعة . ودعاه الإمبراطور مكسمليان للقتال فى إيطاليا ، فأبلى فى المعركة بلاء حسناً ، ولكنه انتهز الفرصة ليحاضر عن أفلاطون فى جامعة بيزا ، ولينال درجات فى القانون والطب من بافيا . ثم عين محامى مدينة فى ميتز (١٥١٨) ، ولكن سرعان ما فقد ذلك المنصب نتيجة تدخله فى محاكمة شابة متهمة بالسحر ، وقد حصل على أمر باطلاق سراحها من محكمة التفتيش، ولكنه رأى من الحكمة بعد ذلك أن يغير موطنه (١٥١٩) . وأنفق عامين طبيباً للويز أميرة سافوا ، غير أنه تورط فى خلافات كثيرة حملتها على قطع راتبه . فانتقل إلى أنتورب مع زوجته الثانية

وأبنائه ، وعيّن مؤرخاً رسمياً وأمين مكتبة لبلاط مرجريت الوصية على عرش النمسا ، ووفق فى كسب قوته بطريقة منتظمة . وعكف الآن على تأليف أهم كتبه « فى عدم يقينية العلوم وغرورها » . وقد نشره عام ١٥٣٠ ، ثم نشر كتاب « فلسفة السحر » الذى ألفه فى شبابه — ونشره الآن مما يثير العجب ، وصدره بمقدمة تنصّل فيها من استمرار إيمانه بالتعاويذ والمعميات الصوفية المفصلة فيه . وتأذى الراسخون فى العلم من الكتابين جميعاً .

أما كتابه « فلسفة السحر » فقد أكد أن « روح الكون » تسود العالم وتحكمه كما أن روح الإنسان تسود الجسد وتحكمه ، وأن هذا المستودع العظيم لقوة الروح يمكن أن يستمد منه العقل إذا طهر خلقياً ودرب فى صبر على الأساليب المجوسية . ومتى اكتسب العقل هذه القوة ، استطاع أن يكشف الخصائص الخفية للأشياء والأعداد والحروف والكلمات ، وأن ينفذ إلى أسرار النجوم ، وأن يسيطر على قوى الأرض وشياطين الهواء . وراج الكتاب رواجاً كبيراً ، وأفضى تعدد طبعاته بعد موت أجريبا إلى قصص أسطورية حول تحالفه الوثيق مع شيطان كان يرافقه متنكراً فى صورة كلبه[٢٥] ، وتمكنه من الطيران فوق الكرة الأرضية والنوم فى القمر[٢٦] .

وقد خففت صروف الدهر من مزاعم أجريبا عن التجربة التى ترقى فوق الحس ، فتعلم أنه ليس فى مقدور أى سحر أو كيمياء (قديمة) إطعام أسرته أو حمايته من السجن بسبب الدين . وانقلب فى خيبة أمل غاضبة على البحث عن المعرفة ، فكتب فى عامه التاسع والثلاثين أكثر كتب القرن السادس عشر تشككاً قبل مونتينى « فى عدم يقينية العلوم وغرورها » . وقال فى تصديره للكتاب « إننى أدرك جيداً أى معركة دامية على أن أخوضها . . . أولا سيثير النحويون القدرون

ضجة ، وكذلك . . . الشعراء المتبرمون ، والمؤرخون الكاسدة بضاعتهم ، والخطباء المتفيهقون ، والمناطقة العنيدون . . . والمنجمون المنحوسون ، والسحرة البشعون . . . والفلاسفة المجادلون» . فالمعرفة كلها غير يقينية ، والعلم كله عبث ، و «أسعد الناس من لا يعرف شيئاً» . المعرفة هي التي قضت على سعادة آدم وحواء ، واعتراف سقراط بالجهل هو الذى أكسبه القناعة والشهرة : «ليست العلوم كلها إلا قوانين الناس وآراءهم ، وهي تستوى ضرراً ونفعاً ، وأذى وفائدة ، وشراً وخيراً ، هي بعيدة كل البعد عن الكمال ، مشكوك فيها ، حافلة بالخطأ والخلاف»(٢٧) .

ويبدأ أجريبا هجومه المدمر بالأبجدية ، فيأخذ عليها تناقضات النطق المحيرة . ويسخر من النحويين الذين تفوق شواذهم قواعدهم ، والذين تتغلب عليهم أصوات الشعب المرة بعد المرة . أما الشعراء فمجانين ، فما من إنسان «مالك لصوابه» يستطيع أن يكتب شعراً . والتاريخ أكثره حديث خرافة . لا «خرافة متواضع عليها» ، كما سيصفه فولتير خطأ ، بل خرافة دائمة التبديل ، يغيرها كل مؤرخ وجيل من جديد . أما الخطابة فهي إفساد البلاغة للعقول . وأما السحر فخدعة ، وينبه أجريبا قراءه الآن إلى أن كتابه في السحر كان «زائفاً ، أو كاذباً إن شئتم» . وإذا كان قد مارس في ماضيه التنجيم والسحر والعرافة والكيمياء القديمة وغيرها من «الجهالات» فانما كان أكثر ذلك استجابة لفرط إلحاح مشجعيه القادرين على إجزال العطاء له في طلب المعرفة السرية . أما القبلانية فما هي إلا «عقيدة خرافية وبيلة» . وأما الفلاسفة فان اختلاف آرائهم اختلافاً يبطلها كفيل بابقائهم خارج هذه المحكمة ، فلنتركهم إذن يدحضون آراء بعضهم بعضاً . وما دامت الفلسفة تسعى إلى استنباط الفضيلة من العقل ، فسيحبطها

التناقض اللاعقلى للأخلاق فى الزمان والمكان ، « إذ يحدث من جراء هذا التناقض أن ما كان فى زمن ما رذيلة ، يعد فى زمن آخر فضيلة ، وما هو فى مكان ما فضيلة ، هو رذيلة فى مكان آخر » . أما الفنون والمهن فقد أفسدها كما أفسد العلوم الكذب والغرور . وكل بلاط « مدرسة للعادات الفاسدة ، ومأوى للشر الكريه » . والتجارة غدر وخيانة . والأمناء على الأموال لصوص لصقت بأيديهم الفخاخ وفى أناملهم الخطاطيف . والحرب مذبحة للكثرة تلهو بها القلة . والطب « فن من فنون القتل الخطأ » وكثيراً ما يكون « فى الطبيب والدواء من الخطر ما يفوق خطر المرض نفسه » .

فما نتيجة هذا كله ؟ وإذا كان العلم هو الرأى العابر السريع الزوال ، والفلسفة هى التأمل المغرور فى طبيعة اللانهائى من عقول حقيرة كالديدان ، فبم يحيا الإنسان ؟ بكلمة الله وحدها معلنة فى الكتاب المقدس : وفى هذا الرأى رنين تبشيرى ، والواقع أننا نلتقى بتأكيدات عديدة لآراء أجريبا « الإنجيلية » مبعثرة وسط شكوكه . فهو يرفض سلطان البابوات الزمنى ، بل سلطانهم الروحى إذا خالف الكتاب المقدس . وهو يرى محكمة التفتيش بأنها لا تقنع الناس بالمنطق والكتب المقدسة بل « بالنار والحطب » ، وهو يود لو قل إنفاق الكنيسة على الكاتدرائيات وزاد على أعمال البر ، ولكنه يتجاوز رجال الإصلاح الدينى حين يعترف بأن كتاب العهدين القديم والجديد كانوا عرضة للخطأ . فالمسيح وحده هو المصيب والصادق دائماً ، وهو وحده الذى يجب أن نثق به ، وفيه الملاذ الأخير للعقل والروح :

وقد استمتع أجريبا بما أحدثته ثورته هذه من غضب ، ولكنه دفع ثمن هذه المتعة غالياً خلال ما بقى له من عمر . طالبه شارل الخامس

بسحب نقده للكنيسة ؛ فلما رفض قطع راتبه . ولما سجن بسبب دينه ألقى التبعة على الإمبراطور لتخلفه فى دفع راتب مؤرخ بلاطه الرسمى . وأطلق سراحه بشفاعة الكردينال كامبيجيو وأسقف لييج . ولكن شارل نفاه من إمبراطوريته (١٥٣١) . وانتقل أجريبا إلى ليون حيث سجن ثانية بسبب الدين كما تقول رواية غير مؤكدة ؛ ولما أفرج عنه انتقل إلى جرينوبل . وهناك مات بالغاً من العمر ثمانية وأربعين عاماً . ولعل له بعض الفضل فى تكوين نزعة مونتينى الشكاكة . ولكن كتابه الرائج الوحيد كان فى السحر الذى تنكر له. وظلت الأفكار والعادات المتصلة بالسحر مزدهرة إلى نهاية القرن ؛

٢ — الثورة الكوبرنيقية

كان للخطوات التى خطتها العلوم الرياضية ، والتى تبدو لنا اليوم تافهة ، الفضل فى شحذ أدوات الحساب فى العصر الذى نحن بصدده . فأدخل كتاب مايكل ستايفل **Arithmetica integra** (١٥٤٤) علامات الزائد والناقص ، وكان كتاب روبرت ريكورد **Whetstone of Wit** (١٥٥٧) أول الكتب المطبوعة التى استعملت علامة « يساوى ». أما كتب الحساب التى ألفها آدم ريزى ، والتى كانت فى زمانها ذائعة الصيت ، فقد أقنعت ألمانيا بالانتقال من الحساب بالفيشات إلى الحساب التحريرى ؛ ونشر يوهان فرنر (١٥٢٢) أول بحث حديث عن الخاريط ، وواصل جيورج ريتيكوس عمل ريجيومونتانوس فى حساب المثلثات ، فضلا عن أنه ساعد كوبرنيق على نشر نظريته .

أما الفلك فقد أتيح له من الحسابات خير مما أتيح من الآلات . وعلى أساس هذه الحسابات تنبأ بعض المنجمين بطوفان ثان يقع فى

« فبراير ١٥٢٤ » حين يلتقى المشترى وزحل فى برج الحوت ، مما حمل مدينة تولوز على بناء فلك للاحتماء به ، والأسر الشديدة الحيطة على خزن الطعام فى قمم الجبال[٢٨] . وكان أكثر الآلات الفلكية من مخلفات العصر الوسيط : كرات سماوية وأرضية ، وعصا يعقوب ، واسطرلاب ، وكرة ذات حَلَق ، وربعيات واسطوانات ، وساعات كبيرة ، وبوصلات ، وعدة أدوات أخرى ليس من بينها التلسكوب ولا الفوتوغرافيا : بهذا الجهاز استطاع كوبرنيق أن يزلزل الدنيا .

وميكولاى كوبرنيك هذا كما تدعوه بولنده ، أو نيكلاس كوبرنيج كما تدعوه ألمانيا ، أو نيكولاوس كوبرنيكوس كما يدعوه العلماء ، ولد فى ١٤٧٣ بمدينة تورن على نهر فستولا فى بروسيا الغربية ، وكان الفرسان التيوتون قد نزلوا عنها لبولندة قبل ذلك بسبع سنوات : وأمه من أسرة بروسية غنية ، أما أبوه فقدم من كراكاو وأقام فى تورن واشتغل بتجارة النحاس : ولما مات الأب (١٤٨٣) كفل أبناءه شقيق الأم ، لوكاس فاتزيلرودى ، أسقف إيرملاند وأميرها : وأرسل نيكولاس إلى جامعة كراكاو حين بلغ الثامنة عشرة ليعد نفسه للقسوسية . على أنه اقنع خاله بأن يسمح له بالدراسة فى إيطاليا لأنه لم يحب الفلسفة الكلامية التى حظرت الدراسات الإنسانية . فعين بنفوذ خاله كاهنا (*) فى كاتدرائية فراونبورج ببروسيا الشرقية البولندية ، ثم منحه أجازة ثلاث سنوات .

وفى جامعة بولونيا (١٤٩٧ — ١٥٠٠) درس كوبرنيق الرياضيات ، والفزياء ، والفلك . وكان من بين معلميه أستاذ اسمه دومنيكو دى

(*) « canon » من هيئة كهان الكاتدرائية ، وليس من الضرورى أن يكون قسيسا . وليس لدينا دليل واضح على أن كوبرنيق ارتقى من الرتب الدينية الصغرى إلى القسوسية قبل عمره الأخيرة . وفى ١٥٢٧ زكى لشغل وظيفة الأسقفية ، مما يشير إلى أنه كان وقتها قسيسا . [٢٩]

نوفارا ، تتلمذ من قبل على ريجيو مونتانوس ، وانتقد ما فى نظرية الفلكى بطلميوس من تعقيد سخيف ، وعرف تلاميذه بقدامى الفلكيين اليونان الذين تشككوا فى ثبات الأرض ووضعها المركزى . فقد كان من رأى فيلولاوس البيثاجورى ، الذى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد ، أن الأرض وسائر الكواكب تدور حول هستيا ، وهى نار مركزية لا نراها لأن كل أجزاء الأرض المعروفة تحول بعيداً عنها . وقد روى شيشرون أن هيكيتاس السيراكيوزى ، وهو من فلكيي القرن الخامس ق.م. أيضاً ، كان يعتقد أن الشمس والقمر والنجوم ثابتة ، وأن حركتها الظاهرية مرجعها دوران الأرض حول محورها . وذكر أرخميدس وبلوتارخ أن أريستارخوس الساموسى (٣١٠ — ٢٣٠ ق.م.) رأى أن الأرض تدور حول الشمس ، وأنه اتهم بالضلال ، وأنه عدل عن رأيه . ويقول بلوتارخ أن سلوقس البابلى أحيا الفكرة فى القرن الثانى قبل الميلاد. وكان من الجائز أن ينتصر هذا القول بوضع الشمس المركزى فى العصور القديمة ، لولا أن كلوديوس بطلميوس الإسكندرى أكد من جديد، فى القرن الثانى بعد الميلاد ، نظرية وضع الأرض المركزى ، وأكدها بقوة وعلم كبيرين بحيث قلّ من جرؤ بعده على تحديها . وكان بطلميوس نفسه قد قرر أن على العلم وهو يحاول شرح الظواهر الطبيعية أن يتبنى أبسط ما يمكن من فروض متفقة مع المشاهدات المسلم بها . ومع ذلك فان بطلميوس ، كهيبارخوس من قبله ، حين أراد تفسير حركة الكواكب الظاهرية ، اضطرته نظرية وضع الأرض المركزى إلى افتراض مجموعات معقدة تعقيداً محيراً من الدوائر الصغيرة (epicycles)

والدوائر مختلفة المركز (eccentrics)(*) : فهل من سبيل إلى فرض أبسط ؟ وجاء نيكولى أوريسمى (١٣٣٠ — ٨٢) ونيكولاس الكوزاوى (١٤٠١ — ٦٤) فجددا فكرة دوران الأرض ، وكتب ليوناردو دافنشى (١٤٥٢ — ١٥١٩) قبيل ذلك يقول : « إن الشمس لا تتحرك . . . وليست الأرض فى مركز دائرة الشمس ، ولا هى فى مركز الكون »(٣٠) .

وأحس كوبرنيق أن نظرية مركزية الشمس تستطيع أن « تنقذ المظاهر » — بشرحها الظواهر الطبيعية المشاهدة — بإحكام أشد من الرأى البطلمى . ففى سنة ١٥٠٠ ذهب إلى روما وقد بلغ السابعة والعشرين ، ربما لحضور اليوبيل ، وألقى هناك محاضرات تقول رواية إنه شرح فيها نظرية دوران الأرض على سبيل التجربة . وكانت أجازته قد انتهت ، فعاد للقيام بواجباته الدينية كاهناً فى فراونبورج . ولكن رياضيات مركزية الأرض كانت تشوش صلواته . فطلب الإذن باستئناف دراساته فى إيطاليا ، مقترحاً الآن أن يدرس الطب والقانون الكنسى — وهو ما بدا لرؤسائه أدخل فى مهنته من الفلك . وقبل ختام القرن الخامس عشر كان قد عاد إلى إيطاليا . ونال درجة القانون فى فرارا (١٥٠٣) ، ولم ينل درجة فى الطب فيما يبدو ، ثم ارتضى الرجوع ثانية إلى فراونبورج : وما لبث خاله أن عينه سكرتيراً وطبيباً (١٥٠٦) ، ربما ليتيح له متسعاً من الوقت للاستزادة من الدرس . وعاش كوبرنيق ست سنوات فى قلعة الأسقفية بهايلسبرج وهناك وضع الرياضيات الأساسية لنظريته ، ثم دونها فى مخطوط .

فلما مات الأسقف الكريم عاد كوبرنيق إلى مكانه فى فراونبورج . وواصل ممارسة الطب ، وكان يعالج الفقراء مجاناً(٣١). وقد مثل كهنة

(*) الـ epicycle دائرة مركزها محمول على محيط دائرة أكبر منها ، أما الـ eccentric فدائرة ليس لها نفس المركز الذى لدائرة أخرى محتواة إلى حد ما فى داخلها .

الكاتدرائية فى مهام دبلوماسية وأعد لسجسموند الأول ملك بولنده خطة لإصلاح العملة البولندية. وفى مقال من مقالاته الكثيرة عن المالية ذكر هذه العبارة التى عرفت فيما بعد بقانون جريشام : العملة الرديئة . . . تطرد العملة القديمة الأحسن منها[٣٢]. وهو يعنى أنه إذا أصدرت حكومة ما عملة منحطة اختُزنت العملة الجيدة أو صدرت وامتنع تداولها، ودفعت الضرائب بالعملة الرديئة ، و « نقد الملك من عملته » . بيد أن كوبرنيق واصل أبحاثه الفلكية وسط هذه الشواغل المتنوعة. ولم يكن وضعه الجغرافى مواتياً لأبحاثه هذه . ففراونبورج قريبة من البلطى . يلفها الضباب أو السحاب نصف الوقت . وكان يحسد كلوديوس بطلميوس ، الذى كانت « سماؤه أبهج ، حيث لاينفث النيل الضباب الذى ينفثه نهر نافستولا . لقد حرمتنا الطبيعة تلك الراحة وذلك الهواء الهادئ»[٣٣] . لا عجب إذن أن يعبد كوبرنيق الشمس أو يكاد . ولم تكن أرصاده الفلكية كثيرة ولا دقيقة ؛ ولكنها لم تكن ذات أهمية حيوية لهدفه . وكان فى أغلب أحيانه ينتفع بالبيانات الفلكية التى خلفها له بطلميوس . واعتزم أن يثبت أن كل ما وصل إليه من مشاهدات يتفق خير اتفاق مع نظرية مركزية الشمس .

وحوالى عام ١٥١٤ لخص ما انتهى إليه من استنتجات فى « تعقيب موجز » . ولم يطبع الكتاب فى حياته . ولكنه وزع بعض نسخ مخطوطة على سبيل جس النبض . وقد قرر فيه استنتاجاته ببساطة واقعية ، وكأنها لم تكن أعظم ثورة فى التاريخ المسيحى . قال :

١ — ليس هناك مركز واحد لجميع الكرات السماوية .

٢ — إن مركز الأرض ليس مركز الكون ، بل هو نقطة مركز الجاذبية والكره القمرية .

٣ — كل الكرات (الكواكب) تدور حول الشمس بوصفها نقطتها الوسطى ؛ وإذن فالشمس مركز الكون .

٤ — نسبة المسافة بين الأرض والشمس إلى ارتفاع قبة السماء أصغر بكثير من نسبة نصف قطر الأرض إلى بعدها عن الشمس بحيث أن المسافة من الأرض إلى الشمس لاتدرك لضآلتها بالقياس إلى ارتفاع قبة السماء ؟

٥ — إن الحركة التي تظهر في قبة السماء لا تنشأ عن أي حركة في قبة السماء بل عن تحرك الأرض . والأرض هي وعناصرها المحيطة بها تدور دورة كاملة حول قطبيها الثابتين في حركة يومية ، في حين تظل القبة الزرقاء والسماوات العليا ثابته لا تتغير .

٦ — إن ما يبدو لنا حركات للشمس لا ينشأ عن تحركها بل عن تحرك كوكبنا الأرضي ، الذي يجعلنا ندور حول الشمس كأي كوكب آخر .

٧ — أن ما يبدو من تراجع الكواكب وحركتها المباشرة لا ينشأ عن حركتها بل عن حركة الأرض . إذن فحركة الأرض وحدها تكفي لتفسير الكثير من المفارقات البادية في السماوات[٣٤] ؛

ولم يلق الفلكيون القلائل الذين قرأوا كتاب التعقيب كبير بال إليه . وأبدى البابا ليو العاشر اهتماما لا تحيز فيه بالنظرية حين أحيط بها علماً وطلب إلى أحد الكرادلة أن يكتب إلى كوبرنيق طالباً إيضاح فكرته . وحظي الفرض برضى كبير في البلاط البابوي المستنير دام بعض الوقت[٣٥] . أما لوثر فقد رفض النظرية حوالي عام ١٥٣٠ قائلا : « إن الناس يستمعون إلى منجم محدث حاول التدليل على أن الأرض تدور ، لا السماوات ولا القبة الزرقاء ، ولا الشمس ولا القمر . . . فهذا الأحمق يريد أن يقلب نظام الفلك كله رأساً على عقب . ولكن الكتاب المقدس ينبئنا بأن يشوع أمر الشمس لا الأرض أن تقف »[٣٦] . وأما كالفن فقد أجاب كوبرنيق بآية من المزمور الثالث والتسعين « أيضاً تثبتت المسكونة . لا تتزعزع » ثم تساءل : « فمن يجرؤ على ترجيح شهادة

كوبرنيق على شهادة الروح القدس ؟[٣٧] » . هذه الاستجابة لكتاب « التعقيب » فتت فى عضد كوبرنيق حتى أنه بعد أن أكمل كتابه الكبير حوالى عام ١٥٣٠ قرر أن يحبسه عن النشر . وواصل القيام بواجباته فى هدوء ، وحاول الاشتغال قليلا بالسياسة ، وفى ستيناته اتهم بأن له خليلة[٣٨] :

ولكن فى عام ١٥٣٩ اندفع إلى قلب هذه الشيخوخة المستسلمة رياضى شاب متحمس يدعى جيورج ريتيكوس . كان فتى فى الخامسة والعشرين ، بروتستنتياً ، يحظى برعاية ملانكتون ، ويعمل أستاذاً فى جامعة فتنبرج . وكان قد قرأ « التعقيب » واقتنع بصدقه وتاقت نفسه لمساعدة الفلكى العجوز الذى كان يعيش بعيداً فى بلدة مغمورة على البلطى كأنها مخفر أمامى على حدود الحضارة ، منتظراً فى صبر أن يرى الآخرون معه دورة الأرض غير المرئية حول نفسها وحول الشمس . وأحب الفتى كوبرنيق حباً جماً ، ووصفه بأنه «خير الرجال وأعظمهم » وتأثر تأثراً عميقاً باخلاصه للعلم . وظل ريتيكوس عشرة أسابيع مكباً على دراسة المخطوط الكبير . ثم حث كوبرنيق على نشره ، ولكنه أبى ، غير أنه وافق على أن يقوم ريتيكوس بنشر تحليل مبسط لفصوله الأربعة الأولى . وعليه فقد أصدر العالم الشاب فى عام ١٥٤٠ ، فى مدينة دانتزج ، كتابه « أول تقرير عن كتاب دورات الأجرام السماوية» . وأرسل نسخة منه إلى ملانكتون والأمل يراوده ، ولكن اللاهوتى الكريم لم يقتنع . ولما عاد ريتيكوس إلى فتنبرج (فى مطلع ١٥٤٠) وأثنى على نظرية كوبرنيق فى فصله ، « أمر »— كما روى— أن يحاضر بدلا من ذلك عن كتاب يوهان دى ساكروبوسكو Sphaera [٣٩] . وفى ١٦ أكتوبر ١٥٤١ كتب ملانكتون إلى صديق له يقول : « يظن البعض أن من الإنجازات البارزة أن يؤلف

إنسان نظرية مجنونة كذلك الفلكي البروسي الذى يحرك الأرض ويثبت الشمس . حقاً إن واجب الحكام العقلاء أن يروضوا من جموح العقول »(٤٠).

وفى صيف عام ١٥٤٠ عاد ريتيكوس إلى فراونبورج ومكث بها حتى سبتمبر ١٥٤١ . ورجا أستاذه المرة بعد المرة أن ينشر على العالم مخطوطه . فلما انضم إليه فى هذا الرجاء رجلان بارزان من رجال الدين ، استجاب كوبرنيق ، ربما لاطمئنانه إلى أنه يضع الآن إحدى قدميه فى القبر . وأدخل على المخطوط إضافات نهائية ، ثم أذن لريتيكوس أن يبعث به إلى ناشر فى نورمبرج تكفل بجميع النفقات والتبعات (١٥٤٢) . وإذ كان ريتيكوس قد رحل عن فتنبرج ليدرس فى ليبزج فقد وكل إلى صديقه أندرياس أوزياندر ، وكان قسيساً لوثرياً فى نورمبرج ، مهمة الإشراف على طبع الكتاب .

كان أوزياندر قد كتب إلى كوبرنيق (٢٠ أكتوبر ١٥٤١) مقترحاً تقديم الرأى الجديد على أنه فرض لا حقيقة ثابتة ، وذكر فى خطاب بنفس التاريخ أرسله إلى ريتيكوس أنه بهذه الطريقة «سيهدىء الأرسططاليون واللاهوتيون من روعهم فى غير مشقة»(٤١) . وكان كوبرنيق نفسه قد وصف نظرياته غير مرة بأنها فروض . لا فى تعقيبه الموجز فحسب ، بل فى كتابه المطول(٤٢) ، وفى الوقت ذاته زعم فى الاهداء أنه دعم آراءه « بأعظم الأدلة وضوحاً » . ولا علم لنا بم ردّ على أوزياندر . على أية حال قدم أوزياندر للكتاب على النحو التالى دون أن يوقع باسمه :

« إلى القارئ ، حول فروض هذا الكتاب .

نظراً إلى ما ذاع من سمعة هذه الفروض الجديدة ، فان علماء كثيرين ستصدمهم ولا ريب نظريات هذا الكتاب صدمة قوية . . . على أن . . . فروض الأستاذ ليست بالضرورة صحيحة ، ولا حتى

مرجحة . ويكفى جداً أن تؤدى إلى حساب يتفق والمشاهدات الفلكية . . . وسيبادر الفلكى باتباع أسهل الفروض فهماً . أما الفيلسوف فربما طالب بترجيح أكثر ، ولكن لا هذا ولا ذاك سيستطيع اكتشاف أى شيء يقينى . . . ما لم يكشف له عنه بالوحى الإلهى. فلنسلم إذن بأن الفروض الجديدة التالية ستتخذ لها مكاناً إلى جوار الفروض القديمة التى ليست أكثر منها رجحاناً . وعلاوة على ذلك فان هذه الفروض جديرة بالإعجاب وسهلة الفهم حقاً ، وفضلا عن هذا فاننا واجدون هنا كنزاً من المشاهدات الدالة على علم واسع . أما فيما عدا هذا فلا يتوقعن أحد من الفلك اليقينية فيما يتصل بالفروض . فهو لا يستطيع أن يعطى هذه اليقينية. ومن يأخذ كل شيء وضع لأغراض أخرى مأخذ الحقيقة سيترك هذا العلم فى أغلب الظن أجهل مما كان حين بدأ فيه »(٤٣) .

وكثيراً ما ندد الناس بهذه المقدمة باعتبارها عنصراً مقحماً وقحاً(٤٤). ولعل كوبرنيق قد استنكرها ، ذلك أن هذا الشيخ بعد أن عايش نظريته ثلاثين عاماً أصبح يشعر بأنها بضعة من حياته ودمه ، وبأنها وصف لحقائق الكون الفعلية . ولكن مقدمة أوزياندر كان فيها حصافة وإنصاف ، فقد خففت من المقاومة الطبيعية التى تقاوم بها عقول كثيرة فكرة مقلقة وثورية ، وهى ما زالت مذكراً طيباً لنا بأن أوصافنا للكون إن هى إلا آراء عرضة للخطأ صادرة من قطرات ماء عن البحر ، وأنها تحتمل هى الأخرى الرفض أو التصحيح .

وظهر الكتاب أخيراً فى ربيع ١٥٤٣ يحمل هذا العنوان : « الجزء الأول من كتاب نيكولاى كوبرنيكى عن الدورات » . وعرف الكتاب بعد ذلك بهذا الاسم : « فى دورات الأجرام السماوية » ، ووصلت إحدى نسخ الكتاب الأولى إلى يد كوبرنيق

فى ٢٤ مايو ١٥٤٣ . وكان على فراش الموت ، فقرأ صفحة العنوان، وابتسم ، ثم مات فى نفس الساعة .

وكان إهداء الكتاب إلى البابا بولس الثالث فى ذاته جهداً لنزع السلاح من يد المقاومة لنظرية تناقض حرفية الكتاب المقدس ، كما أيقن كوبرنيق، مناقضة صريحة . وقد بدأ بتأكيدات ورعة فقال : « ما زلت أومن أن علينا أن نتجنب النظريات البعيدة كل البعد عن سلامة العقيدة » . وذكر أنه تردد طويلا فى نشر الكتاب متسائلا « أليس الأفضل أن أحذو حذو الفيثاغوريين . . . الذين درجوا على توصيل أسرار الفلسفة بالفم لا بالكتابة ، ولأقربائهم وأصدقائهم دون سواهم » . ولكن رجلين من رجال الكنيسة المثقفين وهما نيقولا شونبرج كردينال كبوا ، وتيدمان جيزى أسقف كولم — كانا قد ألحا فى توصيته بنشر كشوفه . (وقد وجد كوبرنيق أن من الحكمة عدم ذكر اللوثرى ريتيكوس) . ثم اعترف بفضل الفلكيين اليونان عليه ، ولكنه فى زلة قلم أغفل اسم أرستارخوس . وقال إنه يعتقد أن الفلكيين فى حاجة إلى نظرية أفضل من النظرية البطلمية ، لأنهم يجدون الآن صعوبات كثيرة فى الرأى القائل بمركزية الأرض ، ولا يستطيعون على هذا الأساس أن يحسبوا طول السنة حساباً دقيقاً . ثم إنه لجأ إلى البابا بوصفه رجلا « عظيماً . . . فى محبته للعلوم جميعها حتى الرياضيات » : لكى يحميه من « لدغ المفترين » الذين سيدعون لأنفسهم الحق فى الحكم على هذه الأشياء . أو « سيهاجمون نظريتى محتجين بفقرة من الكتاب المقدس »(٤٥) ، وذلك دون إلمام كاف بالرياضيات .

ويبدأ العرض بهذه المسلمات ، أولا أن الكون كروى ، ثانياً : أن الأرض كروية — لأن المادة إذا تركت وشأنها تنجذب نحو مركز :

ومن ثم تكييف نفسها فى شكل كروى . ثالثاً ، أن حركات الأجرام السماوية حركات دائرية متماثلة ، أو مكونة من هذه الحركات — لأن الدائرة هى « أكثر الأشكال كمالا » ولأن « العقل يقشعر رعباً » من الفرض القائل بأن الحركات السماوية ليست متماثلة . (والصواب فى التفكير محال ما لم يكن هناك صواب فى سلوك موضوعات التفكير) .

ويلاحظ كوبرنيق نسبية الحركة : « كل تغيير يرى فى الوضع مرجعه الحركة سواء حركة المشاهد أو حركة الشيء الذى يشاهده ، أو مرجعه التغييرات الطارئة على وضع الاثنين بشرط أن يكونا مختلفين . لأنه إذا حركت الأشياء بنسبة متساوية إلى نفس الأشياء ، لم تلحظ أية حركة بين الشيء المرئى وبين المشاهد »[٤٦] . إذن فدوران الكواكب اليومى الظاهرى حول الأرض يمكن تعليله بدوران الأرض يومياً حول محورها ، وحركة الشمس السنوية الظاهرية حول الأرض يمكن تعليلها إذا افترضنا أن الأرض تدور سنوياً حول الشمس :

ويتوقع كوبرنيق الاعتراضات على نظريته . فقد زعم بطلميوس أن السحب والأجسام الموجودة على سطح أرض دائرة تتطاير بعيداً عنها وتُترك وراءها . ويرد كوبرنيق بأن هذا الاعتراض أحرى أن يعترض به على دوران الكواكب الكبرى حول الأرض ، لأن مسافاتها الشاسعة تعنى أن لها أجراماً هائلة وسرعات عظيمة . كذلك زعم بطلميوس أن الجسم المدفوع مباشرة إلى أعلى من أرض دائرة لا يعود فى سقوطه إلى نقطته الأصلية . ويرد كوبرنيق بأن هذه الأجسام ، شأنها شأن السحب ، هى « أجزاء من الأرض » وأنها تحمل معها فى سيرها . أما الاعتراض بأن دوران الأرض سنوياً حول الشمس لو صح « لتجلى فى تحرك النجوم « الثابتة » (وهى النجوم الواقعة وراء مجموعتنا الكوكبية) كما تشاهد فى طرفين

متقابلين لمدار الأرض ، فيرد عليه كوبرنيق بأن هذا التحرك موجود فعلا ، ولكن البعد الشاسع للنجوم (« القبة السماوية ») لا يتيح لنا رؤيته . (ويمكن اليوم رصد درجة معتدلة من هذه الحركة) .

ثم يجمل نظريته فى فقرة جامعة مانعة :

« أولا وقبل كل شيء هناك مجال النجوم الثابتة ، الذى يحتوى ذاته وكل الأشياء ، وهو لهذا السبب عينه ثابت : : : أما الأجسام المتحركة (الكواكب) فأولها زحل الذى يتم دورته فى ثلاثين سنة . ثم يأتى المشترى الذى يتمها فى اثنتى عشرة سنة ، ثم المريخ الذى يدور كل عامين . ويلى هذا فى الترتيب دورة رابعة تقع كل سنة . . . وهى تحتوى الأرض ومعها مدار القمر كدائرة صغيرة يدور مركزها على محيط دائرة أكبر . أما الكوكب الخامس فهو الزهرة التى تدور حول الشمس فى تسعة شهور . ثم يشغل عطارد المكان السادس ، وهو يدور دورته فى ثمانين يوماً . وفى وسط هذه الكواكب جميعها تقوم الشمس . . . ولم يخطىء البعض إذ وصفوها بمصباح الكون ، ووصفها غيرهم بعقل الكون ، وغيرهم بسيده الحاكم . . . والقول صواب لأن الشمس وهى متربعة على عرشها الملكى تحكم أسرة النجوم المحيطة بها . . . . وهكذا نجد بفضل هذا التنسيق تماثلا عجيباً فى الكون ، وعلاقة انسجام محددة فى حركة الأجرام السماوية وضخامتها وهى علاقة من نوع يستحيل تحقيقه بأى طريقة أخرى(*) »(٤٧) .

ويمكن القول بوجه عام إن أى تقدم يحرزه الإنسان فى نظرية ما يحمل معه الكثير من مخلفات النظرية القديمة المتروكة ، فقد أقام

(*) يفترض الفلك الحديث وجود تسعة كواكب وفترات دوران : عطارد (٨٨ يوما) ، والزهرة (٢٢٥) ، والأرض (٣٦٥ — ٦٦) ، والمريخ (٦٨٧) ، والمشترى (١١,٨٦ سنة) ، وزحل (٢٦,٤٦ سنة) وأورانوس (٨٤,٠٢ سنة) ، ونبتون (١٦٤,٧٩ سنة) ، وبلوتو (٢٤٨ سنة) .

كوبرنيق تصوراته على مشاهدات موروثة من بطلميوس ، واحتفظ بالكثير من تفاصيل الجهاز السماوى البطلمى ، كالدوائر ، والدوائر الصغيرة التى تدور مراكزها على محيط دائرة أكبر ، والدوائر المنحرفة عن المسار الدائرى ، أما رفض هذه التفاصيل فسوف يتم على يد كبلر . وكان أغرب الأشياء حساب كوبرنيق أن الشمس ليست بالضبط فى وسط مدار الأرض . فقد حسب أن مركز الكون « يبعد عن الشمس بمقدار ثلاثة أمثال قطر الشمس » ، وأن مراكز أفلاك السيارات هى كذلك خارج الشمس ، وأنها ليست واحدة على الإطلاق . وقد نقل كوبرنيق من الأرض إلى الشمس فكرتين يرفضهما العلم اليوم ، أولاهما : أن الشمس هى المركز التقريبى للكون ، والأخرى أنها ساكنة . وحسب أن الأرض ليست لها دورة حول محورها وأخرى حول فلكها فحسب ، بل حركة ثالثة ظنها ضرورية لتفسير ميل محور الأرض ومبادرة الاعتداليين .

وعلى ذلك يجب ألا نبتسم — ونحن ندرك الموقف بعد هذه القرون — سخرية من أولئك الذين تأخروا طويلا فى اعتناق نظرية كوبرنيق . ذلك أنه لم يطلب إليهم مجرد تصور الأرض وهى تدور وتندفع فى الفضاء بسرعة رهيبة على عكس ما تشهد به حواسهم شهادة مباشرة ، بل أكثر من ذلك أن يسلموا بعمليات حسابية تتوه فيها العقول ولا تقل فى تحييرها للأفهام عن حسابات بطلميوس إلا بقدر طفيف . ولم تبد النظرية الجديدة متفوقة على القديمة بصورة واضحة إلا بعد أن صاغ كبلر وجاليليو ونيوتن جهازها ليحقق بساطة ودقة أعظم ، وحتى بعد هذا يجب أن نقول عن الشمس تلك الكلمات التى ربما قالها جاليليو عن الأرض « ومع ذلك فهى تدور » . هذا وقد رفض تيكو براهى فرض مركزية الشمس بحجة أن كوبرنيق لم يرد على اعتراضات بطلميوس

رداً مقنعاً : وأعجب من هذا الرفض تلك السرعة النسبية التى قبل بها النظرية الجديدة فلكيون كريتيكوس ، وأوزياندر ، وجون فيلد ، وتومس ديجيز ، وإرزمس رينهولد — الذى بنى «جداوله البروتنية» (١٥٥١) للحركات السماوية على نظرية كوبرنيق إلى حد كبير . ولم تبد الكنيسة الكاثوليكية اعتراضاً على النظرية الجديدة ما دامت تعرض ذاتها على أنها فرض . ولكن محكمة التفتيش لم تعرف رحمة فى العقاب حين اعتبر جوردانو برونو الفرض حقيقة مؤكدة ، وبينت فى وضوح نتائجها على الدين . وفى ١٦١٦ حرمت « لجنة الفهرس » قراءة كتاب « الدورات » إلى أن يصحح . وفى ١٦٢٠ أذن للكاثوليك أن يقرءوا طبعات حذفت منها تسع عبارات تمثل النظرية على أنها حقيقة . ثم اختفى الكتاب من فهرس١٧٥٨ المراجع ، ولكن الحظرلم يلغ صراحة إلا فى ١٨٢٨ .

كانت نظرية مركزية الأرض تلائم بصورة معقولة لاهوتاً يفرض أن كل الأشياء خلقت لمنفعة البشر .أما الآن فقد شعر هؤلاء البشر أنهم يترنحون فوق كوكب صغير اختزل تاريخه إلى «مجرد فقرة محلية فى أخبار الكون » .(٨) فماذا يمكن أن تعنيه كلمة « السماء » إذا كانت كلمتا « فوق »و « تحت » قد فقدتا كل معنى لها . وإذا كانت إحداهما تنقلب فتصبح الأخرى فى نصف يوم ؟ كتب جيمس وولف إلى تيكو براهى فى ١٥٧٥ يقول : « ما من هجوم على المسيحية أشد خطراً من القول بضخامة السماوات وعمقها اللانهائيين »— مع أن كوبرنيق لم يقل بلانهائية الكون . فلا بد أن الناس حين توقفوا للتأمل فى المعانى التى تتضمنها النظرية الجديدة راحوا يتساءلون عن صواب القول بأن خالق هذا الكون الهائل المنظم قد أرسل إبنه ليموت على هذا الكوكب المتوسط الحجم . وبدا أن كل شعر المسيحية الجميل ،

« يتصاعد دخاناً » (كما قال جوته فيما بعد) تحت لمسة هذا الكاهن البولندى . وأجبر الفلك القائل بمركزية الشمس الناس على أن يتصوروا الخالق من جديد فى صورة أقل ضيقاً فى الأفق وأقل تجسداً . وواجه اللاهوت أقوى تحد فى تاريخ الدين . ومن ثم كانت الثورة الكوبرنيقية أشد عمقاً من حركة الإصلاح البروتستنتى ، فقد جعلت الفروق بين العقائد الكاثوليكية والبروتستنتية تبدو تافهة ؛ وتخطت حركة الإصلاح البروتستنتى إلى حركة التنوير ، من ارزمس ولوثر إلى فولتير ؛ وحتى إلى ما بعد فولتير ، إلى لاأدريه القرن التاسع عشر المتشائمة. هذا القرن الذى سيضيف الكارثة الداروينية إلى الكارثة الكوبرنيقية . ولم يكن هناك سوى واق واحد من أمثال هؤلاء الرجال؛ وهو أن قلة قليلة فقط فى أى جيل هى التى ستدرك ما ينطوى عليه فكرهم من معان . فسوف « تشرق » الشمس و« تغرب » حين يكون كوبرنيق قد طوى فى زوايا النسيان .

فى عام ١٥٨١ أقام الأسقف كرومر نصباً تذكارياً لكوبرنيق على السور الداخلى لكاتدرائية فراونبورج بجوار قبر الكاهن . وفى عام ١٧٤٦ أزيل النصب ليفسح مكاناً لتمثال للأسقف زمبلك. فمن هو هذا الأسقف ؟ من يدرى ؟ .

٣ — ماجلان وكشف الأرض

تقدم ارتياد الأرض بخطى أسرع من رسم خريطة السماء، وكان لهذا التقدم تقريباً نفس التأثيرات المزعجة على الدين والفلسفة. أما الجيولوجيا فكانت أقل من غيرها تقدماً . لأن نظرية الخلق كما وردت فى الكتاب المقدس أصبحت فى مأمن من الشك بفضل الإيمان بمصدرها الإلهى . قال المصلح الإيطالى — الإنجليزى بيتر مارتر فرميلى « لو شاع

بين الناس رأى خاطىء عن الخليقة كما وردت فى سفر التكوين لبطلت كل وعود المسيح وفقد ديننا حياته كلها » .(٤٩) وأهم كتب الجيولوجيا التى صدرت فى النصف الأول من القرن السادس عشر كتاب ألفه جورج أجريكولا (هذا فضلا عن آراء ليوناردو المبعثرة هنا وهناك) .
تأمل هذه الفقرة من كتابه De ortu et causis subterraneorum (بال ١٥٤٦) عن منشأ الجبال : « تتكون التلال والجبال بفعل قوتين ، إحداهما قوة المياه ، والأخرى قوة الرياح ، ويجب أن نضيف إليهما النار التى فى باطن الأرض . . . ذلك أن السيول تجرف أولا التربة اللينة ، ثم تحمل التربة الأكثر صلابة ، ثم تدحرج الصخور ، وهكذا تحفر السهول أو السفوح فى بضع سنوات و . . . ونتيجة لهذا الحفر فى عصور كثيرة يتكون مرتفع ضخم . . . هو الأنهار . . . والأنهار تحدث نفس النتيجة باندفاعها وجرفها ، ولذا كثيراً ما ترى جارية بين جبال شامخة كونتها هذه الأنهار ، أو بقرب الساحل الذى يحفها . . . وتكون الرياح تلالا وجبالا بطريقتين . . . إما بتحريك الرمال واثارتها بعنف ، وإما بكفاحها للخروج بقوة . . . . بعد أن تكون قد دفعت الى شقوق الأرض الخفية »(٥٠) .

أما كتاب أجريكولا De natura fossilium (١٥٤٦) فأول بحث منسق عن علم المعادن ، ويحتوى مقاله De metallica على أول بحث نسقى عن علم الطبقات ، وفيه كما رأينا أول تعليل للرواسب المعدنية .

أما الأثنوغرافيا (علم نشوء الأعراق) فقد أتحفتنا بكتابين كبيرين : أولهما Cosmographia universalis (١٥٤٤) ، لسباستيان مونستر ، وثانيهما Descriptio Africa (١٥٥٠) لليو الأفريقى Leo Africanus . كان الحسن بن محمد الوزان مسلماً من غرناطة ، وقد تنقل فى أرجاء أفريقيا ووصل جنوباً إلى السودان

يحدوه ولع شديد بالأسفار كولع ابن بطوطة. وقد أسره القراصنة المسيحيون وبعثوا به إلى روما هدية للبابا ليو العاشر الذى أعتقه ورتب له معاشاً بعد أن أعجب بما حصله من علم وثقافة. واستجاب لهذا العطف باعتناقه المسيحية واتخاذ « ليو » اسماً له . ثم أنفق الثلاثين السنة التالية فى تأليف كتابه هذا بالعربية أولا ثم بالإيطالية . وقبل الفراغ من طبعه الكتاب عاد إلى تونس ، وهناك مات عام ١٥٥٢ على دين آبائه فيما يبدو .(٥١)

وكان العصر مثيراً بالنسبة للجغرافيا. فقد جاءت الأنباء والتقارير تترى ، من المبشرين والفاتحين الأسبان والملاحين والرحالة ، مضيفة إضافات هائلة إلى معرفة أوربا بالكرة الأرضية. وكان الأسبان الذين فتحوا المكسيك وكاليفورنيا وأمريكا الوسطى وبيرو فى هذه الفترة مغامرين وطلاب ثراء أولا ، سئموا الفقر والحياة الرتيبة فى وطنهم ، واقتحموا المخاطر بلذة فى تلك الأقطار النائية الغريبة . وفى غمرة الشدائد التى عانوها فى مغامراتهم المستهترة نسوا قيود الحضارة ، واعتنقوا بصراحة أخلاقيات المدافع المتفوقة ، واقترفوا عملا من أعمال السطو والغدر والقتل لا يغتفر ، إلا أن يرى طرف ذو مصلحة أن نتيجته النهائية كانت كسباً للحضارة . ومع ذلك فما من شك فى أن المغلوبين كانوا فى ذلك الوقت أعظم تحضراً من الغالبين الفعليين . وحسبك أن تتأمل حضارة المايا التى وجدها هرنانديز القرطبى فى يوكاتان (١٥١٧) ، وإمبراطورية المونتزوميين الأزتيكية التى غزاها هرناندو كورتيز (١٥٢١) ، وحضارة الإنكا الاشتراكية التى دمرت إبان فتح فرانشسكو بيزارو لبيرو (١٥٢٦ — ٣٢) . ولا ندرى أى صور نبيلة أو خسيسة كانت هذه الحضارات متطورة إليها لو أتيح لها سلاح تدافع به عن نفسها .

ومضى الكشف الجغرافى المثير قدماً : فارتاد سبستيان كابوت تحت الراية الأسبانية الأرجنتين وأورجواى وبراجواى : واخترق دى سوتو فلوريدا وولايات الخليج حتى بلغ أوكلاهوما . واكتشف بدرو دى الفارادو إمبراطورية تكساس ، واخترق فرانشسكو دى كورونادو أريزونا وأوكلاهوما حتى بلغ كانزاس . وبدأت مناجم بوتوزى فى بوليفيا تبعث بفضتها إلى أسبانيا (١٥٤٥) ، وكانت خريطة العالم الجديد ترسم سنة بعد سنة بالذهب والفضة والدم . وتخلف الإنجليز والفرنسيون فى هذه القارة الكبرى لأن أرجاء أمريكا الشمالية التى تركها لهم الأسبان والبرتغال كانت فقيرة فى معادنها النفيسة ، وعرة فى غاباتها . وأبحر جون رت بحذاء ساحل نيوفوندلند ومين . وبعث فرانسوا الأول بجوفانى دا فيرانانو ليبحث عن مسلك شمالى غربى إلى آسيا ، فرسا على كارولينا الشمالية ، ودخل ميناء نيويورك (التى تذكره بتمثال عند بطاريتها) ، ودار حول رأس كود حتى وصل مين . وأبحر جاك كارتييه وهو يرفع علم فرنسا مصعداً فى السانت لورنس حتى بلغ مونتريال ، مدعماً بذلك دعوى فرنسا بحقها فى امتلاك كندا .

على أن أعظم المغامرات إثارة فى هذا الجيل الثانى من أجيال الارتياد فيما وراء المحيط هى الدوران حول الكرة الأرضية . كان فرناو دى ماجالايس برتغالياً قد شارك بنشاط فى كثير من الرحلات والغزوات البرتغالية . ولكنه انتقل إلى خدمة أسبانيا بعد أن غضبت عليه حكومته . وفى عام ١٥١٨ أقنع شارل الأول (الخامس) بأن يمول بعثة تبحث عن ممر جنوبى غربى إلى آسيا . ولم يكن الملك الشاب قد أصاب يومها ما أصاب من ثراء بعد هذا . لذلك كانت السفن الخمس التى أعطاها لماجلان عتيقه بالية حتى أن أحد القباطنة

حكم بعدم صلاحيتها للملاحة ، وكانت حمولة أكبرها ١٢٠ طناً ، وأصغرها ٧٥ طناً : وعاف الملاحون الخبيرون بالبحر التطوع بين بحارة هذه المراكب ، واقتضى الأمر اختيار معظم بحارتها من بين حثالة أهل الساحل : وفى ٢٠ سبتمبر ١٥١٩ أقلع الأسطول من نهر الوادى الكبير عند سان لوكار . وكان يتمتع بميزة الإبحار من الصيف فى الأطلنطى الشمالى إلى الصيف فى الأطلنطى الجنوبى ، ولكن الشتاء أدركه فى مارس ١٥٢٠ ، فألقت المراكب مراسيها ، وأنفق الملاحون خمسة شهور مملة فى بتاجونيا . أما الوطنيون العمالقة الذين زاد طول الواحد منهم فى المتوسط على ستة أقدام فقد أبدوا نحو الأسبان القصار القامة بالقياس لهم وداً فيه تلطف وتنازل ، ولكن كثرة المشاق واستمرارها حملا بحارة ثلاث من السفن الخمس على التمرد ، وأكره ماجلان على مقاتلة رجاله ليجبرهم على المضى فى هذه المغامرة . على أن سفينة منها تسللت عائدة إلى أسبانيا ، وتحطمت أخرى على حاجز صخرى . وفى أغسطس ١٥٢٠ استؤنفت الرحلة ، وكان ماجلان يستطلع كل خليج يمر به عسى أن يكون مصباً لطريق مائى وراء المحيط . وفى ٢٨ نوفمبر تكلل البحث بالنجاح ، ودخل الأسطول الذى تناقص عدد سفنه المضايق التى تحمل اسم ماجلان . وهكذا استغرقت رحلة ٣٢٠ ميلا من البحر إلى البحر ثلاثة وثمانين يوماً .

ثم بدأ الأسطول عبوراً كئيباً موحشاً للمحيط الهادى الذى لم تبد له نهاية . ولم يقع نظر الملاحين خلال ثمانية وتسعين يوماً إلا على جزيرتين صغيرتين . وتناقصت المؤن بشكل خطر ، وأصيب الملاحون بالإسكربوط . وفى ٦ مارس ١٥٢١ مست السفن ساحل جوام : ولكن عداء الوطنيين حمل ماجلان ورجاله على مواصلة الإبحار . وفى ٦ أبريل وصلوا إلى الفلبين ، وفى اليوم السابع رسوا على جزيرة

كيبو . ورغبة فى ضمان الحصول على المؤن من الجزيرة اتفق ماجلان مع الحاكم المحلى على أن يساعده فى حربه مع أعدائه المجاورين . فشارك فى حملة على جزيرة ماكتان ، وقتل فى المعركة التى دارت هناك فى ٢٧ أبريل ١٥٢١ . وهكذا لم يدر ماجلان حول الأرض ، ولكنه كان أول من حقق حلم كولومبس فى الوصول إلى آسيا بالإبحار غرباً(٥٢) .

كان عدد الملاحين قد هبط الآن بعد موت من مات منهم بحيث لم يكف إلا لتزويد سفينتين فقط بالرجال . أما إحدى السفينتين فقد قفلت عائدة عبر المحيط الهادى ، ربما سعياً وراء الذهب الأمريكى. ولم يبق من سفن الأسطول غير «فكتوريا» . واضطلع بقيادتها جوان سبستيان ديلكانو ، فقاد السفينة الصغيرة التى لم تزد حمولتها على خمسة وثمانين طناً مخترقاً جزر البهار ، عابراً المحيط الهندى ، دائراً حول رأس الرجاء الصالح ، مصعداً فى ساحل أفريقيا الغربى . وأرسى الملاحون السفينة تجاه إحدى جزر الرأس الأخضر وهم يتحرقون شوقاً للزاد والمئونة ، ولكن البرتغاليين هاجموهم ، وأودع السجن نصفهم . وأفلح الباقون وعددهم اثنان وعشرون فى الهروب . وفى ٨ سبتمبر ١٥٢٢ بلغت السفينة فكتوريا إشبيلية وهى لا تحمل سوى ثمانية عشر رجلا (والباقون من أهل الملايو) هم كل من بقى من ٢٨٠ رجلا أقلعوا من أسبانيا قبل ثلاث سنوات تقريباً . وسجلت يومية السفينة هذا التاريخ باعتباره ٧ سبتمبر . وعلل الكاردينال جاسبارو كونتاريني الفرق باتجاه الرحلة الغربى . لقد كانت المغامرة من أجرأ المغامرات فى التاريخ ، ومن أحفلها بالثمار للجغرافيا .

وبقى على الجغرافيين واجب اللحاق بالرواد . وقد يسر لهم جيامباتستا راموزيو — وهو هاكلويت الإيطالى — هذه المهمة بجمعه

خلال ثلاثين عاماً القصص والأخبار التى جلبها الرحالة وغيرهم من المسافرين ، وقد ترجمها وعلق عليها ، ثم نشرت فى ثلاثة مجلدات (١٥٥٠ — ٥٩) بعد موته بثلاثة عشر عاماً . ويظهر التقدم الذى حققه الجغرافيون فى عشر سنوات إذا قارنا بين الكرة الأرضية كما رسمت عام ١٥٢٠ ، المحفوظة بالمتحف القومى الألمانى فى نورمبرج ، والتى تبدو فيها جزر الهند الغربية دون أثر لقارة أمريكية ، ثم تقفز هذه الجزر فوق محيط ضيق إلى آسيا ، وبين ثلاث خرائط رسمها (١٥٢٧ — ٢٩) ديوجو ريبيرو ، وقد ظهرت فيها شواطئ أوربا وأفريقيا وجنوب آسيا مرسومة بدقة عظيمة . والساحل الشرقى للأمريكتين من نيوفوندلند حتى مضايق ماجلان ، والساحل الغربى من بيرو إلى المكسيك ، ولعل « خريطة راموزيو » (البندقية ١٥٣٤) البديعة للأمريكتين ، المحفوظة بمكتبة نيويورك العامة ، منقولة عن ريبيرو هذا . وفى نفس « الكلية الأم » خريطة قديمة خاطئة رسمها جرهادوس مركاتور (١٥٣٨) أطلق فيها على أمريكا الشمالية والجنوبية اسمهما هذا لأول مرة . (أما « خريطة نركاتور البارزة » فترجع إلى عام ١٥٦٩) . وأضاف بيتر أبيان (١٥٢٤) إلى علم الجغرافيا بمحاولته إخضاع المسافات الجغرافية لمقاييس مضبوطة .

وقد ظهرت آثار هذه الارتيادات فى كل منحى من مناحى الحياة الأوربية . فرحلات ١٤٢٠ — ١٥٦٠ زادت وجه الكرة المعروفة للبشر أربعة أضعاف تقريباً . وكان للجديد من الحيوان والنبات ، والأحجار الكريمة والمعادن ، والأطعمة والعقاقير ، الفضل فى إثراء نبات أوربا وحيوانها وجيولوجيتها وموائدها وعقاقيرها . وتساءل الناس كيف وجد ممثلو الأنواع الجديدة كلها مكاناً فى فلك

(١٠)

نوح : وتغير الأدب، فأخلت قصص الفروسية القديمة مكانها لقصص الأسفار أو المغامرات فى الأقطار النائية ، وحل البحث عن الذهب محل البحث عن الكأس المقدسة فى رمزية لاشعورية للمزاج الجديد . وفتحت أعظم ثورة تجارية فى التاريخ (قبل أن تبلغ الطائرة مرحلة النضج) المحيط الأطلنطى وغيره من المحيطات للتجارة الأوربية ، وخلفت البحر المتوسط فى حالة ركود تجارى ، ومن ثم ركود ثقافى تبعه بعد قليل . وانتقلت النهضة من إيطاليا إلى دول الأطلنطى . وراحت أوربا ، التى كانت تملك سفناً ومدافع أفضل وسكاناً أصلب وأشد رغبة فى التملك والمغامرة ، راحت تفتح — وأحياناً تستعمر — البلد تلو البلد من الأقطار المكتشفة . وأكره السكان الوطنيون على العمل المتصل الشاق الذى لم يتعودوه لإنتاج السلع لأوربا ، وأصبح الرق نظاماً راسخاً .وغدت أصغر القارات تقريباً أعظمها ثراء . وبدأت حركة صبغ الكرة الأرضية بالطابع الأوربى ، وهى الحركة التى قلبت قلباً حاداً فى عصرنا .ووجد عقل الرجل الغربى حافزاً قوياً فى بعد الشقة بينه وبين الأقطار الجديدة وفى ضخامتها وتنوعها . وربما كان لبعض تشكك مونتينى جذور فى سحر الدخيل المجلوب من العادات والعقائد. واتخذت العوائد والأخلاق نسبية جغرافية أوهنت القديم من العقائد القطعية واليقينية . وكان لزاماً أن ينظر إلى المسيحية ذاتها فى منظور جديد بوصفها دين قارة صغيرة تقوم وسط عالم من العقائد المنافسة ؛ وكما أن المذهب الإنسانى كشف عالماً قبل المسيح ، وكما أن كوبرنيق أماط اللثام عن ضآلة الأرض الفلكية ، كذلك كشف ارتياد الأراضى الجديدة وما تلاه من تجارة عن أقطار شاسعة تقوم وراء المسيحية دون اكتراث لوجودها .وتزعزعت مكانة أرسطو وغيره من اليونان حين ظهرت قلة ما عرفوا عن هذا الكوكب . واضمحل

إعجاب النهضة الأعمى باليونان ، واستعد الإنسان ، التياه بكشوفه الجديدة تيه أهل النهضة ، لنسيان حجمه الفلكي المتناقص أمام اتساع معارفه وتجارته . وظهر العلم والفلسفة العصريان ، واضطلعا بمهمة خطيرة ، مهمة تصور العالم من جديد .

٤ — بعث علم الأحيـــاء

بعثت الآن من جديد علوم الأحياء التي لم تكد تحرز أي تقدم منذ عصر الإغريق . فكافح علم النبات ليتحرر من قبضة الصيدلة ويقف على قدميه ، ونجح في هذا الكفاح ، ولكن لم يكن بد من أن يظل المهيمنون عليه من رجال الطب . وبدأ الحركة أوتو برونفيلز ، الطبيب المدني في برن ، بكتاب « صور حية للنبات » (١٥٣٠ — ٣٦) ، وقد سرق معظم نصه من ثيوفراستوس ، وديوسقوريدس ، وغيرهما من السلف ، ولكنه أضاف أيضاً وصفاً للنباتات الألمانية الموطن ، وكانت رسومه المحفورة على الخشب وعددها ١٣٥ نماذج في الأمانة . وأنشأ يوريكيوس كوردوس ، طبيب مدينة بريمن ، أول حديقة نباتية (١٥٣٠) شمال جبال الألب ، وحاول كتابة خلاصة مستقلة لعلم النبات الوليد في كتابه **Botanilogicon** (١٥٣٤) ثم عاد إلى مجال الطب في كتابه **Liber de urinis** . وقام ابنه فاليريوس كوردوس بجولات مستهترة في سبيل درس النبات ، وقد لقي حتفه أثناءها وهو في التاسعة والعشرين (١٥٤٤) ، ولكنه ترك من بعده للنشر كتابه « تاريخ النبات » ، وفيه وصف حي دقيق لخمسمائة نوع من النبات . وقد بدأ ليونارد فوكس ، أستاذ الطب بتوبنجن ، بدراسة النبات سبيلا إلى الاقرباذين ، ثم انتهى بدراسته لذاته ولما فيه من متعة . وكان كتابه **Historia stirpium**

(١٥٤٢) مثالا للتفانى فى العلم ، وقد حوى ٣٤٣ فصلا حللت ٣٤٣ جنساً وشرحتها فى ٥١٥ رسماً محفوراً على الخشب يشغل كل منها صفحة كبيرة كاملة . وأعد للطبع كتاباً أشمل حتى من سابقه ، وبه ١,٥٠٠ لوحة ، ولكن أحداً من أصحاب المطابع لم يقبل أن يتكفل بنفقات نشره . أما أثره الحى الباقى فهو جنس « الفوشيا » .

وربما كانت أهم فكرة مفردة أُسهم بها فى علم الأحياء فى هذه الفترة هى شرح بيير بيلون فى كتابه Histoire .... des oyseaux (١٥٥٥) لذلك التقابل المدهش بين عظام الإنسان والطير . ولكن أعظم أبطال « العلم الطبيعى » فى هذا العصر هو كونراد جسنر ، الذى شمل إنتاجه وعلمه ميداناً بلغ من الاتساع مبلغاً حمل كوفييه على أن يطلق عليه اسم بلينى ألمانيا، بل كان يحق له أن يسميه ارسطو ألمانيا أيضاً . وقد ولد فى أسرة فقيرة بزيورخ (١٥١٦) ، وأبدى من الاستعداد والدأب على الدرس ما جعل المدينة تتعاون مع رعاته الخاصين على تمويل تعليمه العالى فى ستراسبورج وبورج وباريس وبال . وقد وضع أو جمع ١,٥٠٠ رسم توضيحى لكتابه « تاريخ النبات » ، ولكن تبين أن تكاليف طبع الكتاب ستكون باهظة ، فظل مخطوطاً ولم يطبع إلا عام ١٧٥١ ، وقد تأخر نشر تصنيفه البارع لأجناس النبات حسب بنياتها التناسلية بحيث لم يستطع ليناوس الاستعانة به . وقد نشر فى حياته أربعة مجلدات (١٥٥١ — ٥٨) ، وخلف مجلداً خامساً ، من كتاب ضخم فى « تاريخ الحيوان » أورد فيه كل نوع من أنواع الحيوان تحت اسمه اللاتينى ، ووصف شكله ، وأصله ، وموطنه ، وعاداته ، وأمراضه ، وصفاته العقلية والعاطفية ، وفوائده الطبيعية والمنزلية ، ومكانه فى الأدب ، وكان التصنيف أبجدياً لا علمياً ، ولكن تكديسه الموسوعى للمعلومات أعان علم

الأحياء على أن يتخذ له شكلا محدداً . على أن هذه الجهود لم تُنضب معين جسنر ، فبدأ موسوعته «المكتبة العالمية» فى واحد وعشرين مجلداً عكف فيها على وضع فهارس بجميع الكتابات اليونانية واللاتينية والعبرية المعروفة ، وأكمل منها عشرين مجلداً ، واستحق بذلك لقب « أبى الببليوغرافيا » . وفى قسم جانبى يسمى « متريداتيس» (١٥٥٥) حاول تصنيف ١٣٠ لغة من لغات العالم . ويبدو أن كتابه Descriptio Montis Pilati (١٥٤١) كان أول دراسة منشورة للجبال بوصفها إحدى صور الجمال ، وعرفت سويسرة الآن أنها بلد جليل رائع . وكل هذه المؤلفات أنجزت بين عامى ١٥٤١ و ١٥٦٥ . وفى هذه السنة مات كونراد جسنر ، روح الدراسة المتجسد .

وفى غضون ذلك كان لكتاب جوان ڤيف De anima et vita (١٥٣٨) معظم الفضل فى خلق علم النفس التجريبى الحديث . وكأن ڤيف أراد أن يتحاشى التشكك ، الذى كان هيوم مزمعاً أن يبسطه بعد قرنين ، حول وجود «عقل» بالإضافة إلى العمليات العقلية ، فنصح الطالب ألا يسأل ما هو العقل أو ما هى النفس ، لأننا (كما أحس) لن نعرف هذا أبداً ، إنما يجب أن نسأل ماذا « يفعل » العقل ؛ وعلى السيكولوجيا ألا تكون غيبيات نظرية ، وأن تصبح علماً مبنياً على مشاهدات محددة ومتجمعة ، فى هذا سبق فيف فرانسس بيكون بقرن من الزمان فى توكيده للاستقراء . ودرس بالتفصيل ترابط الأفكار ، وعمل الذاكرة وتحسينها ، وعملية المعرفة ، ودور الشعور والعاطفة . ونحن نشهد فى كتابه هذا علم النفس منبعثاً فى ألم ، انبعاث كثير من العلوم قبله ، من بطن أم واحدة للجميع ، هى الفلسفة .

٥ — فيسـاليوس

فى عام ١٥٤٣ نشر أندرياس فيساليوس كتاباً قال عنه السر وليم أوسلر إنه أعظم ما كتب فى الطب قاطبة(٥٣) . كان أبوه أندرياس فيسل صيدلياً غنياً فى بروكسل ، وجده طبيباً لمارى البرجندية ثم لزوجها مكسمليان الأول ، أما جده الأكبر — وكان طبيباً — فقد كتب تعليقاً على كتاب ابن سينا « القانون » . هنا نجد حالة من الوراثة الاجتماعية تفوق حالة أسرة باخ . وما لبث فيساليوس أن أغرم بالتشريح بعد أن درب عليه منذ نعومة أظفاره . « فلم ينج من مبضعه حيوان . فهو يشرح الكلاب والقطط والجرذان والفيران والخلدان تشريحاً غاية فى الدقة(٥٤)» غير أنه لم يهمل الدراسات الأخرى. ففى الثانية والعشرين من عمره حاضر فى اللاتينية ، وكان يقرأ اليونانية فى يسر . ثم درس التشريح فى باريس (١٥٣٣ — ٣٦)على جاك دوبوا الذى أطلق على كثير من العضلات والأوعية الدموية أسماءها التى ما زالت تحملها إلى اليوم . وظل فيساليوس طويلا ، كأساتذته ، يؤمن بجالينوس إنجيلا له ، ولم يفقد احترامه له قط ، ولكنه كان يحترم سلطان المشاهدة والمناقشة أكثر كثيراً . وقام هو وبعض زملائه الطلبة برحلات كثيرة إلى مستودعات جثث الموتى حيث جمعت العظام المستخرجة من جبانة الأطفال ، وهناك ألفوا منظر أجزاء الهيكل البشرى ألفة أتاحت لهم كما روى « أن نجرؤ أحياناً ، حتى ونحن معصوبو الأعين ، على مراهنة رفاقنا ، وخلال نصف ساعة لم تكن تقدم لنا عظمة . . .إلا وعرفناها باللمس(٥٥)» . وحدث غير مرة فى محاضرات دوبوا أن كان المشرح الشاب الجرىء يزيح « الحلاقين الصحيين » الذين كان الأستاذ الطبيب يكل إليهم عادة مهمة التشريح الفعلى ، ويقوم هو بعرض الأعضاء موضوع المحاضرة عرض خبير(٥٦) .

واعتكف فيساليوس في لوفان حين غزا مليكه شارل الخامس فرنسا عام ١٥٣٦. وقد عطل نشاطه هناك نقص الجثث، فخطف جثة من الهواء هو وصديق له يدعى جيما فريزيوس (الذى اشتهر فيما بعد رياضياً) . وتكشف روايته للحادث عن ولعه بالتشريح . يقول :

« بينما كنا نتمشى ونبحث عن عظام فى المكان الذى يوضع فيه عادة من أعدموا ، على الطريق الريفية . وقعت على جثة متيبسة . . . وكانت العظام مجردة من اللحم كلية ولا يمسكها غير الأربطة . وتسلقت الخازوق بمساعدة جيما وجذبت عظم الفخذ . وأتبعته العظم الكتفى والذراعين واليدين . . . وبعد أن حملت الساقين والذراعين إلى البيت خفية وفى رحلات متتالية . . . تركت نفسى حبيساً خارج المدينة فى المساء حتى آتى بالصدر . وكان مربوطاً ربطاً وثيقاً بسلسلة ، وكنت أتحرق شوقاً إلى إتمام مهمتى . . . وفى الغد نقلت العظام جزءاً فجزءاً خلال بوابة أخرى من بوابات المدينة ».[٥٧]

وأدرك عمدة المدينة الأمر ، ومن بعدها كان يعطى فصول التشريح ما أمكن الإفراج عنه من الجثث . يقول فيساليوس « وكان هو نفسه يحضر بانتظام كلما قمت بالتشريح[٥٨]»

وما كان فى استطاعة رجل كهذا « يتحرق شوقاً » أن يحتفظ بطبعه هادئاً . فما لبث أن اشتبك فى نزاع حاد مع مدرس حول طرائق شق الوريد . ورحل عن لوفان (١٥٣٧) وركب هابطاً الرين عابراً جبال الألب إلى إيطاليا . وكان قد بلغ من الكفاية مبلغاً أتاح له الحصول قبل نهاية تلك السنة على درجة الطب فى بادوا « بأقصى خفض » فى الرسوم ، لأنه كلما علا تقدير الطالب انخفضت رسوم تخرجه . وفى اليوم التالى نفسه (٦ ديسمبر ١٥٣٧) عينه مجلس شيوخ البندقية أستاذاً للجراحة والتشريح بجامعة بادوا ؛ وكان يومها فى الثالثة والعشرين .

وقام فى الأعوام الستة التالية بالتدريس فى بادوا وبولونيا وبيزا، وشرح مئات الجثث بيديه، وأصدر بعض الكتب الصغيرة . وقد رسم تلميذ لتيشان يدعى جان ستيفان فان كالكار ، تحت إشرافه ، ست لوحات نشرت عام ١٥٣٨ بعنوان Tabulae anatomicae sex وبعد عام أيد فيساليوس فى رسالته عن « شق الأوردة » بيير بريسو الباريسى فى طرق الفصد . وفى معرض مناقشته للموضوع كشف عن بعض نتائج تشريحه للجهاز الوريدى ، وقد أعانت ملاحظاته هذه على كشف الدورة الدموية . وفى ١٥٤١— ٤٢ اشترك مع علماء آخرين فى نشر طبعة جديدة من النص اليونانى لجالينوس . وقد أدهشته أخطاء ندت عن جالينوس وكانت خليقة بأن يدحضها أبسط تشريح لجسم الإنسان كقوله مثلا : إن الفك السفلى قسمان ، وإن القص سبع عظام متميزة ، والكبد عدة فصوص . وما كان ممكناً تعليل هذه الأخطاء واغتفارها إلا على فرض أن جالينوس لم يشرح قط آدميين بل حيوانات . وشعر فيساليوس أنه قد حان الوقت لمراجعة علم تشريح الإنسان بتشريح الآدميين . وهكذا أعد أعظم كتبه .

وحين طبع يوهان أوبورينوس عام ١٥٤٣ بمدينة بازل كتابه هذا المسمى « بنية جسم الإنسان » فى ٦٦٣ صفحة من القطع الكبير ، لا بد أن الشيء الذى أدهش القارىء لتوه كان صفحة الغلاف — وكانت حفراً جديراً بالفنان دورو . تمثل فيساليوس يشرح تشريح ذراع مفتوحة ، ومن حوله خمسون طالباً يرقبونه . ثم الرسوم التوضيحية : ٢٧٧ رسماً مطبوعاً من كليشيهات خشبية ذات دقة تشريحية لم يسبق لها نظير وبراعة فنية عظيمة ، معظمها من صنع فان كالكار ، وخلف الأشكال مناظر لا تتصل علمياً بالموضوع ولكنها جذابة من الناحية الفنية — فترى مثلا هيكلا عظمياً عند مقعد للقراءة . وكانت هذه الرسوم المطبوعة من الجمال بحيث خالها بعضهم مصممة فى مرسم تيشان

ربما باشرافه ؛ ولا بد أن نضيف إلى هذا أن فيساليوس رسم عدة رسوم منها بيده . وقد رافق الكليشيهات الخشبية ساهراً على سلامتها فى الرحلة على ظهر بغل من البندقية إلى بال عبر جبال الألب . وحين تم طبع الكتاب حفظت الكليشيهات بعناية . وفى تاريخ لاحق اشتريت ، ثم تبودلت ، ثم فقدت ، وفى عام ١٨٩١ عثر عليها مخبأة فى مكتبة جامعة ميونيخ ، وقد دمرتها القنابل فى الحرب العالمية الثانية.

أما الذى كان ينبغى أن يثير فى النفس دهشة أعظم مما أثارته هذه الرسوم فهو أن النص — وهو نصر طباعى ولكنه إلى ذلك ثورة علمية — كان من صنع فتى لم يتجاوز التاسعة والعشرين . وهو ثورة لأنه أنهى سلطان جالينوس على التشريح ، وراجع العلم كله بلغة التشريح ، وبهذا أرسى دعائم الأساس الفزيائى للطب الحديث ، الذى يبدأ بهذا الكتاب . فهنا وصف لأول مرة سير الأوردة الصحيح وتشريح القلب ؛ وهنا ورد ذلك القول الخطير ، وهو أن التشريح البالغ الدقة لم يظهر أياً من تلك المسام التى افترض جالينوس أن الدم يمر عن طريقها من بطين إلى آخر ؛ وبهذا أصبح الطريق معبداً لسرفيتوس وكولومبو وهارفى . وقد صححت أخطاء جالينوس المرة بعد المرة — فيما يتصل بالكبد ، والقنوات المرارية ، والفكين ، والرحم . وقد ارتكب فيساليوس هو أيضاً أخطاء ، حتى فى المشاهدة ، وأخفق فى أن يقفز القفزة الكبرى من تشريح القلب إلى دورة الدم . ولكن هنا أوصاف صادقة لعشرات من الأعضاء لم تحظ قط بمثل هذا الوصف الدقيق من قبل ، وفتح كل جزء من أجزاء الجسم للعلم بيد واثقة قديرة .

على أن فيساليوس عانى من عيوب فضائله . ذلك أن الكبرياء التى سندته طوال دراسته الموفقة جعلته سريع الغضب ، بطيئاً فى

الاعتراف بمنجزات سابقيه وتقدير حساسية منافسيه ؛ وبلغ ولعه بذلك « الإنجيل الصادق . . . ألا وهو جسم الإنسان وطبيعة الإنسان »[٩] مبلغا جعله يؤذى شعور عدد كبير من أقطاب اللاهوتيين ؛ وكان يشير فى تهكم إلى رجال الكنيسة الذين يشتد إقبالهم على غرفة محاضراته حين يكون موضوع الدرس والعرض هو الأعضاء التناسلية[٦٠]. وقد أثار عداء الكثيرين ؛ ومع أن جسنر وفالوبيو رحبا بكتابه ، فان أكثر الأساتذة القدامى ، ومنهم أستاذه السابق دوبوا ، نددوا بالمؤلف بوصفه محدثاً وقحاً ، وجدوا فى تسقط العيوب فى كتابه . وقال دوبوا إن جالينوس لم يخطئ ، ولكن جسم الإنسان عراه تغير منذ عهد جالينوس ، وعلى ذلك فعظام الفخذين الواضحة الاستقامة ، والتى ليست مقوسة كما وصفها جالينوس ، إنما هى فى رأيه نتيجة لارتداء أوربيى عصر النهضة سراويل ضيقة[٦١] .

وفى عاصفة من خيبة الأمل فى موقف هؤلاء الرجال أحرق فيساليوس مجلداً ضخماً من كتاب « التعليقات » **Annotationes** وتفسيراً للأجزاء العشرة التى يتألف منها كتاب الرازى « كتاب المنصورى » — وهو موسوعة فى الطب[٦٢]. وفى عام ١٥٤٤ رحل عن إيطاليا ليصبح طبيباً ثانياً بين أطباء شارل الخامس الذى سبق أن أهداه فى حصافة كتابه « فابريكا » **Fabrica** : ومات أبوه فى نفس العام تاركاً له ثروة طيبة . فتزوج وبنى بيتاً جميلا فى بروكسل . وصدرت طبعة ثانية لكتابه « فابريكا » عام ١٥٥٥ ، مزيدة ومنقحة . وقد بين الكتاب أن التنفس الصناعى يمكن أن يبقى على حياة الحيوان رغم شق صدره ؛ وأن القلب الذى توقف نبضه يمكن أحياناً رد الحياة إليه باستعمال منفاخ . بعد هذا لم يضف فيساليوس جديداً إلى التشريح . فقد استغرق فى العناية بمرضاه من أسرة الإمبراطور ومن دونهم ، وفى ممارسة

الجراحة ودراستها . وأصبح فيساليوس طبيباً ثانياً لفيليب الثانى بعد أن اعتزل شارل الملك . وفى يوليو ١٥٥٩ أوفده الملك ليساعد أمبرواز باريه فى محاولة لإنقاذ حياة هنرى الثانى الجريح ، ولجأ فيساليوس إلى اختبارات إكلينيكية أظهرت استحالة شفائه . وفى تاريخ لاحق من هذه السنة رافق هو وأسرته فيليب إلى إسبانيا .

فى غضون ذلك أضاف آخرون جديداً إلى التشريح . فلاحظ جيامباتستا كانو صمامات الأوردة (١٥٤٧) ، وشرح سرفيتوس دورة الدم فى الرئتين (١٥٥٣) ، ووصل ريالدو كولومبو إلى هذا الكشف ذاته (١٥٥٨) ، وأثبته باجراء تجربة على القلب الحى . ولكن سبعين سنة أخرى انقضت قبل أن يأتى هارفى بوصفه الخطير لسير الدم من القلب إلى الرئتين ، فالى القلب ، فالى الشرايين ، فالى الأوردة ، ثم إلى القلب . وكان الطبيب العربى ابن النفيس قد سبق سرفيتوس عام ١٢٨٥[٦٣] ، وربما انحدرت الرواية المتواترة بنظريته إلى أسبانيا فى شباب سرفيتوس .

وبقيت لفيساليوس بضع مغامرات . من ذلك أن الأطباء الوطنيين فى البلاط الأسبانى كانوا يصرّون على إهمال تشخيصه باعتبار هذا موقفاً يحتمه الشرف . فلما شكا ابن فيليب الوحيد ، الدون كارلوس ، من ارتجاج فى المخ إثر سقطة (١٥٦٢) ، أشار فيساليوس باجراء تربنة له . ولكن النصيحة رفضت ، وأشرف الفتى على الهلاك . ووضعت على الجرح التمائم وآثار القديسيين ، وجلد الأتقياء أنفسهم توسلا إلى السماء أن تشفيه بمعجزة ؛ ولكن هذا كله لم يجد فتيلا . وأخير أصر فيساليوس على فتح الجمجمة ، ففتحت ، وسحبت منها كمية كبيرة من الصديد ؛ وما لبث الأمير أن تماثل للشفاء ، وبعد إجراء العملية بثمانية أيام سار فيليب فى موكب مهيب لتقديم الشكر لله .[٦٤]

وبعد عامين رحل فيساليوس عن أسبانيا لأسباب ما زالت محل خلاف . وقد روى أمبرواز باريه قصة مشرح أثار عليه غضب أسبانيا بأسرها لأنه فتح بطن امرأة كان الظن أنها ماتت من « اختناق الرحم » ، قال باريه أن ضربة أخرى من مبضع الجراح ردت المرأة فجأة إلى الحياة ، « الأمر الذى بعث فى قلوب جميع أصدقائها من الإعجاب والرعب . . . ما جعلهم ينظرون إلى الطبيب — الذى كان من قبل واسع الشهرة طيب السمعة — نظرتهم إلى رجل مجرم بغيض »(٦٥) ، ولا عجب فالأقرباء لا يقدرون دائماً مثل هذا الشفاء غير المتوقع . وواصل الجراح الهيجونوتى روايته فقال « لذلك لم ير سبيلا أمامه إلا مغادرة البلاد إن ابتغى لنفسه السلامة ». وروى هيجونوتى آخر يدعى أوبير لانجيه قصة كهذه (حوالى ١٥٧٩) ، وذكر أن الطبيب هو فيساليوس ، وزعم أن فيساليوس وقع تحت طائلة محكمة التفتيش لأنه شرح شخصاً حياً ، وقد نجا من المحاكمة حين أخذ على نفسه عهداً بالحج إلى فلسطين تكفيراً عن خطيئته . والحادثة لم ترد فى أى مصدر معاصر ، والمؤرخون الكاثوليك يرفضونها لأنها فى رأيهم قصة خرافية(٦٦) . ولعل السبب لا يعدو أن فيساليوس مل البقاء فى أسبانيا .

وعاد إلى إيطاليا ، وأبحر من البندقية (ابريل ١٥٦٤) ، ويبدو أنه بلغ أورشليم . وفى رحلة العودة تحطمت سفينته ، ومات من التعرض للجو ، نائياً عن أصدقائه ، على جزيرة زنطة تجاه ساحل اليونان الغربى (١٥ أكتوبر ١٥٦٤) . وكان يومها فى عامه الخمسين . وفى هذا العام ذاته مات ميكلانجلو ، وولد شكسبير . لقد كان البهاء الذى سطعت شمسه قرناً فى سماء إيطاليا ينتقل إلى الشمال .

٦ — نهضـــة الجراحة

ظل علم الطب وفنه يسيران فى ركاب أئمة الطب من اليونان والعرب ، على الرغم مما أحرزه التشريح من تقدم . ولم يكن لشهادة الحواس كبير وزن أمام كلمة جالينوس أو ابن سينا ، لا بل إن فيساليوس نفسه قال حين ناقض تشريحه رأى جالينوس « لم أكد أصدق عينى » . وكانت طبعات أو ترجمات جالينوس أو أبقراط تنشر المعلومات القديمة وتثبط القيام بالتجارب الجديدة — بالضبط كما كانت الجهود التى بذلها بترارك ورونسار لكتابة ملاحم فرجيلية تؤذى نبوغهما الفطرى وتحرف مجراه. وحين أسس ليناكر كلية الطب التى أطلق عليها فيما بعد كلية الأطباء الملكية (١٥١٨) ، كانت كتبها الرئيسية هى ترجماته لجالينوس .

وقد أفاد علاج الأمراض من العقاقير الجديدة المجلوبة إلى أوربا كالكينا ، وعرق الذهب ، والراوند ، المجلوبة من أمريكا ، والزنجبيل ولبان الجاوى من سومطرة ، والقرنفل من جزر ملقا ، والصبر من كوتشين الصينية ، والكافور والزنجفر من الصين ، ووسع هذا التطور استعمال النباتات الوطنية . وصنف فاليريوس كوردوس أول فارماكوبيا ألمانية (١٥٤٦) ، وشاع علاج الزهرى بنقيع خشب الغويقم المجلوب من جزر الهند الغربية . حتى أن آل فوجير جمعوا ثروة ثانية بحصولهم على احتكار بيعه فى أملاك شارل الخامس الذى كان مديناً لهم .

على أن فقر جماهير الناس وقذارتهم كانا سبباً فى تخلف الدواء عن المرض دائماً . وكانت أكوام القمامة أو روث البهائم تسمم الهواء ، وتنتشر هنا وهناك فى الشوارع أحياناً . وكان لباريس شبكة مجار أراد هنرى الثانى إفراغها فى نهر السين لولا أن ثناه

رجال البلدية عن هذه الفعلة بتبصيره بأن النهر هو مورد مياه الشرب الوحيد لنصف السكان(٦٧) . وأنشئت فى انجلترا الحان للمجارى فى عام ١٥٣٢ ، ولكن لم يكن فيها حتى عام ١٨٤٤ سوى مدينتين اثنتين تنقل فيهما القمامة من الأحياء الفقيرة على حساب الدولة .

أما الأوبئة فكانت أقل فتكاً منها فى العصور الوسطى ، ولكنها كفت — هى ووفيات النفساوات والأطفال — لتثبيت السكان عند حد لا يكادون يتجاوزونه. وقد اكتسحت الطواعين ألمانيا وفرنسا المرة تلو المرة بين عامى ١٥٠٠ و ١٥٦٨ . وانتشرت حمى التيفوس فى انجلترة فى أعوام ١٤٢٢ ، و ١٥٧٧ و ١٥٨٦ نتيجة لهجرات القمل . واجتاح انجلترة « المرض المعرق » — ولعله ضرب من الأنفلونزة — فى أعوام ١٥٢٨ و ١٥٢٩ و ١٥٥١ و ١٥٧٨ ؛ وألمانيا فى ١٥٤٣ — ٤٥ ، وفرنسا فى ١٥٥٠ — ٥١ . وقيل إن هذا المرض فتك بألف شخص فى بضعة أيام فى كل من هامبورج وآخن(٦٨). وكان الناس يعزون الأنفلونزه إلى « تأثيرات سماوية » influences: ، ومنها اشتقت اسمها . وعاد الطاعون الدبلى إلى الظهور فى ألمانيا فى عام ١٥٦٢ ، ففتك بتسعة آلاف من بين سكان نورمبرج البالغ عددهم أربعين ألفاً(٦٩) — وإن جاز لنا أن نفترض المبالغة فى جميع الإحصاءات الخاصة بالطاعون . أما جوانب الصورة الأكثر إشراقاً فهى تضاؤل الإصابة بالجذام وبعض الاضطرابات العقلية كرقصة سانت فيتوس :

وكان سير التطبيب أبطأ من سير المعرفة الطبية . فما زال دجاجلة الطب يملأون الأرض ؛ وكان من اليسير الاشتغال بالطب دون الحصول على درجة جامعية برغم القوانين المقيدة . وكان أكثر الأطفال يخرجون إلى النور على أيدى القابلات . أما التخصص فلم

يكد يبدأ . فطب الأسنان مثلا لا يفصل عن الطب أو الجراحة ، وكان الحلاقون الصحيون يخلعون الأسنان ويستبدلون بها أسناناً من العاج . وترك جميع الأطباء تقريباً — وفيساليوس أحد القلائل الذين شذوا — مهمة الجراحة للحلاقين الصحيين ، الذين يجب على أى حال ألا ننظر إليهم على أنهم حلاقون ، لأن كثيراً منهم كانوا رجالا ذوى دربة ومهارة :

فأمبرواز باريه بدأ حياته صبياً لحلاق ، ثم ارتقى حتى أصبح جراحاً للملوك : وقد ولد فى بورج-إرسان فى مين (١٥١٧) ، ثم شق طريقه إلى باريس ، وفتح كشك حلاقته فى ميدان سان ميشيل . وخلال حرب ١٥٤٦ اشتغل جراحاً لفرقة من فرق الجيش . وكان فى علاجه للجنود يسلم بالنظرية السائدة التى زعمت أن جروح الرصاص سامة ، ودرج (كما درج فيساليوس) على كيها بزيت البلسان المغلى ، فكان الكى يحيل الألم عذاباً . وذات ليلة فرغ الزيت ، فضمد باريه الجروح بمرهم من مح البيض ، وزيت الورد ، والتربنتينا : وفى الغد كتب يقول :

« أرقنى بالأمس طول التفكير فى المصابين الذين لم أستطع كى جروحهم . وتوقعت أن أجدهم جميعهم أمواتاً فى الصباح . وبهذه الفكرة قمت مبكراً لأتفقدهم ، فما راعنى إلا أن أجدمن عالجتهم بالمرهم لا يشكون غير ألم بسيط جداً فى جروحهم دون أى التهاب : : . وقد قضوا ليلتهم فى نوم مريح . أما الباقون الذين عولجت جروحهم بزيت البلسان المغلى فقد ارتفعت حرارتهم والتهبت جروحهم : : : وآلمتهم ألماً حاداً . وعلى ذلك صممت على ألا أعود ثانية إلى كى هؤلاء التعساء بمثل هذه الطريقة القاسية »[٧٠] :

ولم يحظ باريه بتعليم يذكر ، ولم ينشر كتيبه عن «طريقة

علاج الجروح » — وهو اليوم كتاب مشهور فى عالم الطب — إلا فى عام ١٥٤٥ : وفى حرب ١٥٥٢ أثبت أن ربط الشريان أجدى من الكى فى وقف النزف الذى تسببه عمليات البتر : وقد وفق بفضل عملياته الجراحية فى حمل العدو على الإفراج عنه بعد أسره. ولما عاد إلى باريس عين كبيراً للجراحين بكلية سان كوم ، الأمر الذى أثار فزع السوربون التى تنظر إلى أستاذ جاهل باللاتينية كأنه هولة بيولوجية . وعلى الرغم من هذا أصبح جراحاً للملك هنرى الثانى ، ثم لفرانسوا الثانى ، ثم لشارل التاسع ، ومع أنه كان يجهر ببروتستنتيته ، فقد أبقى أمر ملكى على حياته فى مذبحة سان بارتلميو . ولم يضف مؤلفه « كتابان فى الجراحة » (١٥٧٣) لنظرية الجراحة إلا قليلا ، ولكنه أضاف الكثير للتطبيق . فقد اخترع أدوات جديدة ، وأدخل الأطراف الصناعية ، وأشاع استعمال الحزام فى الفتق ، وحسن من تعديل وضع الجنين فى الولادة ، وأجرى أول إعادة لمفصل الكوع ، ووصف التسمم بأول أوكسيد الكربون ، وقرر أن الذباب حامل للمرض . ومن الأقوال المشهورة فى حوليات الطب اعتراضه على ما تلقى من تهانىء لنجاحه فى علاج حالة مستعصية ، « أنا عالجته ، والله شفاه ». وقد مات عام ١٥٩٠ بالغاً الثالثة والسبعين بعد أن رفع كثيراً من مكانة الجراحين وكفايتهم ، ومنح فرنسا زعامة فى الجراحة احتفظت بها قرونا من بعده .

٧ — باراسيلسوس والأطباء

فى كل جيل يظهر رجال ينكرون على الأطباء محافظتهم المشوبة بالحيطة ، ويدعون الوصول إلى أنواع ممتازة من العلاج بوسائل خارجة على التقاليد الطبية ، ويرمون رجال المهنة بالتخلف الوحشى ، ويأتون بالأعاجيب حيناً ، ثم يتبددون فى ضباب الغلو والعزلة اليائسين . ومن الخير أن يظهر ذباب الخيل هذا بين الحين والحين لينبه الفكر الطبي ، ومن الخير أن يكبح الطب جماح البدع المتعجلة فى تعامله مع الحياة البشرية . ففى هذا الميدان ، كما فى ميدانى السياسة والفلسفة ، يتعاون الشباب المتطرف ، والشيخوخة المحافظة ، على غير إرادتهما ، ليحدثا توازناً بين الاختلاف والوراثة ، ذلك التوازن الذى تتخذه الطبيعة أداة للتطور .

كان فيليبوس ثيوفراستوس بومباستوس فون هوهنهايم يتخذ له اسم أوريولوس رمزاً لنبوغه ، واسم باراسيلسوس — وهو على الأرجح ترجمة لاتينية للقب هوهنهايم[٧١] . وكان أبوه فلهلم بومباست فون هوهنهايم ابناً غير شرعى لنبيل سوابى حاد الطبع . ولما ترك فلهلم ليدبر شئونه بنفسه ، مارس الطب بين فقراء القرويين قرب أينزيدلن فى سويسرة ، وتزوج من إلزا أوخسنر ، وكانت بنت صاحب حانة وممرضة مساعدة ، وقد أصيبت بعد قليل بحالة اكتئاب جنونى . وربما كان تضارب هذا النسب سبباً فى ميل فيليب إلى عدم الاستقرار ، وإلى إحساس ساخط بقدرات لم ترعها بيئته رعاية كافية . وقد ولد فى ١٤٩٣ وشب وسط مرضى أبيه ، وربما فى ألفة بالحانات غير صالحة له ، تلك الحانات التى ظلت حياتها الطليقة تستهويه على الدوام . وتزعم قصة غير مؤكدة أن الصبي خصاه خنزير برى أو جنود مخمورون :

ولم يعرف أن امرأة ظهرت فى حياته بعد البلوغ . وحين كان فى التاسعة أغرقت أمه نفسها . ولعل هذا هو السبب فى رحيل الوالد والولد إلى فيلاخ بالتيرول . وتقول رواية متواترة أن فلهلم كان يقوم بالتدريس هناك فى مدرسة للمناجم ويشتغل بالكيمياء القديمة على سبيل الهواية . ولا بد أنه كان هناك مناجم بقرب المدينة ومصنع لصهر المعادن ، ومن المحتمل أن يكون فيليب قد تعلم هناك طرفاً من الكيمياء التى سيحدث فيها ثورة فى دنيا العلاج .

ولما بلغ الرابعة عشرة قصد هايدلبرج للدراسة . وتكشف طبعه القلق فى انتقاله السريع من جامعة لأخرى — فرايبورج ، وإنجولشتات ، وكولونيا ، وتوبنجن ، وفيينا ، وارفورت ، وأخيراً (١٥١٣ — ١٥) فيرارا — ولو أن هذا التنقل بين دور العلم كان مألوفاً فى العصور الوسطى . وفى عام ١٥١٥ ، التحق فيليب — وقد سمى نفسه الآن باراسيلسوس — حلاقاً صحياً فى جيش شارل الأول ملك أسبانيا ، دون أن يحصل على درجة جامعية . فلما انتهت الحملة عاد إلى حياة الترحل . وهو يزعم أنه مارس الطب فى غرناطة ، ولشبونة ، وإنجلترة ، والدنمرك ، وبروسيا وبولنده ، ولتوانيا ، والمجر ، و « غيرها من الأقطار » (٧٢) وكان فى سالزبورج إبان حرب الفلاحين عام ١٥٢٥ ، وعالج جروحهم وتعاطف مع أهدافهم . وقد ولع حيناً بالاشتراكية . فهو يندد بالمال ، والفائدة ، والتجار . ويدعو للشيوعية فى الأرض والتجارة ، وللمساواة بين الناس فى الأجور(٧٣) . وفى كتابه الأول المسمى « Archidoxa » (أى الحكمة العظمى — ١٥٢٤) رفض اللاهوت وامتدح التجربة العلمية(٧٤) . ولما قبض

عليه بعد إخفاق ثورة الفلاحين ، أنقذته من حبل المشنقة شهادة بأنه لم يحمل سلاحاً قط ، ولكنه نفى من سالزبورج ، فغادرها على عجل .

وفى عام ١٥٢٧ كان فى ستراسبورج يمارس الجراحة ويحاضر الحلاقين الصحيين ، وكان تعليمه لهم مزيجاً مهوشاً من المعقول وغير المعقول ، ومن السحر والطب — ولو أن الله وحده يعلم كيف سيصف المستقبل بقينياتنا الحاضرة ؟ وقد رفض التنجيم ، ثم سلم به ، وكان يأبى أن يحقن مريضاً بحقنة شرجية ما لم يكن القمر فى تربيعه الصحيح . وكان يسخر من عصا الكهانة ، ولكنه زعم أنه أحال المعادن ذهباً (٧٥) . وإذ كان — كأجريبا فى شبابه — يحدوه تعطش للمعرفة فقد بحث فى شوق عن « حجر الفلاسفة » — أى عن صيغة عامة تفسر الكون. وكتب فى سذاجة المصدق عن الأقزام الخرافية ، وسلامندر الأسبستوس ، و « الإرشادات » ، وهى علاج الأعضاء المريضة بعقاقير شبيهة بها لوناً وشكلا . ولم يستنكف من استخدام التعاويذ والتمائم السحرية علاجاً (٧٦)— ربما بوصفها طباً إيحائياً .

ولكن هذا الرجل نفسه، الذى ينضح بأوهام جيله ، أدخل تحسينات جريئة على استخدام الكيمياء فى الطب . وكان يتحدث أحياناً حديث الماديين « إن الإنسان مشتق من المادة ، والمادة هى الكون كله » (٧٧) . والإنسان بالنسبة للكون كالعالم الصغير (الميكروكوزم) بالنسبة للعالم الكبير (الماكروكوزم) » وكلاهما من نفس العناصر — وأساسها الأملاح ، والكبريت ، والزئبق ؛ والمعادن والأملاح المعدنية التى تبدو عديمة الحياة هى فى الواقع مفعمة بالحياة(٧٨) . والعلاج الكيماوى هو استخدام العالم الكبير

لشفاء العالم الصغير . والإنسان من حيث بدنه مركب كيميائى ، والمرض تنافر ، لا فى « الأمزجة » كما زعم جالينوس ، بل فى مكونات البدن الكيميائية ؛ وهذه أول نظرية حديثة للأيض أو التمثيل الغذائى : وكان العلاج فى ذلك العهد يعتمد فى عقاقيره إلى حد كبير على عالم النبات والحيوان ، أما باراسيلسوس ، الغارق فى كيميائه القديمة ، فقد أكد ما للمواد غير العضوية من قدرات علاجية . وجعل الزئبق ، والرصاص ، والكبريت ، والحديد ، والزرنيخ ، وكبريتات النحاس ، وكبريتات البوتاسيوم ، أجزاء من أقرباذينه ، وأشاع استعمال الصبغات والخلاصات الكيميائية ، وكان أول من صنع « صبغة الأفيون » التى نسميها اللودنوم : وقد شجع استعمال الحمامات المعدنية ، وشرح خواصها وآثارها المتنوعة .

ولاحظ باراسيلسوس العوامل المهنية والجغرافية المؤثرة فى المرض ، ودرس السل الرئوى المتليف فى المعدنين ، وكان من أول من ربط بين القماءة والغوطر المتوطن : وأدخل تحسينات على فهم الصرع ، وعزا الشلل واضطرابات النطق إلى إصابات الرأس . ومع أن الفكرة المسلم بها عموماً فى ذلك العصر عن النقرس والتهاب المفاصل هى أنهما رفيقان للشيخوخة لا شفاء منهما ، فان باراسيلسوس رأى أنهما قابلان للشفاء إذا شخصا على على أنهما نتيجة لاحماض تكونها بقايا الطعام التى استقرت طويلا فى القولون . قال « كل الأمراض يمكن ردها إلى تخثر المادة غير المهضومة فى الأمعاء »(٧٩) . وقد أطلق على هذه الأحماض الناشئة عن التعفن المعوى اسم « الطرطير » لأن رواسبها فى المفاصل ، والعضلات ، والكلى ، والمثانة « تحرق كالجحيم ، وطرطروس

هى الجحيم » (٨٠) : « إن الأطباء يفاخرون بمعرفتهم بالتشريح ، ولكنهم عاجزون عن رؤية « الطرطير » اللاصق بأسنانهم » . (٨١) وعلق هذا المعنى بالكلمة الجديدة . واقترح وقف تكون هذه الرواسب فى الجسم بالغذاء الصحى ، والمقويات ، وتحسين الإخراج ، وحاول « تليين » الرواسب باستعمال زيت الغار ومركبات الراتنج ، أما الحالات الشديدة فقد دعا فيها إلى الجراحة حتى يسمح للرواسب الملتصقة بالهروب أو تتاح إزالتها . وقد زعم أنه شفى كثيراً من حالات النقرس بهذه الوسائل ، ويعتقد بعض الأطباء فى عصرنا هذا أنهم شفوا مرضى باتباع تشخيص باراسيلسوس .

ووصلت إلى بال أنباء طرق العلاج التى توصل إليها باراسيلسوس فى ستراسبورج . وكان المصور الشهير فروبن يشكو هناك ألماً حاداً فى قدمه اليمنى ، فأشار الأطباء ببتر القدم . ودعا فرولن باراسيلسوس إلى بال ليشخص الحالة . وجاء باراسيلسوس ، ووفق فى علاجها دون الالتجاء إلى السلاح . واستشار إرزمس باراسيلسوس ، وكان يومها يعيش مع فروبن ويشكو أوجاعاً كثيرة ، فوصف له علاجاً لا ندرى مدى توفيقه فيه . على أية حال أضاف هؤلاء المرضى المشهورون شهرة جديدة إلى شهرة الطبيب الشاب ، وقربه خليط غريب من الظروف من منصب الأستاذ الجامعى الذى كانت تهفو إليه نفسه .

كان البروتستنت فى تلك الحقبة أغلبية فى مجلس مدينة بال ، ففصلوا الدكتور فونيكر طبيب المدينة على الرغم من اعتراضات إرزمس والأقلية الكاثوليكية ، بحجة أنه « تفوه بعبارات جديدة ضد الإصلاح البروتستنتى » (٨٢) وعينوا باراسيلسوس مكانه .

وافترض المجلس وباراسيلسوس أن هذا التعيين يتضمن حقه فى التدريس فى الجامعة ، ولكن الكلية استنكرت التعيين واقترحت عقد امتحان علنى لباراسيلسوس فى التشريح وهى على بينة من ضعفه فيه . فتهرب من الاختبار ، وبدأ يمارس مهنته طبيباً بالمدينة ، ويحاضر فى قاعة خاصة دون موافقة الجامعة (١٥٢٧) : وقد جمع إليه الطلاب بدعوة مميزة لحلقه هذا نصها : —

« من ثيوفراستوس بومباست فون هوهنهايم : الدكتور فى فرعى الطب ، والأستاذ ، تحيات لطلبة الطب . إن الطب وحده دون جميع العلوم . . . هو المعترف به صناعة مقدسة . ومع ذلك فان قلة من الأطباء يمارسونه اليوم بنجاح ، ومن ثم فقد حان الوقت لرده إلى مكانه المرموق السابق ، ولتنقيته من خميرة الهمج ، وتطهيره من أخطائهم . وسنقوم بهذه المهمة ، لا بالتزام قواعد الأقدمين ؛ بل بشىء واحد دون سواه هو دراسة الطبيعة واستخدام الخبرة التى اكتسبناها خلال سنوات طويلة من الاشتغال بالطب . ومن ذا الذى يجهل أن معظم الأطباء المعاصرين يفشلون لأنهم استعبدوا أنفسهم لتعاليم ابن سينا وجالينوس وأبقراط ؟ . . . وقد يفضى بهم هذا الطريق إلى ألقاب فخمة ، ولكنه لا يكوّن طبيباً بمعنى الكلمة . . . فليس الطبيب فى حاجة إلى الفصاحة أو الالمام باللغة أو الكتب . . . . بل إلى المعرفة العميقة بالطبيعة وأعمالها . . .

ولقد اعتزمت ، بفضل المنحة السخية التى قدمها سادة بال لهذا الغرض ، أن أشرح الكتب الدراسية التى ألفتها فى الجراحة وعلم الأمراض ، مخصصاً لذلك ساعتين فى كل يوم ، على سبيل التمهيد لطرق الشفاء التى أمارسها . وأنا لا أصنف هذه الكتب

من مختارات أنقلها عن أبقراط أو جالينوس . ولكننى بطول الكد والكدح خلقتها من جديد على أسس من الخبرة ، التى هى أسمى معلم لجميع الأشياء . فاذا شئت إثبات شىء ما لم أفعل هذا بالنقل عن هؤلاء القدامى ، بل بالتجربة والتفكير المبنى عليها . فان شعرت أيها القارىء العزيز بدافع يدفعك إلى استكناه هذه الخفايا المقدسة ، وإن شئت أن تسبر أغوار الطب فى زمن وجيز ، فأقبل إلى فى بال . . . بال فى ٥ يونيو ١٥٢٧ »[٨٣] .

وسجل ثلاثون طالباً أسماءهم فى هذه الدراسة . وفى يوم الافتتاح طلع باراسيلسوس فى الرداء الجامعى المألوف ، ولكنه خلعه عنه لتوه ، ووقف فى ثوب الكيميائى الخشن ومئزرته الجلدية المتسخة بالسناج . وقد ألقى محاضرته فى الطب مكتوبة بلاتينية أعدها له سكرتيره أوبورينوس (الذى طبع فى تاريخ لاحق كتاب فيساليوس « فابريكا ») ، أما محاضرات الجراحة فألقاها بالألمانية . وكانت هذه صدمة جديدة للأطباء التقليديين ، ولكنها لم تزعجهم بقدر ما أزعجهم رأى أبداه باراسيليسوس وهو « أنه يجب ألا يؤدى الصيدلى عمله متواطئاً مع أى طبيب »[٨٤] . وكأنه أراد أن يعلن على الملأ ازدراءه للطب التقليدى ، فقذف فى النار وهو مبتهج بنص طبى حديث لعله Summa Jacobii — وكان الطلاب قد أوقدوا النار احتفالا بعيد القديس يوحنا (٢٤ يونيو ١٥٢٧) ، ثم قال « لقد ألقيت فى نار القديس يوحنا « بخلاصة » الكتب ، حتى تصعد جميع المحن والبلايا فى الهواء مع الدخان . وهكذا طهرت مملكة الطب من أدرانها » . وقارن الناس بين هذه الحركة وبين إحراق لوثر لمرسوم أصدره البابا .

أما حياة باراسيلسوس فى بال فكانت خارجة على العرف

خروج محاضراته : يقول أوبورينوس « لقد أنفق العامين اللذين صحبته خلالهما في السكر والشره ليل نهار . . . وكان متلافاً ، تأتى عليه أوقات لا يجد فى جيبه فيها فلساً . . . وكان فى كل شهر يوصى بصنع سترة جديدة ، ويعطى القديمة لأول قادم ، ولكنها كانت من القذارة بحيث لم أتمن قط سترة منها لنفسى[٨٦] » وقد ترك لنا هنريش بولينجر وصفا لباراسيلسوس مماثلا لهذا ، فهو مدمن للخمر ، « ورجل فى منتهى القذارة[٨٧] » ولكن أوبورينوس يشهد بحالات عجيبة من الشفاء حققها أستاذه ، « فى علاج القرح أتى بما يقرب من المعجزات فى حالات يئس منها غيره »[٨٨] .

أما رجال الطب فقد برئوا منه دجالا عاطلا من الدرجة الجامعية ، مجرباً مستهتراً ، عاجزاً عن تشريح الجثث ، جاهلا بعلم التشريح . أما هو فقد عارض التشريح بحجة أن الأعضاء لا يمكن فهمها إلا وهى تؤدى وظيفتها فى الجسم الحى أداء متحداً طبيعياً. ورد على احتقار الأطباء له بلغة سوقية غاية فى المرح . فسخر من وصفاتهم الوحشية ، وقمصانهم الحريرية ، وخواتمهم ، وقفازاتهم الناعمة ، ومشيتهم المتغطرسة ، وتحداهم أن يخرجوا من حجرات الدرس إلى المعمل الكيميائى ، وأن يرتدوا المآزر ، ويوسخوا أيديهم بالعناصر الكيميائية وينحنوا فوق الأفران ليتعلموا أسرار الطبيعة بالتجربة وعرق الجبين . وقد عوض عن افتقاره إلى الدرجة الجامعة باتخاذ ألقاب مثل « أمير الفلسفة والطب » و « دكتور فى فرعى الطب » (أى طبيب وجراح) ، و « ناشر الفلسفة » ، وداوى جراح غروره بالثقة فى دعاواه . كتب يقول « سيتبعنى الجميع ، وستكون مملكة الطب مملكتى . . . كل الجامعات وكل الكتاب القدامى مجتمعين أقل مواهب من . . . ى »[٨٩] . وإذ ألفى نفسه مرفوضاً

من الغير ، فقد اتخذ لنفسه هذه الحكمة شعاراً « لا يملكنك أحد إذا استطعت أن تملك نفسك »(٩٠) . أما التاريخ فقد وبخ تفاخره ، إذ جعل لقب أسرته « بومباست » اسماً نكرة (بمعنى الفشر) .

وحدث أن ظريفاً مجهول الاسم فى بال — متواطئاً مع كلية الجامعة ، أو فى تمرد عفوى من الطلبة على مدرس دجماطى — كتب قصيدة هجائية لاذعة وعرضها فى مكان ظاهر ، والقصيدة باللاتينية الرديئة ، توهم أن جالينوس نفسه هو الذى كتبها من « الجحيم » يرد بها على منتقص قدره ، وقد سماه كاكوفراستوس — خطيب الروث . وهزأت الأبيات هزءاً شديداً بمصطلحات باراسيلسوس الغيبية ، ونعتته بالجنون ، وأشارت عليه بأن يشنق نفسه . وحاول باراسيلسوس أن يعثر على الجانى ففشل ، لذلك طلب إلى مجلس المدينة أن يستجوب الطلاب واحداً واحداً ويعاقب المذنب . ولكن المجلس تجاهل الطلب . وحوالى هذه الفترة عرض قسيس فى كاتدرائية بال أن يدفع مائة « جلدر » لمن يشفيه من مرضه ، وشفاه باراسيلسوس فى ثلاثة أيام ، ودفع له القسيس ستة جلدرات ، وأبى أن يدفع الباقى بحجة أن العلاج لم يستغرق سوى وقت قصير جداً . فقاضاه باراسيلسوس ، ولكنه خسر دعواه ، وخسر معها هدوء طبعه ، فرمى نقاده بأنهم « غشاشون حكاكون للظهور » ، ونشر نبذة غفلا من اسم الكاتب رمى فيها رجال الدين والقضاء بالفساد ؛ وأمر المجلس بالقبض عليه ، ولكنه أجل تنفيذ الأمر حتى الصباح . وهرب باراسيلسوس تحت جنح الظلام (١٥١٨) ، بعد أن قضى فى بال ثمانية شهور .

وفى نورمبرج أعاد باختصار تجربته فى بال . وكل إليه آباء المدينة مستشفى سجن ، فاستخدم ألواناً من العلاج أثارت الأعجاب : ولكنه ندد بحساده من أطباء المدينة لافتقارهم إلى الذمة ، وثرائهم ، ولبدانة نسائهم . ثم دافع عن الكاثوليكية حين لاحظ

أن أغلب أعضاء المجلس من البروتستنت . وانزعج آل فوجير الذين يبيعون الغويقم حين زعم أن هذا « الخشب المقدس » عديم الجدوى فى علاج الزهرى . وفى عام ١٥٣٠ أغرى طباعاً مغموراً بأن ينشر « ثلاثة فصول عن المرض الفرنسى » عنف فيها الأطباء تعنيفاً أثار عليه عاصفة من المعارضة أكرهته على أن يعود إلى تجواله من جديد . وأراد أن ينشر كتاباً أكبر فى الموضوع ذاته ، ولكن مجلس المدينة منع طبعه. ودافع باراسيلسوس فى خطاب كتبه إلى المجلس عن حرية الطبع بفصاحةلم تغنه فتيلا ، ولم ير الكتاب النور قط فى حياته . وكان يحتوى على أفضل وصف إكلينيكى كتب عن مرض الزهرى ، وقد أشار باستعمال جرعات باطنية من الزئبق دون الاستعمالات الظاهرة له. وأصبح هذا المرض ساحة احتدمت فيها المعركة بين العلاج النباتى والعلاج الكيميائى .

وانتقل باراسيلسوس إلى سان — جال ، وسكن نصف عام منزل أحد مرضاه . وهناك وفى فترة لاحقة ألف كتبه « العمل العجيب جداً » و « معارضة الطبيعة ؟ » و « الجراحة الكبرى » ، وكلها بالألمانية الدارجة . وهى أكوام من الخامات الخشنة التى تعثر أحياناً على حجر كريم فى ثناياها . وفى عام ١٥٤٣ انتكس إلى السحر ، وألف كتابه Philosophia sagax وهو خلاصة وافية فى السحر .

ولما مات مريضه فى سان— جال راح يضرب فى الأرض من جديد ، متنقلا بين ربوع ألمانيا ، مستجدياً قوته أحياناً . وكان قد فاه فى شبابه ببعض الهرطقات الدينية— كقوله إن دلالة العماد رمزية لا أكثر ، وإن تناول الأسرار المقدسة نافع للأطفال والمغفلين ،

عديم الفائدة للأذكياء ، وإن الصلوات للقديسين مضيعة للوقت[٩١].
أما الآن (١٥٣٢) ، بعد أن هدّه الفقر والهزيمة ، فقد اختبر «التحول» الديني . فصام ، ووهب متاعه الباقي للفقراء ، وكتب المقالات التعبدية ، وعزى نفسه بآمال الجنة . وفي عام ١٥٤٠ قدم له أسقف سالزبورج الملجأ ، فقبله الرجل شاكراً ، مع أنه هو الذي شجع الثورة هناك قبل خمسة عشر عاماً . وكتب وصيته ، فترك نقوده القليلة لأقاربه ، وأدواته لحلاقي المدينة الصحيين ، وفي ٢٤ سبتمبر ١٥٤١ أسلم جسده للتراب .

لقد كان رجلا قهرته عبقريته ، غنياً في الخبرة المنوعة والأحاسيس الذكية ، ناقصاً في تعليمه المدرسي نقصاً أعجزه عن فصل العلم عن السحر ، مفتقراً إلى ضبط النفس اللازم للسيطرة على حماسته المتأججة ، حاد الخصومة بحيث لم يستطع التأثير في جيله . ولعل حياته وحياة أجريبا أعانتا على تضخيم أسطورة فاوست . وإلى القرن الماضي كان يحج إلى قبره في سالزبورج ضحايا وباء تفشى في النمسا والأمل يراودهم في الشفاء بسحر روحه أو بسحر رفاته[٩٢] .

٨ — الشكاكون

لم يكن القرن السادس عشر بالزمان الصالح للفلسفة ، فقد استغرق اللاهوت المفكرين الناشطين ، وسير الإيمان العقل في ركابه بعد أن سيطر على كل شيء . ورفض لوثر العقل لأنه ينزع بصاحبه إلى الكفر[٩٣] ، ولكن حالات الكفر كانت نادرة . فقد أحرق قسيس هولندي في لاهاي (١٥١٢) لإنكاره الخليقة والخلود ولاهوت المسيح[٩٤] ، ولكنه لم يكن واضح الكفر . كتب أخباري إنجليزي تحت سنة ١٥٣٩ « مات هذا العام في جامعة باريس

طبيب عظيم أنكر وجود الله ، وكان هذا رأيه الذى ثبت عليه مذ كان فى العشرين ، وقد عمر إلى ما بعد الثمانين ، واحتفظ بضلالته هذه سراً طوال هذه السنين[٩٥] ».وفى عام ١٥٥٢ نشر جيوم بوستل كتابه Contra atheos ولكن كلمة atheist (أى الملحد) قلّ أن ميّز القوم بينها وبين القائل بمذهب الألوهية ، أو القائل بوحدة الوجود ، أو الشكاك .

على أنه وجد من الشكاكين عدد يكفى لنيل صفعة من لوثر ، فقد روى أنه قال « إن مواد قانون الإيمان أسمى من أن يدركها أبناء هذا العالم العميان . فوحدة الأقانيم الثلاثة فى إله واحد ، وتجسد ابن الله الحق ، ووجود طبيعتين للمسيح هما لاهوته وناسوته ، إلخ . . . . . كل هذا يؤذيهم لأنهم يرون فيه حديث خرافة » ؛ ثم أضاف إن بعضهم يتشككون فى أن الله خلق أناساً عرف من قبل أنهم هالكون[٩٦] . وكان فى فرنسا بعض المتشككين فى الخلود[٩٧]. من ذلك أن بونافنتور دسبرييه سخر فى كتابه Cymbalum mundi (١٥٣٧) بالمعجزات ، وبتناقضات الكتاب المقدس ، وباضطهاد أصحاب البدع الدينية . وقد ندد كالفن والسوربون بكتابه هذا ، فأحرقه جلاد الدولة. واضطرت مارجريت إلى إقصائه عن بلاطها فى نيراك ، ولكنها بعثت إليه بالمال لتحفظ عليه حياته فى ليون : وفى عام ١٥٤٤ قتل نفسه ، وترك مخطوطاته لمارجريت « دعامة كل صلاح وحاميته »[٩٨] ؛

وظهرت روح الشك فى ميدان السياسة متخذة صورة هجمات على حق الملوك الإلهى وحصاناتهم ، وكان الشكاك هنا عادة إما من المفكرين البروتستنت الذين ضايقهم الحكام الكاثوليك ، وإما من المفكرين الكاثوليك الذين يدفعون الثمن غالياً إذا انتصرت الدولة.

وقد نشر الأسقف جون بونيت — وكان ساخطاً على مارى تيودور — فى عام ١٥٥٨ « بحثاً موجزاً فى السلطة السياسية » . قال فيه « إن الأمثلة الكثيرة والمتصلة ، التى وجدت بين الحين والحين ، لخلع الملوك وقتل الطغاة تؤكد على وجه اليقين أن من أحق الحق والعدل والتمشى مع قضاء الله . . . القول بأن سلطان الملوك والأمراء والحكام مصدره الشعب . . . وإن للناس أن يستردوا تفويضهم . . . حين يشاءون »[٩٩] . كذلك كان من رأى أستاذ اسكتلندى يدعى جون ميجر ، (وكان له بعض الفضل فى تكوين عقل جون نوكس) ، أنه ما دام كل سلطان زمنى مشتقاً من إرادة الجماعة ، فان من الجائز خلع الملك الطالح وإعدامه ، شريطة اتخاذ الإجراء القانونى الواجب .

أما أطرف خصوم الحكم الملكى المطلق فهو كاثوليكى شاب حقق قدراً متواضعاً من الخلود بموته بين ذراعى مونتينى . يقول كاتب المقالة الفذ « إن إتيين دلا بويتى كان فيما أعلم أعظم رجل فى عصرنا[١٠٠] » . وقد ولد إتيين هذا لموظف كبير فى بيريجور ، ودرس القانون فى أورليان ، ثم عين مستشاراً فى « برلمان » بوردو قبل بلوغه السن القانونية . وحوالى عام ١٥٤٩ ، يوم كان فتى فى التاسعة عشرة ألهمته الأفكار الجمهورية دراسته للأدب اليونانى والرومانى ، كتب هجوماً عنيفاً على الحكم المطلق — ولكنه لم ينشره قط — وسمى كتابه « مقال عن العبودية الاختيارية » . Discours lus la servitude volontaire ولكن بما أن الكتاب ندد بدكتاتورية فرد واحد يتحكم فى الكثيرين ، فقد سمى Contr' un (أى خصم الواحد) . فليسمع القارئ نداءه :

« أى عار وأى خزى فى أن يطيع عدد لا يحصى من الرجال طاغية عن رضى واختيار ، بل بروح العبيد ! طاغية لا يدع لهم حقوقاً فى عقار أو أبوين أو زوجة أو والد ، ولا حتى فى حياتهم ذاتها — فأى نوع من الرجال هذا الطاغية ؟ ما هو يهرقول ولا بشمشون ؛ بل كثيراً ما يكون قزماً ، وكثيراً ما يكون أشد الجبناء تخنثاً فى الشعب كله — فليست قوة بدنه هى التى تضفى عليه النفوذ والسلطة ، وكثيراً ما يكون عبداً لأحط المومسات . ليت شعرى ما أشقى رعاياه وأحقرهم ؛ إن كان اثنان ، أو ثلاثة. أو أربعة ، لا يثورون على واحد ، فذلك معناه الواضح أن الشجاعة تعوزهم. أما إذا كان المئات والألوف لا يخلعون عنهم نير فرد ، فما الذى يبقى من الإرادة الفردية والكرامة الإنسانية ؟ . . . إن حصول الفرد على حريته لا يقتضى بالضرورة استعمال القوة ضد الطاغية . إنه يسقط حالما تمل البلاد وجوده . ولا حاجة بالشعب الذى أذله واستعبده أن يحرمه أى حق له . فالتحرر لا يتطلب شيئاً أكثر من الإرادة الصادقة لخلع النير . . . فاعزموا عزماً صادقاً على ألا تكونوا عبيداً بعد اليوم — وإذا أنتم أحرار ! أمسكوا عن الطاغية المعونة يسقط ويتحطم كأنه تمثال عملاق سحبت قاعدته من تحت قدميه[١٠١] .

ومضى لابويتى يشكل بآرائه فكر روسو وتوم بين من بعده . فهو يقول إن الإنسان يتوق بطبعه إلى الحرية ، ومفارقات الحظ هى بنت الصدفة ، وهى تحمّل المحظوظين الالتزام بخدمة إخوتهم فى الإنسانية ، وكل الناس إخوان « صنعوا من طينة واحدة » ، وصانعهم إله واحد. والعجيب أن قراءة هذا الرأى المتطرف هى التى جذبت مونتينى — على ما طبع عليه من اتزان وحيطة — إلى لابويتى ، وأفضت (١٥٥٧) إلى صداقة من أشهر الصداقات

فى التاريخ . وكان مونتينى يومها فى الرابعة والعشرين ، وإتيين فى السابعة والعشرين، ولعل مونتينى كان آنئذ من الحداثة بحيث يستطيع تقبل العواطف المتطرفة . على أن صداقتهما سرعان ما ختمت بموت لابويتى ولما يجاوز الثانية والثلاثين (١٥٦٣) . ووصف مونتينى أيامه الأخيرة وكأنه يتذكر وصف أفلاطون لموت سقراط . وبلغت حدة إحساسه بفقد ذلك الفتى المشبوب العاطفة مبلغاً جعله يذكر موته — بعد أن انقضت عليه سبعة عشر عاماً — بشعور أشد عمقاً من ذكره لأى تجربة أخرى جاز بها فى حياته . ولم يكن راضياً عن طبع كتاب صديقه (Discours)وحزن حين نشره راعى كنيسة فى جنيف (١٥٧٦) . وقد علل تأليف الكتاب بروح الشباب السمحة ، وأرجع كتابته إلى سن أسبق هى السادسة عشرة. لقد أوشك هذا الصوت أن يكون صوت الثورة الفرنسية .

٩ — راموس والفلاسفة

كانت حياة بتروس راموس—بيير دلاراميه — لا تقل شاعرية عن حياة لابويتى ، وموته أشد عنفاً . لقد آلى على نفسه أن يخلع نير أرسطو . ، إذ رأى فيه حكم رجل واحد دام نيفاً وثلاثة قرون ، لا على أمة واحدة فحسب بل على أمم كثيرة ، لا على الجسد بل على العقل ، بل كاد يبسط سلطانه على الروح . أو لم ينصب هذا المفكر الوثنى فيلسوفاً رسمياً للكنيسة ؟ لقد فكر إنسانيو النهضة فى إحلال أفلاطون محله ، ولكن حركة الإصلاح البروتستنتى — أو الخشية من الحركة — أخذت تخنق الحركة الإنسانية ، وظلت الكلامية الأرسطاطالية ، سواء فى ألمانيا

البروتستنتية او فى فرنسا الكاثوليكية ، متربعة على العرش حين مات لوثر (١٥٤٦) الذى لعنها : وبدا خلع هذا المقدونى عن عرشه فى نظر الشاب المفكر أحل صورة من صور قتل الطغاة . فلما تقدم راموس لدرجة الأستاذية من جامعة باريس عام ١٥٣٦ ، وكان يومها فى عامه الواحد والعشرين، اتخذ موضوعاً لرسالته هذه الدعوى القاطعة التى كان عليه أن يدافع عنها يوماً بطوله أمام من تجدوه من الكلية وخارجها : « كل ما قاله أرسطو باطل » .

كانت حياة راموس أشبه بنشيد يتغنى بالتعليم . فقد ولد قرب مدينة كالفن « نوايون » فى إقليم بيكاردى ، وحاول مرتين السفر إلى باريس على قدميه يحدوه تعطش إلى كلياتها ، ولكنه أخفق فى المرتين وقفل إلى قريته مهزوماً . ثم حالفه التوفيق فى عام ١٥٢٨ ، حين بلغ الثانية عشرة ، إذ التحق بخدمة طالب غنى يحضر للجامعة فى كلية نافار — وهى نفس الكلية التى سرقها فيون . وشق بيير طريقه فى منهج كلية الآداب العسير طوال سنوات ثمان ، يخدم نهاراً ويذاكر ليلا . وكاد يفقد بصره خلال ذلك ، ولكنه عثر على أفلاطون . يقول ·

« حين جئت باريس وقعت فريسة لتدقيقات السفسطائيين ، فعلمونى الآداب الحرة بالأسئلة والمجادلات ، دون أن يداونى على أية فائدة أو منفعة أخرى . فلما تخرجت . . . . انتهيت إلى أن هذه المجادلات لم تكن سوى مضيعة لوقتى . ولما أفزعتنى هذه الفكرة ، وهدانى ملك كريم ، وقعت على زينوفون ثم على أفلاطون : ووصلت إلى معرفة فلسفة سقراط »(١٠٢) .

ما أكثر من وصلوا منا فى عهد الشباب إلى هذا الكشف المبهج ، وسعدوا يوم التقوا فى أفلاطون بفيلسوف سرت الخمر والشعر فى عروقه ، وسمع صوت الفلسفة فى هواء أثينا نفسه ، وأمسك بها وهى محلقة ، وأسلمها

إلى الأجيال التالية وهي لا تزال تحمل نسمة الحياة ، وأصوات بسقراط وتلاميذه لا تزال تجلجل بقوة النقاش ونشوة الجدل حول أشد المسائل إثارة فى العالم ! يا لها من راحة يستمتع بها المرء بعد صفحات أرسطو المملة ، بعد الإسهاب فى حديث « توسط الطريق » ، « والوسط غير الأمثل » ! بالطبع كنا — وكان راموس — غير منصفين لأرسطو ، إذ نقارن مذكرات محاضراته المحكمة بمحاورات أستاذه الميسرة ، ولا يستطيع تقدير الفيلسوف المقدونى سوى الراسخين فى العلم . فلقد كان أرسطو الذى عرفه راموس هو أولا منطيق « الأورجانون » ، أرسطو المدارس ، الذى لا يكاد يثبت لمحنة الترجمة إلى لاتينية الكلاميين ، ومحنة التحويل السحرى إلى أكوينية تقليدية مسيحية طيبة . ويقول راموس إنه أنفق ثلاث سنين فى دراسة منطق أرسطو دون أن يبصره أحد بفائدة واحدة أو تطبيق واحد له فى العلم أو الحياة(١٠٢) .

وأنها لمفخرة لكلية باريس ، ولعلم راموس وحذقه وشجاعته ، أن يمنح درجة الأستاذية التى تقدم لنيلها ؛ ولعل الأساتذة أيضاً كانوا قد سئموا المنطق والاعتدال . ولكن بعضهم صدموا وأحسوا أن بضاعتهم لحقها ضرر من نقاش ذلك اليوم . وبدأت عداوات لم تفتأ تلاحق راموس حتى مماته .

وخولت له درجة الأستاذية الاشتغال بالتدريس ، فبدأ لفوره فى الجامعة سلسلة من المحاضرات مزج فيها الفلسفة بأدب اليونان والرومان . وكثر تلاميذه ، وتضاعف كسبه ، واستطاع أن يرد لأمه الأرملة ما بذلته من مدخراتها لتدفع رسوم تخرجه . وبعد سبعة أعوام من التحضير أصدر سنة ١٥٤٣ (وهى نفس « سنة العجائب » التى صدرت فيها كتب كوبرنيق وفيساليوس) ، كتابين واصلا حملته لإسقاط منطق أرسطو . وكان أحدهما ، وهو : « Aristotelicae animadversiones » هجوماً مباشراً صاغه أحياناً

فى عبارات من القدح لا هوادة فيها ، أما الآخر عن أقسام المنطق فقد قدم نسقاً جديداً يحل محل القديم . فأعاد تعريف المنطق باعتباره فن الحديث ، وجمع بين المنطق والأدب والخطابة فى طريقة إقناع فنية واحدة . وتوجس المهيمنون على الجامعة — ولهم العذر فى توجسهم — مما قد يجر إليه هذا المأخذ من أخطار . يضاف إلى هذا ارتيابهم فى بعض قضايا راموس التى شموا منها رائحة الهرطقة ، كقوله مثلا : « إن عدم التصديق بداية المعرفة »(١٠٤) — وهذا تشكك ديكارتى سابق لديكارت ، أو طلبه مزيداً من دراسة الكتب المقدسة بدلا من دراسة مجلدات الفلاسفة الكلاميين — وكان لهذا الطلب رنين بروتستنتى ، أو تعريفه اللاهوت بأنه doctrina bene vivendi وهو تعريف هدد باحالة الدين أخلاقاً . ثم هناك طرق راموس المثيرة للغيظ ، وكبرياؤه ومشاكسته ، وأساوبه الجدلى العنيف ، وترفعه القاطع على القطع بالعقيدة .

وما إن نشر الكتابان حتى دعا مدير الجامعة راموس للمثول أمام رئيس بلدية باريس بوصفه عدواً للدين ، ومكدراً للسلام العام ، ومفسداً للشباب بالبدع الخطرة . وعقدت المحاكمة أمام لجنة ملكية من خمسة أعضاء — اثنان عينهما راموس ، واثنان متهموه ، وخامس فرانسوا الأول . ولم يرض راموس عن إجراءات المحاكمة ، فسحب مندوبيه . وأصدر الثلاثة الباقون حكمهم ضده (١٥٤٤) ، فمنع بأمر ملكى من المحاضرة ، أو النشر ، أو المزيد من مهاجمة أرسطو . وعلقت صورة الحكم فى أرجاء عديدة من المدينة ، وأرسلت إلى الجامعات الأخرى . وأخرج الطلاب هرليات كموا فيها براموس ، وسخر رابليه من هذا الشجار باشراك الآلهة فيه .

ولزم راموس الصمت فترة ، ثم بدأ سلسلة من المحاضرات فى كلية آفى ماريا ، ولكنه اقتصر على تدريس البلاغة والرياضيات ، وأغضت الحكومة عن المخالفة . وفى عام ١٥٤٥ أصبح المدير المساعد لكلية بريسل ،

ولما لبثت قاعة محاضراته أن ازدحمت بالطلاب . فلما تولى هنرى الثانى العرش بعد فرانسوا الأول ألغى الحكم الصادر على راموس وتركه « حر اللسان والقلم » ، وبعد عام عينه فى كرسى بالكلية حيث يعنى من أشراف الجامعة .

أما وقد بلغ راموس قصاراه إذ غدا أشهر معلم فى باريس ، فانه خصص الكثير من وقته وجهده لإصلاح الطرق التربوية . وإذا كان قد اتكأ على « البلاغة » — وكانت آنئذ تعنى الأدب — فلم يكن هذا لتنشيط الفلسفة بالشعر فحسب ، بل لبث إنسانية نابضة بالحياة فى مناهج صيرتها التجريدات والقواعد الكلامية جافة عسيرة . وفى خمس مقالات عن النحو طبق المنطق على اللغة ، ورجا أن يصبح الهجاء الفرنسى صوتياً ، ولكن هذا الهجاء واصل سيره المترنح ، على أنه نجح فى أن يدخل فى الأبجدية الفرنسية حرفى j و v ليحلا محل الحرفين الساكنين i و u . ثم شجع تقرير المنح الدراسية لفقراء الطلبة ، ذاكراً كفاحه وهو مملق فى سبيل التعليم ، وندد بالرسوم الباهظة التى تتقاضاها الجامعات عن التخرج ، وناضل فى الوقت نفسه لرفع رواتب المدرسين .

وفى عام ١٥٥٥ نشر كتابه Dialectique ، وهو أول كتاب فى المنطق بالفرنسية . وكان يحاج الآن لا عن الإقناع بالجدل والمنطق فحسب ، بل دفاعاً عن العقل . كان بفطرته عدواً للنزعة التقليدية ولمجرد الاستشهاد بالثقات ، وقد رأى فى العقل المرجع الوحيد الذى يحتكم إليه ، وآمن فى حماسة رجال النهضة أن العقل سيبلغ بالعلوم جميعها مرتبة تقرب من الكمال فى قرن واحد لو أطلق له العنان[١٠٥] . كتب يقول : «كان شغلى الشاغل أن أزيح من طريق الآداب الحرة . . . كل العقبات والمعوقات الفكرية ، وأن أعبد هذا الطريق وأقومه ؛ لا تيسيراً للتفكير فحسب ، بل لممارسة الآداب الحرة واستخدامها[١٠٦] » .

وأغراه خلقه وفلسفته بالتعاطف مع الثورة البروتستنتينية . فلما حصل الهيجونوت حيناً على التسامح من الحكومة ، بل وعلى الاشتراك فيها ، أعلن راموس اتباعه المذهب الإصلاحى الجديد (١٥٦١) . وفى بواكير عام ١٥٦٢ مزق بعض تلاميذه الصور الدينية المعلقة فى كنيسة كلية بريسل . وواصلت الحكومة دفع راتبه ، ولكن مركزه كان يزداد حرجاً . فلما نشبت الحرب الأهلية (١٥٦٢) غادر باريس بترخيص مرور من كاترين دى مديتشى ، ثم عاد بعد عام حين وقعت معاهدة الصلح . وقد رفض فى أدب دعوة وجهت إليه ليشغل كرسياً فى جامعة بولونيا ، معتذراً بأن فرنسا طوقت عنقه بدين لا يسمح له بالرحيل عنها .

أما المعركة التى أفضت إلى موته فقد أصبحت علنية حين أفلح ألد أعدائه المدعو جاك شاربنتييه ، فى أن يشترى بالمال كرسى الرياضيات بالكلية الملكية (١٥٦٥)(١٠٧) ، على الرغم من اعترافه صراحة بجهله فى العلوم الرياضية . وندد راموس بهذا التعيين ، فهدده شاربنتييه ، ولجأ راموس إلى المحاكم لتحميه ، فأودع شاربنتييه السجن ، ولكن أفرج عنه بعد قليل ، وحاول بعضهم اغتيال راموس مرتين ، فلما استؤنفت الحرب الأهلية بين الكاثوليك والبروتستنت (١٥٦٧) غادر باريس ثانية . وقضت الحكومة الآن بألا يقوم بالتدريس فى الجامعة أو الكلية الملكية غير الكاثوليك . فلما عاد راموس إلى باريس اعتزل الحياة العامة ، ولكن كاترين واصلت دفع راتبه وضاعفته ، وأصبح حراً فى أن يفرغ للدرس والتأليف .

وفى يوليو ١٥٧٢ دعاه مونلوك أسقف فالانس للانضمام إلى بعثة موفدة لبولنده ، ولعل الأسقف توقع حدوث مذبحة القديس بارتولوميو ، وفكر فى حماية الفيلسوف الشيخ . ولكن راموس رفض ، إذ لم يرقه مشروع تنصيب الأمير هنرى أنجو على عرش بولندة. وسافر مونلوك فى ١٧ أغسطس ،

وبدأت المذبحة يوم ٢٤ . وفى اليوم السادس والعشرين اقتحم رجلان مسلحان كلية بريسل وصعدا إلى الطابق الخامس حيث مكتب راموس . ووجداه يصلى فرماه أحدهما برصاصة فى رأسه ، وطعنه الآخر بسلاحه ، ثم قذفه الاثنان معاً من النافذة . وجر الطلبة أو الرعاع الجسد الذى مازال ينبض بالحياة إلى نهر السين وألقوه فيه ، وأخرجه نفر آخر منهم وقطعوه إربا[١٠٨]. أما من الذى استأجر القتلة فعلمه عندالله ، ويبدو أنها ليست الحكومة ، فالظاهر أن شارل التاسع وكاترين ظلا راضيين عن راموس إلى النهاية[١٠٩] ، واغتبط شاربنتييه بالمذبحة وبقتل خصمه : « هذه الشمس الساطعة التى أضاءت فرنسا خلال شهر أغسطس . . . لقد زال الهراء بزوال صاحبه . وكل الناس الطيبين يفيضون بشرا[١١٠] » . وبعد عامين مات شاربنتييه نفسه ، بتأنيب الضمير كما يقول بعضهم ، ولكن ربما كان هذا شرفاً لا يستحقه .

لقد بدا راموس مهزوماً سواء فى الحياة أو التأثير . فأعداؤه انتصروا عليه ، ومع أن بعض « الراموسيين » سمعت أصواتهم فى الجيل التالى فى فرنسا وهولندة وألمانيا ، فان الفلسفة الكلامية التى حاربها استعادت تفوقها ، ونكست الفلسفة الفرنسية رأسها حتى جاء ديكارت . ولكن إذا كانت الفلسفة لم تحرز فى هذه الحقبة إلا كسباً ضئيلا ، فان الخطوات التى خطاها العلم كانت خطيرة ؛ لقد بدأ العلم الحديث بكوبرنيق وفيساليوس . وتضاعفت المساحة المعروفة من الدنيا ، وتغير منظر العالم كما لم يتغير قط من قبل فى التاريخ المدون . وأخذت المعرفة تنمو سريعاً من حيث المجال والانتشار ، وراح استعمال اللغات الوطنية فى العلم والفلسفة — على نحو ما فعل باريه وباراسيلسوس فى الطب ، وراموس فى الفلسفة — يتسع فيشمل تعليم الطبقات الوسطى وأفكارها التى اقتصرت من قبل على المتخصصين من العلماء والقساوسة . وتحطمت « كعكة التقاليد » ، وانكسر قالب العقيدة ، وتهاوت قبضة الاستناد إلى السلف . وحل الإيمان من مراسيه فتدفق بحرية جديدة متخذاً أشكالا لا حصر لها .

كان كل شيء يجرى متدفقاً إلا الكنيسة . ووقفت حيناً وسط هذه الثورة حائرة مشدوهة ، لا تكاد أول الأمر تدرك خطورة الأحداث ؛ ثم تصدت فى عزيمة وتصميم لذلك السؤال الخطير الذى واجهها : أمن واجبها أن تكيف تعاليمها وفق مناخ الأفكار وسيولتها الجديدين ، أم تقف جامدة وسط كل التقلبات ، وتنتظر حتى يرد بندول الفكر والعاطفة الناس ، فى تواضع وتعطش ، إلى تعزياتها وسلطانها ؟ وكان جوابها عن هذا السؤال هو الفيصل فى تاريخها الحديث .

الكتاب الخامس

معارضة الإصلاح البروتستنتى

١٥١٧ — ٦٥

الفصل الثامن والثلاثون

الكنيسة والإصلاح

١٥١٧ – ٦٥

---

١ – المصلحون البروتستنت الإيطاليون

ما كان المرء ليتوقع أن يجد فى إيطاليا الوثنية مناخاً ، المشركة بنية ، المحبذة لإيمان لطيف فنان ، الآهلة بالقديسين الخالدين تتنقل صورهم – سواء المرهبة منها والمحبوبة – كل سنة بين الشوارع ، المثرية بفضل الذهب الذى يبعث به إلى الكنيسة العديد من الدول التابعة – نقول إن المرء ما كان ليتوقع أن يجد فى بلد كهذا رجالا ونساء آلوا على أنفسهم أن يغيروا هذا الإيمان الجميل المقدس – ولو لقوا دون هذا حتفهم أحياناً – بعقيدة كابية سندها السياسى هو كره أمم الشمال أن تسمن إيطاليا بعائدات تدينها . ومع ذلك فقد ظهر فى كل مكان بايطاليا أناس شعروا بالمفاسد التى حطت من قدر الكنيسة شعوراً أحد وأصدق حتى من شعور الألمان أو السويسريين أو الإنجليز . وكانت الطبقات المتعلمة تطالب فى إيطاليا أكثر منها فى أى بلد آخر بتحرير العقل من الولاء للأساطير التى سحرت الجماهير وسيطرت عليها حتى ولو كان هذا الولاء ظاهرياً ، هذا مع أن هذه الطبقات المتعلمة كانت تتمتع فعلا بقسط من حرية التعليم والتفكير .

ظهرت بعض كتابات لوثر فى أكشاك الكتب بميلانو فى عام ١٥١٩ ، وبالبندقية فى عام ١٥٢٠ . واجترأ راهب فى كاتدرائية القديس مرقس نفسها (بالبندقية) على التبشير بتعاليم لوثر . وكتب الكردينال كارافا إلى البابا كلمنت السابع (١٥٣٢) يقول إن الدين هبطت أسهمه

فى البندقية ، وإن القليلين جداً من البنادقة يراعون الأصوام أو يجلسون على كرسى الاعتراف . وإن كتب الهرطقة رائجة هناك . ووصف كلمنت نفسه البدعة اللوثرية بأنها واسعة الانتشار بين صفوف الكهنة والعلمانيين فى إيطاليا . وفى عام ١٥٣٥ زعم المصلحون الدينيون الألمان بأن لهم ثلاثين ألفاً من الأتباع فى موطن الكنيسة الكاثوليكية[١] .

كانت أرفع السيدات مقاماً فى فرارا بروتستنتية غيوراً . فقد تشربت رينيه ابنة لويس الثانى عشر الأفكار الجديدة من مارجريت النافارية من جهة ، ومن مربيتها مدام سوبيز من جهة أخرى . وجاءت الأميرة بهذه السيدة معها حين تزوجت (١٥٢٨) من إركولى دستى ، الذى أصبح (١٥٣٤) ثانى دوق بهذا الاسم يحكم فرارا . وزارها كالفن هناك (١٥٣٦) وزاد معتقداتها البروتستنتية قوة وحدة . ووفد عليها كليمان مارو ، ثم أوبير لانجيه الفقيه الهيجونوتى . وتلقاهم إركولى جميعاً بأسلوب النهضة المهذب إلى أن صاح أحدهم خلال عبادة الصليب فى يوم السبت المقدس (١٥٣٦) « idolatria ! » (أى عبادة أوثان !) ، وهنا سمح إركولى لمحكمة التفتيش باستجوابهم . فهرب كالفن ومارو ، أما الباقون فيلوح أنهم نجوا بعد أن أكدوا سلامة عقيدتهم . ولكن رينيه جمعت بعد عام ١٥٤٠ حاشية بروتستنتية جديدة وانقطعت عن حضور الصلوات الكاثوليكية . وهدأ إركولى ثائرة البابا بنفيها إلى فيلا الدوق فى كونساندولو على نهر بو ، ولكنها أحاطت نفسها هناك أيضاً بالبروتستنت ، ونشأت بناتها على المذهب الإصلاحى الجديد . ولما خشى إركولى أن تصبح بناته البروتستيت بياذق عديمة القيمة فى شطرنج الزيجات السياسية نقلهن إلى دير للراهبات . وأخيراً سمح لمحكمة التفتيش بتوجيه الاتهام إلى رينيه وأربعة وعشرين شخصاً من بيتها . فدينت بالهرطقة وحكم عليها بالسجن المؤبد (١٥٥٤) . وهنا أعلنت إنكارها للهرطقة ، وتناولت القربان المقدس ، وأعيدت إلى حظيرة الدين

والسياسة[٢] ، ولكن آراءها الحقيقية وجدت تعبيراً صامتاً فى تلك العزلة الحزينة التى أنفقت فيها سنى عمرها الأخيرة . وبعد موت إركولى (١٥٥٩) عادت إلى فرنسا ، حيث جعلت من بيتها فى مونتارجى ملاذاً يحتمى به الهيجونوت .

كذلك مرت مودينا بلحظة بروتستنتية مثيرة ، وكانت هى أيضاً تحت حكم إركولى . وذلك أن أكاديمية العلماء والفلاسفة فيها سمحت بقسط كبير من حرية النقاش ، واشتبه فى هرطقة بعض رجالها ومنهم جابرييلى فاللوبيو تلميذ فيساليوس وخليفته . وكان راهب سابق يدعى باولو ريتشى يندد بالبابوية صراحة فى عظاته . وراح الناس يناقشون الأفكار اللوثرية فى الحوانيت والميادين والكنائس . وقبض على ريتشى وآخرين . وبسط الكردينال سادوليتو حمايته على الأكاديميين بحجة أنهم موالون للكنيسة وأن من الواجب إطلاق البحث لهم بوصفهم علماء[٣] . وقنع البابا بولس الثالث بتوقيعاتهم على اعتراف بالإيمان ، ولكن إركولى فض الأكاديمية (١٥٤٦) ، وأعدم لوثرى عنيد فى فرارا (١٥٥٠) ؛ وفى عام ١٥٦٧ ، حين عنفت الرجعية الكاثوليكية ، أحرق ثلاثة عشر رجلا وامرأة واحدة بتهمة الهرطقة فى مودينا .

وفى لوتشا أنشأ بييترو مارتيرى فرميلى ، رئيس دير الكهنة الأغسطينيين ، أكاديمية رفيعة المستوى ، وجلب لها أفذاذ المعلمين ، وشجع حرية المناقشة ، وقال لجمهوره الكبير من المصلين إن لهم أن ينظروا إلى سر القربان لا على أنه تحول معجز بل تذكر ورع لآلام المسيح ، وكان فى هذا لوثرياً أكثر من لوثر . فلما استدعى للمثول بين يدى مجلس رهبنته فى جنوة لاستجوابه هرب من إيطاليا ، وندد بأخطاء الكاثوليكية ، ومفاسدها ، وقبل وظيفة أستاذ للاهوت فى أكسفورد (١٥٤٨) . وقد شارك فى صياغة كتاب « الصلوات العامة » (١٥٥٢) بقسط مختلف

فيه ، وغادر إنجلتره حين استعادت الكاثوليكية سلطانها فيها ، ومات أستاذاً للعبرية بزيوريخ عام ١٥٦٢ . وقد حذا ثمانية عشر كاهناً من ديره فى لوتشا حذوه ، فهجروا رهبنتهم ورحلوا عن إيطاليا .

كان الفضل فى توجيه فرميلى وسورانو أسقف برجامو وكثيرين غير هذين إلى الأفكار الجديدة لرجل يدعى جوان دى فالديس . ولعله هو وشقيقه ألفونسو ، وهما من أسرة قشتالية عريقة ، ألمع التوائم مواهب فى التاريخ . أما ألفونسو ، تلميذ إرزمس الوفى ، فقد أصبح سكرتيراً لاتينيا لشارل الخامس ، وكتب Dialogo de Lactano (١٥٢٩) ، وفى هذا الحوار دافع عن « نهب روما » ، وقال إن لوثر ما كان ليترك الكنيسة قط لو أنها أصلحت المفاسد التى ندد بها عن حق بدلا من أن تحكم بادانته . وأما جوان فقد شارك فى هذا الكتاب ذاته بحوار سماه Dialogo de Mercurio y caron ، كانت هرطقاته سياسية ، من ذلك قوله إن من الواجب إلزام الأغنياء بكسب قوتهم ، وإن ثروة الأمير ملك للشعب ، وينبغى ألا تبدد فى حروب أمبريالية أو دينية[٤] . وآثر كلمنت السابع جوان بطبيعة الحال ، فعينه أميناً بالقصر البابوى حين كان فى الثلاثين من عمره . على أن جوان رحل إلى نابولى حيث انقطع للتأليف والتدريس ، وظل على ولائه للكنيسة ، ولكنه حبذ عقيدة لوثر فى التبرير بالإيمان ، ورأى للتصوف المخلص قدراً يسمو فوق أى طقس خارجى من طقوس العبادة . والتف حوله جماعة ممتازة من الرجال والنساء وارتضوا زعامته : كفرميلى ، وأوكينو ، والشاعر ماركانطونيو فلامينيو ، وبيترو كارنيزيكى ، وفيتوريا كولونا ، وكوستانزا دافالوس دوقة أمالفى ، وإيزابللا مانريكيز أخت رئيس محكمة التفتيش الأسبانية ، وجوليا جونزاجا التى عرفنا ما كانت تتمتع به من جمال رائع . وبعد أن مات جوان فالديس (١٥٤١) تفرق تلاميذه فى أرجاء

أوربا . وظل بعضهم وفياً للكنيسة كفتوريا كولونا ، وطور آخرون تعاليمه فبلغوا بها الهرطقة السافرة . وقطعت رءوس ثلاثة من صغار تلاميذه وأحرقوا فى نابلى عام ١٥٦٤ ، وكذلك كانت نهاية كارنيزيكى بروما فى عام ١٥٦٧ . أما جوليا جونزاجا فقد أنقذها موت البابا بولس الرابع ، وكان رجلا قاسياً لا يرحم ، ودخلت ديراً للراهبات (١٥٦٦) وهكذا انتهت جماعة الإصلاح النابولية .

أما برناردينو أوكينو فقد جاز بكل مراحل التطور الدينى . عاش فى مدينة سيينا بقرب مسقط رأس القديسة كاترين ، حياة تضارع حياتها تقوى وورعاً . وانضم إلى رهبان الفرنسسكان ولكنه وجد نظامهم أكثر رخاوة مما يلائم مزاجه ، فانتقل إلى رهبنة الكبوشيين الأكثر صرامة . وقد عجب الرهبان من نكرانه النسكى لذاته ، وإذلاله العنيف لجسده ، ولما نصبوه وكيلا عاماً لهم أحسوا أنهم اختاروا قديساً . وترددت مواعظه فى أرجاء إيطاليا — فى سيينا ، وفلورنسة ، والبندقية ، ونابلى ، وروما ؛ إذ لم تسمع البلاد نظيرها حرارة أو بلاغة منذ عهد سافونارولا قبل ذلك بقرن . وذهب شارل الخامس ليسمعه ، وتأثرت فتوريا كولونا به أعمق التأثر ، أما بيترو أريتينو ، الذى جرب كل الخطايا تقريباً ، فقد حركه الاستماع إليه فانقلب مفرطاً فى تقواه . وضاقت كل الكنائس بسامعيه على رحابتها ، ولم يخطر ببال أحد أن هذا الرجل سيموت مهرطقاً .

ولكنه التقى بفالديس فى نابلى ، وبفضله ألم بمؤلفات لوثر وكالفن . ووافقت عقيدة التبرير بالإيمان روحه ، فبدأ يلمح لها فى عظاته . وفى عام ١٥٤٢ دعى للمثول أمام السفير البابوى فى البندقية ومنع من الوعظ . وما لبث البابا بولس الثالث أن دعاه إلى روما ليناقش معه الآراء الدينية لبعض الرهبان الكبوشيين . ولعل أوكينو كان يثق بالبابا المستنير ، ولكنه خاف ذراع محكمة التفتيش الطويلة ، وحذره الكردينال كونتاريني من

الخطر المحدق به . وفجأة قرر قديس إيطاليا ومعبودها هذا ، بعد أن التقى ببيتر فرميلي فى فلورنسة ، أن يحذو حذوه ويعبر جبال الألب إلى بلد بروتستنتى ، وأعطاه أخ لفتوريا كولونا جواداً ، وفى فرارا أعطته رينيه ثياباً . ومضى مخترقاً إقليم جريزون إلى زيوريخ ومنها إلى جنيف . وقد أبدى استحسانه للنظام البيورتانى الذى كان كالفن يرسى أسسه هناك ، ولما كانت ألمانيته أقوى من فرنسيته فقد انتقل إلى بازل ثم إلى ستراسبورج ثم إلى أوجزبورج ، محاولا كسب قوته بلسانه أو قلمه . وفى عام ١٥٤٧ دخل شارل الخامس أوجزبورج سيداً على ألمانيا بعد ان سحق البروتستنت فى مولبرج . ونمى إليه أن الراهب الكبوشى الذى سمعه فى نابلى يعيش هناك رجلا متزوجاً ، فأمر القضاة بالقبض عليه ، ولكنهم تستروا على فرار أوكينو ، الذى هرب إلى زيوريخ وبازل . ولما أوشك زاده على النفاد ، تلقى دعوة من رئيس الأساقفة كرامر للذهاب إلى إنجلترة . وهناك عكف على العمل بوصفه كاهناً فخرياً يتقاضى معاش تقاعد فى كنتربرى ست سنوات (١٥٤٧ — ٥٣) ، وقد ألف كتاباً كان له أثر قوى فى قصيدة ملتن « الفردوس المفقود » . ولكنه عجل بالعودة إلى سويسرة حين اعتلت مارى تيودور العرش .

وحصل على وظيفة راع للكنيسة فى زيوريخ . ولكن الشعب استاء من آرائه التوحيديه ، وطرد حين نشر حواراً بدا فيه المدافع عن تعدد الزوجات أقوى حجة من نصير الزواج الواحد . ومع أن ذلك كان فى شهر ديسمبر (١٥٦٣) ، فقد أمر بمغادرة المدينة خلال ثلاثة أسابيع . ورفضت بازل الإذن له بالإقامة فيها . وسمح له بالمكث فترة وجيزة فى نورمبرج ، وما لبث أن خرج بأسرته قاصداً بولندة . وكانت يومها بالقياس إلى غيرها ملاذاً للمريبين من المفكرين . واشتغل بالوعظ فى كركاو زمناً ولكنه طرد حين نفى الملك جميع الأجانب غير الكاثوليك (١٥٦٤) . وفى الطريق من بولندة إلى مورافيا قضى الطاعون على ثلاثة من أبنائه الأربعة . ولم

يعش بعدهم سوى شهرين ، ومات فى شاكاو فى ديسمبر ١٥٦٤ وكانت آخر كلماته تقريباً « لست أريد أن أكون بولنجرياً ولا كالفينا ولا بابوياً ، بل مسيحياً فقط » (٥) . ولم يكن هناك أشد من هذا خطراً .

أما أن تتحول إيطاليا إلى البروتستنتية فكان بالطبع ضرباً من المحال .. فقد كان عامة الشعب هناك برغم عدائهم للاكليروس متعلقين بالدين وإن لم يؤموا الكنائس . كانوا يحبون الاحتفالات والمراسيم التى قدسها مرور الزمن ، ويحبون القديسين المعينين أو المعزين ، ويحبون العقيدة التى ندر تشككهم فيها ، والتى رفعت حياتهم من فقر بيوتهم إلى سمو أعظم الدرامات التى تصورها عقل الإنسان — وهى افتداء الإنسان الساقط بموت إلهه . وأعان خضوع إيطاليا السياسى لأسبانيا المغالية فى التدين على إبقاء شبهى الجزيرة كاثوليكيتين . وكانت ثروة البابوية ميراثاً إيطالياً ومصلحة ايطالية راسخة ، وأى إيطالى يرى القضاء على هذه المنظمة الجابية للجزية كان يبدو فى نظر معظم الإيطاليين مشرفاً على الجنون . وقد اختلفت الطبقات العليا مع البابوية باعتبارها قوة سياسية تتسلط على وسط إيطاليا ، ولكنها اعتزت بالكاثوليكية عوناً لا غنى عنه للنظام الاجتماعى والحكومة الحافظة للسلام ، وأدركت أن عظمة الفن الإيطالى مرتبطة بالكنيسة بفضل إلهام أساطيرها ومعونة ذهبها . لقد أصبحت الكاثوليكية ذاتها فناً ، وطغت عناصرها الحسية على عناصرها النسكية واللاهوتية ؛ فالزجاج المعشق ، والبخور ، والموسيقى ، والعمارة ، والنحت ، والتصوير ، وحتى الدراما — هذه كلها كانت فى الكنيسة ومن الكنيسة ، وبدت فى مجموعها المعجز جزءاً لا ينفصل عنها . ولم يكن بفنانى إيطاليا وعلمائها حاجة إلى التحول عن الكاثوليكية ، لأنهم حولوا الكاثوليكية إلى العلم والفن . وكان المئات بل الألوف من العلماء والفنانين يتمتعون بمعونة الأساقفة والكرادلة والبابوات ، وارتقى الكثير من الإنسانيين ، وبعض الشكاكين المؤدبين ،

إلى مكانة مرموقة فى الكنيسة . وأحبت إيطاليا الجمال القريب المنال حباً جماً لم يسمح لها أن تسلب نفسها فى سبيل الحقيقة البعيدة المنال . وهل وجد الحقيقة هؤلاء التيوتون المتعصبون ، أو ذلك البابا المصغر ، المتجهم ، الحاكم بجنيف ، أو ذلك الغول القاسى المتربع على عرش إنجلترا ؟ وأى هراء محزن يتصايح به هؤلاء المصلحون — فى الوقت الذى نسيت فيه الطبقات المثقفة فى إيطاليا الجحيم والهلاك كل النسيان ! كان فى وسع المرء أن يفهم الرفض الصامت المستتر للاهوت المسيحى إيثاراً لربوبية غامضة لطيفة ، أما تغيير سر التحول (تحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه) ليحل محله هول جبرية محتومة فذلك أشبه بالانتقال من رمزية مبهجة إلى سخافة انتحارية . وفى هذا الوقت بالذات ، بعد أن بسطت الكنيسة جناحيها الغافرين على نزعات الإيطاليين الوثنية ، كان كالفن يطالب الدنيا بأن تكبل نفسها بأغلال بيورتانية تهدد بتجريد الحياة من كل فرح وتلقائية . وأنى للبهجة والفن الإيطاليين أن يدوما إذا كف هؤلاء التيوتون والإنجليز الهمج عن إرسال نقودهم أو جلبها إلى إيطاليا ؟ .

٢ — المصلحون الكاثوليك الإيطاليون

ونتيجة لهذا كله اتجه الإجماع فى إيطاليا إلى ضرورة الإصلاح داخل الكنيسة . والحق أن رجال الكنيسة المخلصين ظلوا قروناً يسلمون بالحاجة إلى الإصلاح الكنسى بل ويطالبون به . ولكن تفجر حركة الإصلاح البروتستنتى وتقدمها أضافا إلحاحاً جديداً على الحاجة والمطالبة « وانصب على رأس الإكليروس سيل غامر من الشتائم فى المئات والألوف من النبذ والصور الساخرة »(٦) . ومس « نهب روما » ضمير الكرادلة وجماهير الشعب المرتاعين كما مس دخولهم . وأعلن عشرات من القساوسة أن هذه الكارثة نذير من الله . وفى عظة للأسقف ستافيليو أمام الروتا (وهو فرع قضائى

من الإدارة البابوية) عام ١٥٢٨ علل ضرب الله لعاصمة العالم المسيحى بعبارات أشبه ما تكون بلغة البروتستنت فقال « لأن البشر كلهم فسدوا ؛ إننا لسنا مواطنى مدينة روما المقدسة ، بل مواطنى بابل ، مدينة الفساد »(٧) . وهو ما قاله اوثر .

قبيل عام ١٥١٧ ، فى تاريخ غير مؤكد ، أسس جوفانى بييترو كارافا والكونت جاتانو داتينى « مصلى الحب الإلهى » فى روما للصلاة وإصلاح الذات . واختلف إلى المصلى خمسون من الرجال النابهين ، منهم إياكوبو سادوليتو ، وجانماتيو جيبرتى ، وجوليانو داتى . وفى عام ١٥٢٤ أسس جاتانو طريقة للاكليريكيين النظاميين ، وهم قساوسة علمانيون يخضعون نفسهم للنذور الديرية . وفض المصلى بعد « نهب روما » ، والتحق كارفا وآخرون بالطريقة الجديدة التى اتخذت لها اسماً هو التياتية ، نسبة إلى تياتى أوتشييتى ، مقر أسقفية كارافا . وقبل فى الطريقة رجال مرموقون مثل : بييترو بيميو ، وماركانطونيو فلامينيو ، ولويجى بريولى ، وجاسبارو كونتارينى ، وريجينالد بولى . . . وكلهم نذروا أنفسهم للفقر ، والعناية بالمرضى ، وحياة الفضيلة الصارمة ، وكان هدفهم كما قال أول مؤرخ لهم : « تعويض ما فى الإكليروس من نقص ، بعد أن أفسدت رجاله الرذيلة والجهل مما أفضى إلى خراب الشعب »(٥) . وانتشر أعضاء الطريقة فى شتى أنحاء إيطاليا ، وأسهم المثل الذى ضربوه كما أسهمت الإصلاحات البابوية والمجمعية ، والمثل الذى ضربه الكبوشيون والجزويت ، فى إصلاح خلق الإكليروس الكاثوليكى والبابوات . وضرب كارافا المثل بالتخلى عن كل وظائفه الكنسية ذات الموارد ، وتوزيع ثروته الكبيرة على الفقراء :

وكان جيبرتى فى شخصه وسيرته صورة للاصلاح الكاثوليكى . فهو فى بلاط ليو العاشر من أئمة الإنسانيين ، وفى عهد كلمنت السابع أمين أول للادارة البابوية . وإذ هزته كارثة عام ١٥٢٧ ، اعتكف فى

أسقفيته بفيرونا . وعاش عيشة الراهب المتقشف وهو بدير أسقفيته . وأزعجه انحلال الدين هناك — فالكنائس متهدمة ، والوعظ نادر ، والقساوسة يجهلون اللاتينية التي يتلون بها القداس ، والشعب لا يجلس إلى كرسي الاعتراف إلا نادراً . واستطاع بالقدوة الحسنة والمبدأ القويم وانتظام الحازم أن يصلح أكليروسه . يقول مؤرخ كاثوليكي « وسرعان ما ملئت السجون بالقساوسة ذوى الخليلات »[٩] وأعاد جيبرتي إنشاء أخوة البر Confraternita della Cartta التي أسسها الكردينال جوليانو دى مديتشي عام ١٥١٩ ، وبنى ملاجىء للأيتام ، وفتح مصارف الشعب لإنقاذ المقترضين من براثن المرابين . وقام بمثل هذه الإصلاحات الكردينال إركولى جونزاجا (ابن إيزابللا دستى) فى مانتوا ، وماركو فيدا فى ألبا ، وفابيو فيجيلى فى سبوليتو ، وكثير غيرهم من الأساقفة الذين أدركوا أن على الكنيسة أن تصلح ذاتها أو تموت .

وسلكت الكنيسة فى تاريخ لاحق العديدين من أبطال الإصلاح الكاثوليكي ، الذين عاونوا على إنقاذها ، فى عداد قديسيها . ومن هؤلاء القديس فيليب نيرى ، وهو نبيل فلورنسى شاب ، أسس فى روما (حوالى عام ١٥٤٠) جماعة غريبة تدعى Trinita de Pellegrini ويقضى نظام هذه الجماعة أن يحضر اثنا عشر علمانياً قداس الأحد ، ثم يحجون إلى إحدى الباسلقات ، أو إلى أحد المروج الريفية ، وهناك يلقون أو يسمعون أحاديث التقوى والورع ، ويترنمون بالموسيقى الدينية . وقد أصبح كثير من أعضاء الجماعة قساوسة ، وسموا أنفسهم « آباء المصلى » ، ومن ميولهم الموسيقية أضافت كلمة oratorio — التى تعنى فى الأصل مكان الصلاة — معنى جديداً إلى معناها القديم ، وهو الترنيمة الكورالية . ومنهم القديس شارل بورروميو — ابن أخى البابا بيوس الرابع — الذى استقال من وظيفة الكردينال الرفيعة فى روما ليطهر الحياة الدينية فى ميلانو .

فأقر النظام بين رجال الإكيروس بوصفه رئيساً للاساقفة هناك ، وكان لهم في تقشفه وتعبده الأسوة الحسنة . وقد لقي في سبيل الإصلاح بعض المقاومة ، ذلك أن طريقة دينية تدعى « أوميلياتي » ،كانت من قبل تفخر بتواضعها ، انحدرت إلى درك الراحة والدعة بل الاباحية . وأمر الكردينال رهبانها أن يطيعوا قانون رهبنتهم ، فأطلق أحدهم النار عليه وهو يصلي في الكنيسة . وكانت نتيجة هذه الفعلة أن تحولت رهبة الشعب إلى إجلال لهذا الرجل الذي رأى في الإصلاح خير رد على حركة الإصلاح البروتستنتي . وبفضل جهوده إبان حياته وفي أرجاء أبرشيته أصبح الخلق المهذب القاعدة الفاشية بين الإكليروس والعلمانيين على حد سواء . وأحس الناس بتأثيره في جميع أنحاء إيطاليا ، وقد أسهم هذا التأثير في تحويل الكرادلة من نبلاء متعلقين بنعيم الدنيا إلى كهنة أتقياء .

وبدأ البابوات يوجهون اهتمامهم الصادق إلى الإصلاح الكنسي بعد أن حفزهم أمثال هؤلاء . ففي بواكير عهد البابا بولس الثالث قدم له الفقيه الشهير جوفان باتيستا كاتشيا بحثا في إصلاح الكنيسة قال في ديباجته « أرى أن الكنيسة أمنا المقدسة : . . قد اعتراها من التغير الكبير ما تبدو معه وقد تجردت من سمات طابعها االتبشيري ؛ وليس فيها أثر للتواضع وضبط النفس والتعفف والقوة الرسولية »[١٠] . وأظهر البابا بولس ميله بقبوله إهداء الكتاب إليه . وفي ٢٠ نوفمبر ١٥٣٤ عهد إلى الكرادلة بيكولوميني ، وسانسفيرينو ، وتشيزي ، أن يضعوا برنامج تجديد خلقي للكنيسة ، وفي ١٥ يناير ١٥٣٥ أمر بتنفيذ مراسيم الإصلاح التي أصدرها البابا ليو العاشر عام ١٥١٣ تنفيذاً دقيقاً . على أنه أجل الإصلاح الإيجابي بعد أن وقع في شراك السياسة البابوبة والإمبراطورية ، وأحدق به خطر زحف العثمانيين ، وكره وسط هذه الأزمات أن يهز بنيان الإدارة البابوية أو أداءها لوظيفتها بتغييرات جذرية ؛ ولكن الرجال

الذين رفعهم إلى مرتبة الكردينالية كانوا كلهم تقريباً معروفين بالنزاهة والتقوى . وفى يوليو عام ١٥٣٦ قرر عقد مؤتمر إصلاحى فى روما دعا إليه كونتارينى ، وكارافا ، وسادوليتو ، وكورتيزى ، وألياندر ، وبولى ، وتومازو باديا ، وفيديريجو فريجوزى أسقف جوبيو ، وكلهم رجال ملتزمون بالإصلاح ، وأمرهم أن يكتبوا تقريراً عن الرذائل الفاشية فى الكنيسة ، والوسائل التى يشيرون بها للتخفيف منها . وافتتح سادوليتو المؤتمر بأن قرر فى جرأة أن البابوات أنفسهم كانوا أهم سبب فى تدهور الكنيسة بخطاياهم وجرائمهم وشرههم للمال[11] . وظل المؤتمر يجتمع يومياً على مدى ثلاثة شهور . أما روحه الكبير ، وهو جاسبارو كونتارينى ، فكان ألمع رجال الإصلاح الكاثوليكى . ولد فى البندقية (١٤٨٣) من أسرة شريفة ، وتلقى علومه فى بادوا المتحررة ، وما لبث أن تقلد منصباً مرموقاً فى حكومة البندقية . وقد أوفد سفيراً لدى شارل الخامس فى ألمانيا ، وصحبه إلى إنجلتره وأسبانيا ، ثم مثل مجلس الشيوخ فى البلاط البابوى (١٥٢٧ — ٣٠) . واعتزل السياسة وانقطع للدرس ، وجعل من بيته ملتقى لخيرة رجال الدولة والكنيسة والفلاسفة والانسانيين فى البندقية . ومع أنه كان علمانياً فانه كان يطيل التفكير فى الإصلاح الكنسى ، وتعاون تعاوناً نشيطاً مع كارافا . وجيبرتى ، وكورتيزى ، وبولى . وعرفته إيطاليا كلها مزيجاً نادراً من الذكاء والخلق ، وفى عام ١٥٣٥ ، ودون أى التماس منه ، عينه بولس الثالث كردينالا مع أنه لم يلتق به قط[12] .

وفى مارس ١٥٣٧ قدمت اللجنة للبابا « نصيحة الكرادلة المعينين لإصلاح الكنيسة » : وقد فضحت هذه النصيحة الاجتماعية ، بحرية مذهلة ، مفاسد الحكم البابوى ، وعزتها بشجاعة أولا « إلى مغالاة الفقهاء الكنسيين عديمى الضمير فى سلطة البابا مغالاة مستهترة » . ورأى التقرير « أن بعض

البابوات ادعوا الحق فى بيع الوظائف الكنسية ، وقد أفشت هذه المتاجرة بالرتب الكهنوتية الرشوة والفساد فى الكنيسة على نطاق واسع بحيث أشرفت هذه المنظمة العظمى على الخراب بسبب انعدام الثقة فى نزاهتها . وحث التقرير على فرض رقابة صارمة على كل نشاط تقوم به الإدارة البابوية ، وعلى فرض رقابة على الإعفاءات الكنسية ، وعلى وقف دفع المال لنيلها ، وعلى مستوى أعلى فى جميع الوظائف وفى شروط اختيار الكرادلة والقساوسة ، وحظر الجمع بين عدة وظائف كنسية ذات دخل أو الانتفاع بهذه الوظائف غيابياً . وأضاف التقرير « لقد هجر معظم الرعاة قطعانهم فى العالم كله ووكلوها إلى الأجراء » . أما الطرق الديرية فيجب تجديدها ، وأما أديار الراهبات فيجب إخضاعها للرقابة الأسقفية ، لأن زيارة الرهبان لها أفضت إلى الفضائح وتدنيس المقدسات . وأما صكوك الغفران فيجب الإعلان عنها مرة واحدة فى العام فقط . واختتم التقرير بهذا النداء الحار للبابا .

« لقد أرضينا ضمائرنا ، ولنا وطيد الأمل فى أن نرى كنيسة الله وقد صلحت حالها تحت رياستكم . . . . لقد تسميتم باسم بولس ، فلعلكم تحاكونه فى محبته . لقد اختير أداة لحمل اسم المسيح إلى الوثنيين ، وأملنا أن تكونوا قد اخترتم لتحيوا فى قلوبنا وأعمالنا ذلك الاسم الذى نسى منذ أمد بعيد بين الوثنيين ومنا نحن الإكليروس ، ولتشفوا علتنا ، وتجمعوا خراف المسيح من جديد فى حظيرة واحدة ، ولتصرفوا عنا غضب الله وانتقامه الذى يتهددنا »(١٣) .

وتقبل بولس بروح طيبة هذه « النصيحة الذهبية » كما سماها الكثيرون ، وأرسل صورة منها لكل كردينال . أما لوثر فقد ترجمها إلى الألمانية ، ونشرها تبريراً كاملا لاختصامه روما ، على أنه حكم على كاتبى الوثيقة بأنهم « كذابون . . . وأوغاد يائسون ، يصلحون الكنيسة بالتملق »(١٤) . وفى

٢٠ أبريل ١٥٣٧ عين بولس أربعة كرادلة — كونتاريني ، وكارافا ، وسيمونيتا ، وجينوتشي — لإصلاح قسم الوثائق ، وهو ذلك القسم من الإدارة البابوية الذى استشرت فيه الرشوة فى منح تلك الإعفاءات ، والإنعامات ، والامتيازات ، والترخيصات ، والوظائف ذات الدخل ، المحجوزة لتصرف السلطة البابوية . وكانت المهمة تتطلب الشجاعة ، لأن قسم الوثائق كان يسلم البابا كل سنة ٥٠,٠٠٠ دوكاتية (١,٢٥٠,٠٠٠ دولار ؟)— وهى نصف دخله تقريباً(٥١) . وللفور تعالت صرخة ألم من موظفى القسم ومن يلوذ بهم ، فشكوا من غلاء المعيشة فى روما ، وزعموا أن أسرهم سيحل بها العوز سريعاً لو أنهم أكرهوا على مراعاة حرفية القانون . ومضى بولس فى حذر ، ومع ذلك كان « عمل الإصلاح يسير بهمة » كما كتب الباندر إلى موروني (٢٧ أبريل ١٥٤٠) . وفى ١٣ ديسمبر دعا بولس ثمانين من رؤساء الأساقفة والأساقفة المقيمين بروما ، وأمرهم بالعودة إلى كراسيهم . وهنا ارتفعت مئات الاعتراضات مرة أخرى . وحذر موروني البابا من أن العجلة فى تنفيذ هذا الأمر قد تحمل بعض الأساقفة على الانضمام إلى اللوثريين إذ يعودون إلى مناطق غلب عليها الآن المذهب البروتستنتى ، وهذا ما حدث فعلا فى عدة حالات . وسرعان ما تاه بولس فى بيداء السياسة الإمبراطورية ، وترك الإصلاح لخلفائه من بعده .

وانتصرت الحركة المطالبة بالإصلاح الداخلى حين ارتقى زعيمها كارافا كرسى البابوية (١٥٥٥) باسم بولس الرابع . وصدر الأمر إلى الرهبان الغائبين عن أديارهم دون موافقة رسمية وضرورة واضحة بالعودة إليها فوراً . وفى ليلة ٢٢ أغسطس ١٥٥٨ أمر البابا باغلاق جميع أبواب روما والقبض على جميع الرهبان الآبقين . واتبعت إجراءات مماثلة فى جميع الولايات البابوية . وأرسل بعض المدنيين للعمل فى سفن تشغيل الأسرى .

وأبطل الاحتفاظ برياسة الأديار لإعالة الموظفين الغائبين بدخولها . وطلب إلى الأساقفة ورؤساء الأديار الذين لا يخدمون الإدارة البابوية فعلا فى وظيفة ثابتة أن يعودوا إلى وظائفهم وألا حرموا من دخلهم . وحظر الانتفاع بالدخول الكنسية المتعددة . وأمرت كل أقسام الإدارة البابوية بخفض رواتبها ، وإبعاد كل شبهة اتجار فى التعيين للوظائف الكهنوتية ، وبعد أن خفض البابا بولس موارده على هذا النحو ، بذل تضحية أخرى فوقف دفع رسم التثبيت الذى كان يؤديه من يرقون رؤساء أساقفة . وصدرت عدة مراسيم بابوية ضد المرابين ، والممثلين ، والبغايا ؛ أما القوادون فتقرر إعدامهم . وطلب إلى دانييلى دا فولتيرا أن يغطى بطريقة العضلات الخياطية أكثر الملامح التشريحية افتضاحاً فى لوحة ميكلانجلو « الدينونة الأخيرة » ؛ ويجب التسليم بأن ذلك المجزر الرهيب ، مجزر الأجساد الهالكة أو المخلصة ، لم يجد له من قبل مكاناً مناسباً فوق مذبح البابوات . واتخذت روما الآن مظهراً من التقوى والفضيلة الخارجية لا يلائم طبيعتها . وأصلحت الكنيسة أكليروسها وأخلاقها فى إيطاليا ، ووراء إيطاليا بصورة أقل وضوحاً ؛ تاركة عقائدها سليمة فى كبرياء . لقد تأخر الإصلاح طويلا، ولكنه حين أتى كان مخلصاً وباهراً .

٣ — القديسة تريزا والإصلاح الديرى

وكان التجديد الخلقى يجرى فى الوقت ذاته فى الطرق الديرية . وفى وسعنا أن نتصور سمعة هذه الطرق من ملحوظة أبداها ميكلانجلو التقى السليم العقيدة ، ذلك أنه حين نمى إليه أن سباستيان ديل بيومبو سيرسم صورة راهب فى كنيسة سان بيترو بمونتوريو نصحه بألا يفعل ، لأنه إذا كان الرهبان قد أفسدوا الدنيا على ما بها من سعة ، فلا غرابة أن يفسد

راهب الكنيسة وهى بهذا الصغر(١٦) . وصمم جريجوريو كورتيزى أن يصلح الرهبنة البندكتية فى بادوا فى صبر وأناة ، وجيرولامو سيريباندو الكهنة الأوغسطينيين ، وإيجيديو كانيزيو النساك الأوغسطينيين ، وباولو جوستنيانى الكامالدوليين .

وقامت طرق ديرية جديدة شددت على الإصلاح . فأسس أنطونيو ماريا لاكاريا كهنة القديس بولس النظاميين فى ميلانو (١٥٣٣) ، وهم جماعة من القساوسة ينذرون حياة الفقر الديرية . وكانوا أول الأمر يلتقون فى كنيسة القديس برنابا ، ومن هنا تسميتهم بالبرنابيين . وفى عام ١٥٣٥ وضعت القديسة أنجيلا نظام الراهبات الأورسوليات ليقمن بتعليم الفتيات ورعاية المرضى أو الفقراء ، وفى عام ١٥٤٠ أسس القديس يوحنا الإلهى جماعة «إخوان الرحمة» فى غرناطة للخدمة فى المستشفيات . وفى عام ١٥٢٣ اعتزم ماتيو دى باسى ، مدفوعاً بالرغبة الحارة فى الاقتداء بالقديس فرنسيس الأسيسى ، أن يتبع حرفياً نظام الرهبنة الأخير الذى خلفه مؤسس الطريقة الفرنسسكانية لرهبانها . وانضم إليه غيره من الرهبان ، وما وافى عام ١٥٢٥ حتى شجع تكاثرهم ماتيو على أن يلتمس من البابا اعتماد فرع جديد من الفرنسسكان ملتزم بأشد قواعد الرهبنة صرامة . واستطاع الرئيس الإقليمى للطريقة أن يستصدر أمراً بإيداعه السجن لعصيانه ، ولكن سرعان ما أطلق سراح ماتيو ، وفى عام ١٥٢٨ ثبت البابا كلمنت السابع طريقة الرهبان الكبوشيين الجديدة . وقد أطلق عليها هذا الاسم لأن رهبانها كانوا يلبسون نوع القلنسوة cappuccio التى لبسها فرنسيس . وكانوا يرتدون أخشن الثياب ، ويعيشون على الخبز والخضر والفاكهة والماء ، ويصومون أصواماً قاسية . ويسكنون قلالى ضيقة فى أكواخ حقيرة ، ولا يسافرون إلا مشاة ، ويمشون حفاة طوال العام . وقد اكتسبوا مكانة مرموقة بفضل رعايتهم المضحية لمرضى وباء

١٥٢٨ — ٢٩ . وكان ورعهم عاملا فى إبقاء فتوريا كولونا ونفر آخر ممن اعتنقوا البروتستنتية حديثاً فى حظيرة كنيسة ما زالت قادرة على إنجاب أمثال هؤلاء المسيحيين الغيورين .

أما أكثر الأشخاص إثارة للاهتمام فى عصر الإصلاح الديرى الذى نحن بصدده فرئيسة دير أسبانى رقيقة البدن شديدة السيطرة ، هى تريزا دى تشيبدا . كانت ابنة فارس قشتالى من آبلة ، فخور باستقامته المتطرفة وولائه للكنيسة . وقد درج على أن يقرأ على أسرته جانباً من حياة القديسين[١٧] . أما الأم ، المصابة بعلة مزمنة ، فكانت تطرد السأم عنها بقراءة روايات الفروسية ، وتشارك من فراش مرضها فى مغامرات أماديس الغالىّ . وتذبذب خيال تريزا فى طفولتها بين الحب الشاعرى والاستشهاد الطاهر المقدس . وحين بلغت العاشرة نذرت على نفسها حياة الرهبنة . ولكنها لم تلبث بعد سنوات أربع أن تفتح صباها عن حسناء تطفر بفرحة الحياة ، وتنسى ثوب الدير أمام الأثواب البهية التى ضاعفت من مفاتنها . وتوافد عليها المعجبون ، ووقعت فى حب أحدهم على تهيب ووجل ، فدعاها إلى موعد لقاء . وفى اللحظة الحاسمة أحست بالخوف ، واعترفت لوالدها بالمؤامرة الرهيبة . ولما كانت أمها قد ماتت ، فان الدون ألونزو دى تشيبدا أودع الفتاة الحساسة ديراً للراهبات الأوغسطينيات فى آبلة .

وكرهت تريزا حياة الدير ونظامه الكئيبين . ورفضت أن تقسم يمين الرهبنة ، وتطلعت فى صبر نافد إلى عيد ميلادها السادس عشر حين يسمح لها بمغادرة الدير . ولكن ما إن دنا هذا الهدف حتى مرضت مرضاً خطيراً وأشرفت على الموت . ثم تماثلت للشفاء ، ولكن مرح الشباب ولى . ويبدو أن ضرباً من الصرع الهستيرى أصابها ، ربما نتيجة للتمرد المكبوت على قيود غريبة عن غرائزها . وكانت النوبات تعاودها ثم تتركها

خائرة القوى . ونقلها أبوها من الدير وأرسلها لتعيش مع أخت لها غير شقيقة فى الريف . وفى طريقها أعطاها أحد أعمامها كتاباً من تأليف القديس جيروم . وقد وصفت الرسائل الحية التى احتواها الكتاب أهوال الجحيم ، وصورت مغازلات الجنسين كأنها الطريق المزدحم المفضى إلى الهلاك الأبدى . وقرأت تريزا الرسائل بشغف . وبعد نوبة شديدة أخرى طلقت كل فكرة فى السعادة الدنيوية ، وعزمت على الوفاء بنذر طفولتها . فعادت إلى آبلة ودخلت دير التجسد الكرملى (١٥٣٤) .

وسعدت حيناً وسط روتين الدير المهدىء ، روتين القداديس . والصلوات والاعترافات المطهرة ، ولما تناولت القربان شعرت بالخبز كأنه المسيح حقاً على لسانها وفى دمها . ولكن نظام الدير الرخو أقلقها . فالراهبات لا يسكن القلالى بل الحجرات المريحة ، ويأكلن الطعام الفاخر برغم الأصوام الأسبوعية ، ويتزين بالقلائد والأساور والخواتم ، ويستقبلن الزوار فى قاعة الاستقبال ، ويتمتعن بالأجازات الطويلة خارج أسوار الدير . وأحست تريزا أن هذه الظروف لا توفر لها الحماية الكافية من مغريات الجسد وأحلامه . ولعل هذه المغريات والأحلام ، بالإضافة إلى سخطها المتزايد ، جعلت نوباتها أكثر حدوثاً وأشد ألماً . وهنا أرسلها أبوها ثانية إلى أختها ، وأعطاها عمها ثانية كتاباً دينياً اسمه « الأبجدية الثالثة » لفرانسسكو دى أوزونا . وكان أبجدية فى الصلاة الصوفية ، الصلاة دون كلام ، لأن « الذين يدنون من الله فى صمت هم وحدهم الذين يمكن أن يسمعهم ويعطيهم جواباً » على حد قول المؤلف[١٨] . وفى عزلتها الريفية مارست تريزا هذه الصلاة الصامتة المتأملة التى لاءمت كل الملاءمة ما أحدثته بها النوبات من حالة شبيهة بالوجد .

وحاول طبيب يعالج بالأعشاب أن يداويها ، ولكن مستحضراته كادت تقتلها . ولما عادت إلى صومعتها فى آبلة (١٥٣٧) كانت مشرقة

على الموت ، تواقة إليه . ثم أصابتها أشد نوباتها عنفاً ، وراحت فى غيبوبة خالها الراهبات غيبوبة الموت ، وظلت يومين باردة لا حراك بها ، تبدو مقطوعة النفس ؛ وحفر الراهبات لها قبراً . ثم أفاقت ، ولكنها ظلت ضعيفة جداً بحيث لم تستطع أن تهضم طعاماً جامداً أو تحتمل أية لمسة . ورقدت ثمانية أشهر فى مستشفى الدير فيما يقرب من الشلل الكلى . وتحسنت حالها فأصبح شللها جزئياً ، ولكن « الفترات التى لم ترهقنى فيها الآلام المبرحة كانت فى الحق نادرة (١٩) » . وأقلعت عن كل أنواع العلاج الطبى ، وصممت على أن تعتمد كلية على الصلاة . وظلت ثلاث سنوات تتعذب وتصلى . وفجأة ، فى صباح يوم من أيام سنة ١٥٤٠ ، استيقظت العليلة طريحة الفراش ، التى بدت ميئوساً من شفائها ، لتجد أطرافها وقد فارقها الشلل . فقامت ومشت . ويوماً بعد يوم أخذت تشارك بنصيب أنشط فى أعمال الدير . وهلل الناس لشفائها باعتباره معجزة ، وكذلك كان اعتقادها فيه . ولعل الصلاة قد هدأت من ثائرة جهاز عصبى أرهقته الرغبات المصطرعة ، والشعور بالإثم ، وخوف الجحيم ؛ ومنحت أعصابها التى هدأت ، وبعد الأطباء عنها ، جسدها سلاماً لم تعهده من قبل .

وذاع صيت دير التجسد باعتباره المكان الذى حدث فيه شفاء معجز . وتوافد الناس من المدن المحيطة ليروا الراهبة التى شفاها الله ، وتركوا نقوداً وعطايا للدير المقدس . وشجعت رئيسة الدير هذه الزيارات ، وأمرت تريزا بالظهور أمام الزوار . وأزعج تريزا أن تجد أنها تستشعر لذة فى هذه الزيارات ، وفى هذه الشهرة ، وفى وجود رجال وسيمى الوجوه . وعادوها شعور بالإثم . وذات يوم (١٥٤٢) بينما كانت تتحدث فى قاعة الاستقبال إلى رجل استهواها بصفة خاصة ، خيل إليها أنها ترى المسيح واقفاً إلى جوار الزائر . وراحت فى غيبوبة ، واقتضى الأمر حملها إلى قلايتها على نقالة .

وظلت ترى هذه الرؤى طوال الستة عشر عاماً التالية ، وأصبحت عندها أكثر واقعية من الحياة . وفى عام ١٥٥٨ فيما هى غارقة فى صلاتها أحست بنفسها تخرج من جسدها وتصعد إلى السماء حيث رأت المسيح وسمعته . ولم تعد هذه الرؤى تضنيها ، بل على العكس من ذلك تنعشها . كتبت تقول :

« إن النفس التى كثيراً ما تضنيها وترهقها الآلام الرهيبة قبل حالة الوجد تخرج منها ممتلئة عافية مقبلة على العمل بشكل يدعو إلى الإعجاب . . . كأن الله شاء أن يشارك الجسد ذاته فى سعادة النفس بعد أن أطاع رغباتها . . . والنفس بعد هذه المنحة يملؤها قدر من الشجاعة عظيم إلى حد يجعل الجسد لا يشعر إلا بأوفر راحة إلو مزق فى تلك اللحظة إرباً فى سبيل الله »(٢٠) .

وفى مناسبة أخرى خيل إليها أن « ملاكاً رائع الحسن » قذف « سهماً طويلا من الذهب » فى رأسه نار « مخترقاً قلبي عدة مرات ، حتى وصل إلى صميم أحشائى » .

« كان الألم حقيقياً بحيث اضطرنى إلى الأنين بصوت عال ، ومع ذلك كان عذباً إلى حد مدهش لم أتمن معه الخلاص منه . ليس فى مباهج الحياة ما يستطيع أن يهب رضى أكثر من هذا . وحين سحب الملاك السهم تركنى وقد اضطرمت كلى بحب عظيم لله(*) »(٢١) .

هذه الفقرات وأشباهها مما كتبته القديسة تريزا تقبل بسهولة تفسيرات التحليل النفسي ، ولكن أحداً لا يستطيع التشكك فى إخلاص القديسة الشديد . فقد أيقنت كما أيقن اجناتيوس بأنها رأت الله ، وأن أعوص المشكلات كانت تحل لها فى هذه الرؤى .

« ذات يوم وأنا أصلى وهب لى أن أدرك فى لحظة واحدة كيف أن

(*) يحتفل أتقياء الأسبان بذكرى رؤيا الطعن هذه فى عيد مقدس يقع فى ٢٧ أغسطس من كل عام .

الله يرى ويحتوى كل الأشياء . . . وهذه من أبرز النعم التى منحنى الله إياها . . . فقد جعلنى الرب أفهم كيف أن إلهاً واحداً يمكن أن يكون فى ثلاثة أقانيم . وجعلنى أرى هذا فى وضوح شديد بحيث أخذنى عجب شديد كما غمرتنى سكينة عظمى . . . والآن حين أفكر فى الثالوث الأقدس . . . أشعر بسعادة لا ينطق بها »[٢٢] .

أما الراهبات أخوات تريزاً فقد عللن رؤاها بأنها ليست سوى أوهام ونوبات مرضية[٢٣] ، وإلى هذا الرأى كان يميل آباء اعترافها ، فقد قالوا لها فى جفاء « لقد خدع الشيطان حواسك » . وخال أهل المدينة أن الشياطين مستها ، وطالبوا محكمة التفتيش بفحصها ، واقترحوا أن يطرد قسيس شياطينها بالتعزيم . ونصحتها صديقة بأن تبعث للمحكمة بقصة حياتها ورؤاها ، فكتبت سيرتها فى كتابها المشهور « Vida » ، ففحصه رجال المحكمة ، وحكموا بأنه وثيقة مقدسة خليقة بأن تشدد إيمان كل من يقرؤها .

فلما أن دعم هذا الحكم مركز تريزا ، صممت — وقد بلغت الآن السابعة والخمسين — أن تصلح طريقة الراهبات الكرمليات . وبدلا من محاولة إعادة نظام النسك القديم فى دير التجسد ، قررت افتتاح دير منفصل دعت إليه من الراهبات وطالبات الرهبنة كل من تقبل عيشة الفقر المطلق . لقد كان الكرمليات القدامى يلبسن الخيش الخشن ، ويمشين حافيات ، ويقتصدن فى الطعام ويصمن أصواماً كثيرة . واشترطت تريزاً على راهباتها الكرمليات الحافيات نظاماً أقرب ما يكون إلى هذا النظام الصارم ، لا بوصفه غاية فى ذاته ، بل رمزاً للتواضع ولنبذ هذه الحياة الدنيا بما فيها من مغريات . وقامت فى طريقها مئات العقبات ؛ فندد أهل آبلة بالخطة لأنها تهدد بقطع كل اتصال بين الراهبات وأقاربهن . ورفض رئيس الطريقة الإقليمى الإذن لها بفتح دير جديد ، فلجأت تريزا إلى البابا بيوس

الخامس ، وظفرت بموافقته . ووجدت أربع راهبات قبلن الانضمام إليها ، وكرس دير القديس يوسف الجديد فى عام ١٥٦٢ فى شارع ضيق من شوارع آبلة . وكانت راهباته يلبسن صنادل من الحبال ، وينمن على القش ويصمن عن اللحم ، ويلتزمن ديرهن لزوماً دقيقاً .

ولم يرق راهبات الدير الأقدم — وعددهن ١٨٠ — هذا الفضح البسيط لأساليب حياتهن المتهاونة. وأمرت رئيسة الدير تريزا بأن تستأنف ارتداء ثوبها الأبيض السابق ، ولبس حذائها ، وأن تعود إلى دير التجسد ، زاعمة أنها التزمت قبلها بنذر الطاعة . وأطاعت تريزا . ودينت بخطيئة الكبرياء ، وحبست فى صومعتها . وقرر مجلس المدينة إغلاق دير القديس يوسف ، وأوفد أربعة رجال أشداء لإجلاء الراهبات اللائى لم يعد لهن الآن رئيسة . ولكن العذارى لابسات الصنادل قلن « إن الله يريدنا أن نمكث هاهنا ، فنحن إذن ماكثات » . ولم يجرؤ الموظفون القانونيون القساة على إكراههن على الجلاء . أما تريزا فقد قذفت الرعب فى قلب الرئيس الكرملى الإقليمى حين أومأت إلى أنه إنما يسىء إلى الروح القدس بوضعه العراقيل فى طريق خططها ؛ فأمر بالإفراج عنها . وغادرت الدير معها أربع راهبات ، وسارت النسوة الخمس إلى دارهن الجديدة وسط الثلوج ؛ وحيا الراهبات الأربع القدامى تريزا « Madre أما » لهن وهن سعيدات ، وأصبحت الآن معروفة فى أسبانيا كلها تقريباً باسم تريزا يسوع ، صديقة الله الحميمة .

وكان نظام رهبنتها يتسم بالمحبة والبهجة والحزم . فالبيت موصد فى وجه العالم ، لا يسمح للزوار بدخوله ، والنوافذ مكسوة بالقماش ، والأرض المبلطة هى الأسرة والموائد والمقاعد . وبنى فى الجدار قرص دائر ، وأى طعام يضعه الناس على نصفه الخارجى يقبله الدير بشكر ، ولكن ليس للراهبات أن يستجدين . وكن يكملن ما نقص من قوتهن

بالغزل وأشغال الإبرة ، وتوضع منتجاتهن خارج باب الدير ، ولأى مشتر أن يأخذ منها ما شاء ويترك مقابله ما شاء . وأقبلت راهبات جديدات على الرغم من هذا التقشف كله ، ومن بينهن امرأة كانت أجمل نساء آيلة وأشدهن فتنة للرجال . ولما زار الرئيس العام للأديار الكرملية هذا الدير الصغير بلغ به التأثر أشده ، فطلب إلى تريزا أن تؤسس بيوتاً مماثلة له فى سائر أرجاء أسبانيا . وفى عام ١٥٦٧ استصحبت بضع راهبات ، وسافرن فى عربة حقيرة قطعت سبعين ميلا على طرق رديئة لتؤسس ديراً للراهبات الكرمليات الحافيات فى مدينا ديل كاميو . وكان البيت الوحيد الذى عرض عليها بناء مهجوراً متهدماً تداعت جدرانه ورشح سقفه ؛ ولكن حين رأى أهل المدينة الراهبات يحاولن العيش فيه ، توافد النجارون والمباطون لإصلاح الدار وصنع أثاث بسيط له دون أن يدعوهم لذلك أحد أو يتقاضوا على عملهم أجراً .

وجاء إلى تريزا رئيس دير الرهبان الكرمليين فى مدينا طالباً إليها قواعد رهبنتها رغبة منه فى إصلاح رهبانه المتراخين . وكان الرجل فارع القوام ، ولكن جاء فى صحبته شاب قصير هزيل جداً حتى أن تريزا قالت بعد رحيلهما فى دعابتها التى كانت تضفى الإشراق على نسكها « تبارك الله ، فان عندى الآن راهباً ونصفاً لتأسيس ديرى الجديد(٢٤) » . أما هذا الرويهب ، واسمه جوان دى أيبس ألفاريز ، فقد كتب له أن يصبح سان جوان دى لاكروز ، أى القديس يوحنا الصليبي ، روح الرهبان الكرمليين الحفاة وفخرهم .

ولم تنته مصاعب تريزا . ذلك أن الرئيس الإقليمى للأديار الكرملية عينها رئيسة على دير التجسد ، ربما اختباراً لحكمها وشجاعتها . وكان راهبات هذا الدير يكرهنها ، وقد خشين أن تذيقهن الآن ألوان الذل والهوان انتقاماً منهن . ولكنها عاملتهن بكثير من التواضع والرقة حتى

كسبتهن الواحدة بعد الأخرى ، وما لبث النظام الجديد الأكثر صرامة أن حل شيئاً فشيئاً محل التراخي القديم . ومن هذا الانتصار تقدمت تريزا لإنشاء دير جديد فى إشبيلية .

وصمم رهبان الطريقة التى تراخى نظامها على وقف امتداد الإصلاح . فهرّب بعضهم عميلة تنكرت فى زى راهبة حافية إلى دير إشبيلية . وما لبثت هذه المرأة أن أعلنت على الملأ فى أسبانيا أن تريزا تجلد راهباتها وتتلقى الاعترافات كأنها كاهن . وطلب إلى محكمة التفتيش التحقيق معها ثانية . ودعيت للمثول أمام المحكمة الرهيبة ، واستمعت المحكمة إلى شهادتها وأصدرت هذا الحكم « لقد برئت من كل التهم . . . فاذهبي وواصلى عملك [٢٥]» . ولكن أعداءها كسبوا سفيراً بابوياً إلى صفوفهم . فندد بتريزا « امرأة عاصية متمردة ، تنشر التعاليم المؤذية تحت قناع التقوى ، تركت ديرها مخالفة بذلك أوامر رؤسائها ؛ امرأة طماعة ، تعلم اللاهوت كأنها من فقهاء الكنيسة ، محتقرة بذلك القديس بولس الذى منع النساء من أن يعلّمن » . ثم أمرها بأن تعتكف حبيسة فى دير للراهبات بطليطلة (١٥٧٥) .

وحارت تريزا إلى من تلجأ فى هذا التغير الجديد ، فكتبت إلى الملك . وكان فيليب الثانى قد قرأ « حياتها » . وأحب الكتاب . فأرسل مبعوثاً خاصاً من بلاطه يدعوها لمقابلة الملك ، واستمع إليها ، واقتنع بورعها . وسحب السفير البابوى أمره السابق بفرض القيود على تريزا بعد أن وبخه الملك ، وأعلن أنه زود بمعلومات كاذبة .

وفى وسط أسفارها وشدائدها كتبت كتيبات تعبدية صوفية شهيرة مثل « طريق الكمال ١٥٦٧ » و « الحصن الداخلى ١٥٧٧ » . وقد كشفت فى هذا الكتيب عن عودة آلامها الجسدية فقالت « يخيل إلى أن أنهاراً مفعمة بالمياه تتدافع داخل رأسى فوق منحدر سحيق ، ثم اعود فأسمع الطيور فى غنائها وصفيرها بعد أن طغى عليها ضجيج المياه . وأنا أرهق ذهنى وأزيد صداعى» [٢٦] ، وعاودتها النوبات القلبية ، وكان عسيراً على

معدتها أن تحتفظ بالطعام ، وراحت على الرغم من هذا تتنقل فى ألم من دير إلى دير من تلك الأديار الكثيرة التى أسستها ، فاحصة ، مصلحة ، ملهمة . وفى ملقا أصابتها نوبة شلل . ثم شفيت ، ومضت إلى طليطلة ، فنزلت بها نوبة أخرى . ثم شفيت ، ومضت إلى سقوبية وبلد الوليد ، وبلنسيه ، وبرغش وإلبه ، وهناك اضطرها نزف فى رئتيها أن تتوقف . واستقبلت الموت ببشاشة ، واثقة أنها إنما ترحل عن عالم من الألم والشر إلى صحبة المسيح الخالدة .

ودفنت فى مسقط رأسها بعد منافسة معيبه بين ألبة وآبلة وخطف جسدها المرة بعد المرة . وزعم المصلون الأتقياء أن جسدها لم يفسد قط ، وروى حدوث العجائب الكثيرة عند قبرها . وفى عام ١٥٩٣ تلقت طريقة الراهبات الكرملبات الحافيات اعتماد البابا . واشترك نفر من أشهر الأسبان مثل سرفانتس ولوبى دى فيجا فى توجيه نداء إلى البابا يلتمسون فيه على الأقل تطويبها . وهذا ما حدث (١٦١٤) ، وبعد ثمانى سنوات تقرر أن تكون تريزا إحدى اثنين من قديسى أسبانيا الحامين ، أما الثانى فهو الرسول يعقوب .

فى غضون هذا خرج من أسبانيا من هو أعظم من تريزا ليصلح الكنيسة ويهز الدنيا .

٤ — إجناتيوس لويولا

ولد الدون إينيجو دى أونييز اللويولى فى قلعة لويولا باقليم جويبوزكوا ، وهو من أقاليم الباسك ، فى عام ١٤٩١ . وكان أحد ثمانية أبناء وخمس بنات للدون بلتران دى أونيز اللويولى ، الذى ينتمى إلى طبقة النبلاء الأسبان العظام . وقد ربى الصبى ليكون جندياً ، لذلك لم يتلق من التعليم المدرسى إلا القليل ، ولم يبد ميلا إلى الدين . واقتصرت قراءاته على قصة « أماديس

الغالى » وأشباهها من روايات الفروسية . ولما بلغ السابعة أرسل ليكون تابعاً للدون جوان فيلاسكويز دى كويالار ، وبفضله أتيح له بعض الاتصال بالبلاط الملكى . وحين بلغ الرابعة عشرة أحب جرمين دفوا . الملكة الجديدة لفرديناند الكاثوليكى ، ولما حان وقت تقليده رتبة الفروسية اختارها مليكة له ، ولبس شعارها ، وحلم بالفوز بمنديل مخرم من يدها جزاء انتصاره فى مباراة للفروسية (٢٧). على أن هذا لم يمنعه من الدخول فى الغراميات والمشاجرات العارضة التى كانت تصف حياة الجندى . ولم يحاول إخفاء هذه الأعمال الطائشة الطبيعية فى سيرته الذاتية ، البسيطة الأمينة ، التى أملاها فى ١٥٥٣ — ٥٦ .

ثم انتهى شبابه الخلى حين عين للخدمة العسكرية العاملة فى بانباونة عاصمة نافار . وهناك أنفق أربع سنوات يحلم بالمجد ولا يفتح عينيه إلا على حياة رتيبة . وواتته الفرصة لكى يثبت كفايته ، فقد هاجم الفرنسيون بانبلونة ، وشدت بسالة إينيجو أزر المدافعين ، ولكن العدو استولى على القلعة ، وأصيبت ساق إينيجو اليمنى بكسر من قذيفة مدفع (٢٠ مايو ١٥٢١) . وترفق المنتصرون به ، وجبروا عظامه ، وأرسلوه على نقالة إلى حصن أسلافه . ولكن العظام أخطئ جبرها ، فاقتضى الأمر كسرها وجبرها من جديد . ثم تبين أن العملية الثانية أسوأ من سابقتها ، لأن جدعة من العظم برزت من الساق . واستقامت العظام بعد عملية ثالثة ، ولكن الساق أصبحت الآن أقصر مما ينبغى . وظل إينيجو الأسابيع يعانى عذاب جبيرة جعلته ضعيفاً عاجزاً يشكو ألماً لا يبرحه .

وخلال أشهر النقاهة الطويلة المملة طلب كتباً ، لا سيما قصة مثيرة عن الفروسية والأميرات اللاتى يتهددهن الخطر . ولكن مكتبة القلعة لم يكن بها سوى كتابين لا ثالث لهما : أولهما « حياة المسيح » بقلم اودلفوس ، أما الثانى فيحكى سير القديسين . Flos sanctorum ، وضاق الجندى ذرعاً بالكتابين أول الأمر ، ثم تسلطت عليه صورتا المسيح ومريم ،

وتبين له أن أساطير القديسين لا تقل عجباً عن ملاحم الحب النبيل والحرب ، ففرسان المسيح هؤلاء هم من كل الوجوه أبطال كفرسان قشتالة . وتكونت فى عقله شيئاً فشيئاً فكرة مؤداها أن أنبل الحروب هى حرب المسيحية مع الإسلام . وجعلت جدة الايمان الأسبانى الدين عنده ، كما جعلته عند دومنيك من قبل ، لا تعبداً هادئاً كتعبد الراهب الألمانى توماس أكمبيس ، ولكن رغبة مشبوبة فى الصراع ، بل حرباً مقدسة . وصمم على الذهاب إلى بيت المقدس وتحرير الأماكن المقدسة من سيطرة غير المسيحيين . وذات ليلة ظهرت له العذراء وابنها فى رؤيا ، وبعدها (كما أخبر الأب جونزاليز فيما بعد) لم يهاجمه قط أى إغراء جنسى[٢٨١] . ونهض من فراشه ، وجثا على ركبتيه ، وأقسم أن يكون جندياً للمسيح ومريم حتى الموت .

وكان قد قرأ أن الكأس المقدسة خبئت مرة فى قلعة بمونتسرات فى إقليم برشلونه . هنالك ، كما ورد فى أشهر الروايات قاطبة ، قضى أماديس ليلة بطولها ساهراً أمام صورة العذراء تأهباً للفروسية . وما إن وجد إينيجو فى نفسه القدرة على السفر حتى امتطى بغلا وانطلق إلى ذلك المزار البعيد . وظل حيناً يرى فى نفسه جندياً مرتدياً شكة النزال . ولكن القديسين الذين قرأ أخبارهم لم يحملوا سلاحاً ولا درعاً ، إنما كانت عدتهم أفقر الثياب وأرسخ الإيمان . فلما بلغ مونتسرات طهر روحه بالاعتراف والتكفير ثلاثة أيام ، ثم خلع ثيابه الغالية على شحاذ ، وارتدى عباءة حاج من قماش خشن . وقضى طوال ليلة ٢٤ — ٢٥ مارس ١٥٢٢ وحيداً فى كنيسة صغيرة بدير بندكتى ، راكعاً أو واقفاً أمام مذبح العذراء . وأخذ على نفسه العهد بحياة العفة والفقر الدائمين . وفى صباح الغد تناول القربان ، وأعطى بغله للرهبان ، ثم انطلق إلى أورشليم وهو يعرج على قدمه .

كانت أقرب الموانى إليه برشلونه ، وفى طريقه إليها توقف عند قرية مانريزا . ودلته عجوز على مغارة يأوى إليها . فجعلها مسكنه أياماً ، وإذ كان حريصاً على أن يبز القديسين فى نسكهم ، فقد مارس هناك من التقشف الصارم ضروباً كادت تقضى عليه . وفى ندمه على ما أسلف من خيلاء بمظهره ، كف عن تنظيف شعره أو قصه أو تمشيطه — فسقط بعد قليل . وأبى أن يقص أظافره أو يستحم أو يغسل يديه أو وجهه أو قدميه(٢٩) ، وعاش على ما وسعه استجداؤه من طعام ، إلا أن يكون لحماً ؛ وكان يصوم أياماً بطولها ، ويسوط نفسه ثلاث مرات فى اليوم ، وينفق الساعات فى الصلاة كل يوم . وأمرت امرأة تقية بنقله إلى بيتها مخافة أن يودى هذا التقشف الصارم بحياته ، وهناك مرضته حتى استعاد عافيته . ولكنه عاود جلد نفسه حين نقل إلى قلاية فى دير دومنيكى بمانريزا . لقد أرعبته ذكرى ذنوبه الماضية ، فشن الحرب على جسده باعتباره الأداة لذنوبه ، وصمم على أن ينتزع بالجلد كل فكرة خطيئة من جسده . وبدا الصراع أحياناً ميئوساً منه ؛ ففكر فى الانتحار . وهنا جاءته الرؤى التى شددته ، واعتقد وهو يتناول القربان مرة أنه لا يرى قربانة بل المسيح الحى ، وفى مرة أخرى ظهر له المسيح وأمه ، ومرة رأى الثالوث ، وفهم — بومضة من بصيرته يقصر دونها اللفظ أو الفكر — سر الأقانيم الثلاثة فى الإله الواحد ، وفى « مرة أخرى » كما يروى « أذن له الله أن يفهم كيف خلق العالم »(٣٠) . وأبرأت هذه الرؤى الصراع الروحى الذى ابتعثها ، فطرح وراء ظهره كل قلق بسبب حماقات شبابه ، وخفف من غلواء نسكه ، وإذ قهر جسده فقد استطاع الآن أن يطهره دون غرور . ومن خبرة هذا الصراع الذى امتد قرابة عام وضع « الرياضات الروحية » التى تمكن أن يخضع فيها الجسد الوثنى للإرادة المسيحية . ورأى أن فى وسعه الآن أن يمثل أمام المزارات المقدسة فى أورشليم .

وأبحر من برشلونة فى فبراير ١٥٢٣ . وفى طريقه تخلف أسبوعين فى روما ، ثم لاذ بالفرار قبل أن تثنيه روحها الوثنية عن طريق القداسة . وفى ١٤ يوليو استقل سفينة من البندقية إلى يافا . وأصابته خطوب كثيرة قبل أن يبلغ فلسطين ، ولكن رؤاه المتصلة شدت من أزره . وكانت أورشليم نفسها إحدى المحن ، فالترك الذين يسيطرون عليها يسمحون للزوار المسيحيين بدخولها ، ولكنهم يمنعون التبشير فيها ، وحين اقترح إينيجو تحويل المسلمين إلى المسيحية برغم هذا الحظر ، أصدر الرئيس الفرنسسكانى المحلى ، الذى وكل إليه البابا حفظ السلام هناك ، أمراً للقديس بالعودة إلى أوربا . وفى مارس ١٥٢٤ عاد إلى برشلونة .

ولعله أحس الآن أنه وإن كان سيداً على جسده فانه عبد لأوهامه . فصمم على تهذيب عقله بالتعليم . واشترك مع تلاميذ المدارس فى تعلم اللاتينية مع أنه كان فى الثالثة والثلاثين . ولكن شهوة التعليم كانت فيه أقوى من إرادة التعلم . وسرعان ما بدأ إجناتيوس — وهو اسمه المدرسى — فى تبشير لفيف من النساء التقيات الفاتنات . وندد به عشاقهن مفسداً لمتعتهم وضربوه ضرباً وحشياً . فانتقل إلى القلعة (١٥٢٦) ، وعكف على دراسة الفلسفة واللاهوت . وهنا أيضاً راح يعلم جماعة خاصة صغيرة جلها من فقيرات النساء ، فيهن نفر من البغايا المتعطشات إلى الخلاص . وحاول أن ينتزع منهن ميولهن الخاطئة بالرياضة الروحية ، ولكن بعض تلميذاته أصابتهن نوبات أو غشيات ، فاستدعته محكمة التفتيش للمثول أمامها . وأودع السجن شهرين[٣١]، ولكنه فى النهاية أقنع المفتشين بسلامة عقيدته ، فأفرج عنه ، غير أنه منع من التعليم . ومضى إلى سلمنقه (١٥١٧) ، وجاز تجربة مماثلة انتقل فيها من مرحلة التعليم إلى المحاكمة أمام محكمة التفتيش ، إلى السجن ، إلى الإفراج ثم إلى الكف عن التعليم . فلما خاب ظنه فى أسبانيا ، يمم شطر باريس ، دائماً سيراً على الأقدام فى رداء الحاج ، سائقاً أمامه الآن حماراً يحمل أسفاراً .

وفى باريس عاش فى ملجأ الفقراء . وكان يستجدى فى الشوارع طعامه ونفقة تعليمه . ودخل كلية مونتيجى . حيث كان بوجهه الشاحب المهزول ، وبدنه الأعجف ، ولحيته المهوشة ، وثيابه العتيقة ، محط الأنظار غير العطوفة ، ولكنه واصل السعى إلى أهدافه فى حرص ملك عليه حواسه حتى أن بعض الطلبة بدأوا ينزلونه منزلة القديس . فمارسوا بارشاده ألوان الرياضة الروحية من صلاة وتكفير وتأمل . وفى عام ١٥٢٩ انتقل إلى كلية سانت — بارب . وهناك أيضاً التف حوله نفر من التلاميذ . وانتهى مساكناه بطريقتين مختلفتين إلى الإيمان بقداسته . فأما بيير فافر . الذى كان من قبل راعياً فى إقليم السافوا الألبى ، فكان يتعذب عذاباً مبرحاً من مخاوف وهمية أو واقعية . وبتأثيرها نذر حياة العفة الدائمة . وكان يخفى الآن وهو فى العشرين تحت طباعه المهذبة روحاً تكافح مغريات الجسد كفاحاً محموماً ، ومع أن إجناتيوس لم يدع لنفسه توقد الذكاء . فقد كان يملك القدرة على الإحساس بحياة الآخرين الداخلية بفضل شمائلية حياته . وعلى ذلك فقد حدس مشكلة صديقه الشاب . وأكد له أن نزعات الجسد يمكن السيطرة عليها بالإرادة المدربة . وكيف تدرب الارادة ؟ أجاب إجناتيوس ، بالرياضة الروحية . وراحا يمارسان هذه الرياضة معاً .

وأما نزيل غرفته الآخر ، واسمه فرانسوا زافير . فكان أصله من بنبلونة حيث مارس لويولا الجندية ، وسليل عدد كبير من الأسلاف النابهين ، وسيما ، غنياً ، فخوراً ، فتى مستهتراً . مرحاً . عليماً بحانات باريس وبناتها (٣٢). وسخر الفتى من صاحبيه الزاهدين وراح يباهى بما أصاب من توفيق مع النساء . على أنه كان ذكياً فى دراساته(٣٢) . حصل من قبل على درجة الأستاذية . وهو يحضر الآن للدكتوراة . وذات يوم رأى رجلا نقر الزهرى وجهه . فأوقفه المنظر ملياً . وبينما كان مرة يفيض فى الحديث عما يجيش فى صدره من طموح للشهرة والمجد . ذكر له إجناتيوس فى هدوء هذه الآية من الإنجيل : « ماذا ينتفع الإنسان لو ربح

العالم كله وخسر نفسه ؟ » ، وساء السؤال زافير ، ولكنه لم يستطع نسيانه . فبدأ ينضم إلى لويولا وفابر فى رياضتهما الروحية ، ولعل كبرياءه دفعته إلى مباراة زميليه فى القدرة على احتمال الحرمان والبرد والألم . وراحوا يجلدون أنفسهم ، ويصومون ، وينامون فى قمص رقيقة على أرض حجرية غير مدفأة ، ويقفون حفاة عراة تقريباً على الثلوج ليخشنوا أجسادهم وليخضعوها فى الوقت ذاته ، وبلغت التدريبات الروحية التى بدأت فى مانريزا شكلا أكثر تحدداً . وصاغها إجناتيوس فى كتيب على غرار « رياضة الحياة الروحية » (١٥٠٠) الذى وضعه الدون جارسيا دى كزنيروس ، رئيس دير مونتسرات البندكتى[٣٣] ، ولكنه سكب فى هذا القالب من حرارة العاطفة والخيال ما جعل كتيبه قوة محركة فى التاريخ الحديث . وكانت نقطة البداية التى انطلق منها لويولا هى عصمة الكتاب المقدس والكنيسة ، فهو يرى أن الحكم الفردى فى الدين إنما هو ادعاء باطل مولد للفوضى تدعيه عقول ضعيفة متكبرة . « علينا دائماً أن نكون على استعداد للإيمان بأن ما يبدو لنا أبيض إنما هو أسود إذا عرفته كذلك الكنيسة ذات الكهنوت المسلسل[٣٤] » وعلينا إن أردنا تجنب الهلاك الأبدى أن ندرب ذواتنا على أن نكون خداماً ممتثلين لله ، وللكنيسة التى استخلفها الله على الأرض .

أما أول تدريب روحى فهو تذكر خطايانا الكثيرة ، والتفكر فى مقدار العقوبة الذى تستحقه . لقد حكم على الشيطان بالجحيم لخطيئة واحدة ، أفليست كل خطية نقارفها تمرداً على الله كتمرد الشيطان ؟ فلنحتفظ بحساب يومى لذنوبنا بعلامات على سطور تمثل الأيام ، ولنحاول كل يوم أن ننقص عدد هذه العلامات . وفيما نحن راكعون فى حجرتنا أو صومعتنا بعد إظلامها ، لنتخيل الجحيم بأجلى ما نستطيع ؛ يجب أن نستحضر كل فظائع هذه النار التى لا تموت ، يجب أن نتصور عذاب

الهالكين ، ونسمع صرخات الألم وصيحات اليأس المنبعثة منهم ؛ يجب أن نشم الأبخرة المنتنة التي تتصاعد من الكبريت واللحم المحترقين ؛ يجب أن نحاول الإحساس بألسنة اللهب تلك وهى تلذع أجسادنا ؛ ثم يجب أن نسأل أنفسنا ، كيف السبيل إلى النجاة من هذا العذاب الأبدى ؟ لا سبيل إلا تضحية الفداء التى قدمها الله نفسه فى المسيح على الصليب[*] . فلنتأمل إذن حياة المسيح ، فى كل دقائقها ، علينا أن نكون حضوراً بالخيال فى تلك الأحداث التى هى أعمق الأحداث فى تاريخ العالم . يجب أن نجثو فى الخيال أمام الأشخاص المقدسين فى تلك الملحمة الإلهية ، وإن نلثم هدب أثوابهم . وبعد أن ننفق أسبوعين فى مثل هذه التأملات يجب أن نصحب المسيح فى كل خطوة من خطوات آلامه ، فى كل مرحلة من مراحل الصليب ؛ نصلى معه فى جثسيمانى ، ونشعر بأننا نجلد معه ، ويبصق علينا ، ونسمر على الصليب ، يجب أن نقاسى كل لحظة من لحظات عذابه ، أن نموت معه ، وأن نقبر معه . وفى الأسبوع الرابع يجب أن نتخيل أنفسنا وقد قمنا منتصرين من القبر ، وصعدنا أخيراً معه إلى السماء . وإذ تشددنا هذه الرؤيا المباركة ، فستكون على أهبة الانخراط جنوداً مكرسين فى المعركة لهزيمة الشيطان وربح النفوس للمسيح ، وفى تلك الحرب المقدسة سنحتمل باغتباط كل ما نلقى من شدائد وننفق حياتنا فى بهجة وفرح .

ووجدت هذه الدعوة للتعبد الممتد طوال الحياة تسعة طلاب فى باريس على استعداد لقبولها . ولعل هؤلاء الشبان الجادين ، الذين شعروا لأول مرة بما فى العالم من غموض محير ، وتاقت نفوسهم لمرساة من الإيمان والأمل وسط خضم من الشكوك والمخاوف — نقول لعلهم دفعوا بثقل المطالب

(*) لاحظ أن لوثر جاز بمثل هذه المخاوف من الجحيم ، وبمثل ضروب التقشف التكفيرية هذه ، وبمثل هذا التحرر بفضل الايمان بتضحية المسيح الفادية ، الذى كان المحرك لحياة اجناتيوس .

الملقاة على كواهلهم إلى المشاركة بمصيرهم وحياتهم وخلاصهم فى خطة لويولا . فاقترح أن يذهبوا معاً فى الوقت المناسب إلى فلسطين . ويحيوا هناك حياة أقرب ما تكون إلى حياة المسيح . وفى ١٥ أغسطس ١٥٣٤ اجتمع لويولا ، وفافر ، وزافير ، ودييجو لاينيز ، وألونسو سالبرون ، ونيكولا بوباديللا ، وسيمون رودريجيز ، وكاود لوجى . وجان كودير ، وباشاس برويه — اجتمع هؤلاء العشرة فى كنيسة صغيرة بمونمارتر ، ونذروا حياة العفة والفقر ، وأخذوا العهد على أنفسهم بالذهاب إلى الأراضى المقدسة والعيش فيها بعد قضاء عامين آخرين فى الدرس . ولم يكن لديهم إلى الآن فكرة واضحة عن مكافحة البروتستنتية ، وبدا الإسلام لهم تحدياً أعظم . ولم يكن بهم ميل إلى المجالادت اللاهوتية . فهدفهم إنما هو حياة القداسة ، وحركتهم تمد جذورها فى تربة الصوفية الأسبانية لا صراعات العصر الفكرية . وخير حجة يقدمونها هى التقى والورع .

وفى شتاء ١٥٣٦ — ٣٧ اخترقوا فرنسا سيراً على الأقدام ، وعبروا الألب ، ثم إيطاليا إلى البندقية حيث كانوا يأملون العثور على سفينة تحملهم إلى يافا . ولكن البندقية كانت تخوض حرباً مع الترك . فاستحال عليهم السفر . وخلال فترة التخلف التى إجناتيوس بكارافا ، وانضم حيناً إلى التياتين . وكان لخبرته مع هؤلاء القساوسة الأتقياء بعض الأثر فى تغيير خطته من العيش فى فلسطين إلى خدمة الكنيسة فى أوربا . واتفق هو وتلاميذه على أن يتقدموا للبابا طالبين أداء أى خدمة يكلها إليهم ، إذا انقضت عليهم فى هذا الانتظار سنة دون أن ينفتح أمامهم الطريق إلى فلسطين . وحصل فافر على إذن لهم جميعاً برسامتهم قساوسة .

كان لويولا قد بلغ إذ ذاك السادسة والأربعين ، أصلع الرأس به عرج خفيف لم يفارقه إثر جرحه . وما كان له بقامته التى لم تزد على

خمسة أقدام وبوصتين أن يقع من نفوس ناظريه أى موقع لولا رهافة أرستقراطية فى قسمات وجهه ، وتدبب فى أنفه وذقنه ، ولولا ما فى عينيه من سواد ونفاذ وعمق واكتئاب ، وما فى طلعته من رزانة وعزم ؛ وكان قد غدا القديس المستغرق فى تأملاته ، العازف عن الفكاهة . لم يكن مضطهداً لخصوم الدين ، ومع أنه وافق على وجود محكمة التفتيش(٣٥) فقد كان ضحيتها أكثر منه عميلها . كان صارماً فى عطف ، يخدم المرضى عن طيب خاطر فى المستشفيات وإبان تفشى الطاعون ، حلمه أن يربح نفوساً إلى الإيمان لا بالنار أو السيف بل بالسيطرة على الخلق فى الشباب الطيع وتشكيله تشكيلا ثابتاً فى الإيمان . ولم يكن هذا المؤسس لأنجح نظم التربية فى التاريخ شديد التأكيد على العلم أو الذكاء . لم يكن لاهوتياً ، ولم يشترك فى مجادلات الكلاميين أو تدقيقاتهم ؛ وقد آثر الإدراك الحسى المباشر على الفهم العقلى . ولم ير ضرورة للجدل حول وجود الله ، ومريم والقديسين ، فقد كان مقتنعاً بأنه رآهم ، وأحس بهم أقرب إليه من أى شىء أو شخص فى محيطه ، وكان على طريقته رجلا ثملا بمعرفة الله ومحبته . ومع ذلك فان تجاربه الصوفية لم تجعل منه رجلا غير عملى . لقد كان فى وسعه أن يجمع بين مرونة الوسائل وصلابة الغايات ، يأبى تبرير أى وسيلة لغاية يراها حسنة ، ولكن فى مقدوره أن يتريث تحيناً للفرصة . ويعتدل فى آماله ومطالبه ، ويلائم بين أساليبه والأشخاص والأحوال ، ويستعمل الدبلوماسية إذا اقتضى الأمر استعمالها ، ويرى الرأى الثاقب فى الرجال ، ويحسن اختيار مساعديه وعماله ، ويسوس الرجال كأنه قائد يقود فرقة عسكرية — وهو ما كان يراه فى نفسه فعلا . وقد أطلق على فرقته الصغيرة اسماً حربياً « فرقة يسوع » ، ولا عجب ، فهم جند تطوعوا مدى الحياة لمحاربة الإلحاد وانحلال الكنيسة . أما هم فقد قبلوا النظام العسكرى للعمل المنسق تحت قيادة مطلقة ، باعتبار هذا القبول مرآً طبيعياً وضرورياً .

وفى خريف ١٥٣٧ خرج لويولا وفاقر ولاينيز من البندقية قاصدين روما ليلتمسوا موافقة البابا على خططهم . وقطعوا الطريق كله سيراً ، يستجدون طعامهم ويعيشون أكثر الوقت على الخبز والماء . ولكنهم كانوا يترنمون بالمزامير فى سعادة وهم ماضون فى رحلتهم ، وكأنهم عليمون بأن فئتهم هذه الصغيرة ستنبثق منها منظمة قوية رائعة .

٥ — اليسوعيون

فلما أن بلغوا روما لم يلتمسوا المثول بين يدى البابا من فورهم ، لأن بولس الثالث كان غارقاً فى الدبلوماسية الحرجة . لذلك تطوعوا بالخدمة فى المستشفى الأسبانى ، وعنوا بالمرضى ، وعلموا الصغار . وفى مطلع عام ١٥٣٨ استقبلهم بولس ، وأثرت فيه رغبتهم فى الذهاب إلى فلسطين والعيش فيها رهباناً مثاليين . وأسهم هو وبعض الكرادلة بمبلغ ٢١٠ كراونا (٥ — ٢٥٠ دولاراً ؟) فى نفقات رحلة الفرقة . ولما اضطر النساك إلى التخلى عن الفكرة لاستحالة تنفيذها ردوا المال إلى واهبيه[٣٦] . واستدعى من ظل من الأعضاء فى الشمال إلى روما ، فبلغ عدد الجماعة الآن أحد عشر عضواً . وعين البابا بولس فافر ولاينيز أستاذين فى السابينزا (جامعة روما) . فى حين انقطع إجناتيوس والباقون لأعمال البر والتعليم . ونظم لويولا بعثة خاصة لهداية المومسات ، وأسس بتبرعات مؤيديه « بيت مرثا » لاستقبال هؤلاء النسوة ، وقد أثار عداء الكثيرين له فى روما بمواعظه الحماسية التى هاجم فيها الخطايا الجنسية .

وأصبح من المرغوب فيه تحديد مبادىء الفرقة وقانونها نظراً إلى انضمام أعضاء جدد إليها . وأضيف نذر الطاعة إلى نذرى العفة والفقر ، واشترط طاعة « القائد » الذى يختارونه طاعة ليس فوقها إلا الطاعة للبابا فقط . ثم نذر رابع « بخدمة بابا روما باعتباره خليفة الله على الأرض ، و « بالتنفيذ

الفورى الذى لا تردد فيه ولا اعتذار لكل ما يأمرهم به البابا الحاكم أو خلفاؤه لفائدة النفوس أو لنشر الإيمان » فى أى مكان فى العالم . وفى عام ١٥٣٩ طلب لويولا إلى الكردينال كونتاريني أن يرفع إلى البابا بولس الثالث مواد التنظيم هذه ، وأن يلتمس تثبيته للفرقة باعتبارها طريقة دينية جديدة . وكان البابا ميالا إلى الموافقة ، وخالفه بعض الكرادلة لأنهم رأوا فى الجماعة نفراً من الغلاة الذين تستعصى سياستهم ، ولكن بولس تغلب على اعتراضاتهم ، وبمقتضى المرسوم البابوى المسمى « لأجل تنظيم الكنيسة المجاهدة » أنشأ رسمياً ما سماه المرسوم « جماعة يسوع » (٢٧ سبتمبر ١٥٤٠) . وسمى أعضاؤها اسماً مناسباً هو « الاكليريكيون النظاميون فى جماعة يسوع » . ولم يظهر اسم « الجزويت » إلا عام ١٥٤٤ ، وكان آنئذ لفظ هجو قبل كل شيء ، استعمله كالفن وغيره من النقاد(٣٧)، ولم يستعمله قط إجناتيوس نفسه . وبعد موته استل نجاح الطريقة الدينية الجديدة من اللفظ حمته القديمة ، فأصبح فى القرن السادس عشر شارة شرف .

وفى ١٧ أبريل ١٥٤١ انتخب إجناتيوس قائداً . وظل عدة أيام بعد انتخابه يغسل الأطباق ويؤدى أحقر الأعمال(٣٨) . وقد جعل مقامه روما فيما بقى من عمره (وكان الآن فى الخمسين) ، وأصبحت المدينة المقر الدائم للجماعة . وبعد طول التفكير والتجربة ، وضع « دساتير » الجماعة بين عامى ١٥٤٧ و ١٥٥٢ ، وهى بتغييرات طفيفة قانون الجزويت اليوم . وقد نص على أن توضع سلطة الطريقة النهائية فى أيدى الأعضاء « المنذورين » نذراً كاملا . ويختار هؤلاء مندوبين من كل إقليم ، وهؤلاء المندوبون — هم والرؤساء الإقليميون ، والقائد ، ومعاونوه — يؤلفون « المجمع العام » . وينتخب هذا المجمع قائدا جديداً إذا لزم الأمر ، ثم يفوض إليه سلطته ما لم يقترف ذنباً خطيراً . وقد أعطى « ناصحاً » ، وأربعة مساعدين . يراقبون كل أعماله ، ويحذرونه من أى خطأ جسيم ، ويدعون لمجمع العام لخلعه إذا اقتضى الأمر .

ويتعين على طالبي عضوية الجماعة أن يقضوا فترة اختبار من عامين ، يدربون خلالهما على هدف الجماعة ونظامها ، ويمارسون الرياضة الروحية ، ويؤدون الأشغال الحقيرة ، ويخضعون للرؤساء فى « طاعة مقدسة » مطلقة . وعليهم أن يتخلوا عن إرادتهم الفردية ، ويرتضوا أن يؤمروا كما يؤمر الجند ، وينقلوا « كأنهم الجثث »[٣٩] ، وعليهم أن يتعلموا الإحساس بأنهم بطاعتهم رؤساءهم إنما يطيعون الله . ويجب أن يوافقوا على إبلاغ رؤسائهم أخطاء زملائهم ، وعلى ألا يستشعروا أى غضاضة فى أن تبلغ أخطاؤهم لرؤسائهم[٤٠] . لقد كان هذا النظام صارماً ولكن فيه تمييزاً ومرونة ، وقل أن حطم الإرادة أو قضى على المبادرة . والظاهر أن الاستعداد للطاعة هو أول خطوة فى تعلم الأمر ، لأن هذا التدريب أخرج العدد الكبير من الرجال الأكفاء المغامرين .

والذين يطيقون فترة الاختبار القاسية هذه يأخذون على أنفسهم عهوداً « بسيطة » — أى قابلة للسحب — بالفقر والعفة والطاعة ، ويدخلون « الطبقة الثانية » . وبعض هؤلاء يمكثون على هذا الوضع إخوة علمانيين ، وبعضهم « مدرسين مؤهلين » يبتغون القسوسية ، ويدرسون الرياضيات والآداب القديمة والفلسفة واللاهوت ، ويعلمون فى المدارس والكليات . أما الذين يجوزون مزيداً من الاختبارات فيدخلون الطبقة الثالثة ، طبقة « المساعدين المؤهلين » ، وبعض هؤلاء قد يرقون إلى الطبقة الرابعة — طبقة « المنذورين » — وكلهم قساوسة يتعهدون خصيصاً بالاضطلاع بأى عمل أو بعثة يكلها إليهم البابا . وكان هؤلاء « المنذورون » عادة قلة صغيرة — لا تتجاوز أحياناً العُشر — بين أعضاء الجماعة كلها[٤١] . وعلى الطبقات الأربع أن تعيش عيشة مشتركة كالرهبان ، ولكن نظراً إلى واجباتهم الإدارية والتربوية الكثيرة فقد أعفوا من الالتزام الديرى بتلاوة صلوات العبادة اليومية السبع ولم يطلب إليهم أى ممارسات نسكية ، وإن جاز

إسداء النصح لهم إذا اقتضى الأمر . ونص على الاعتدال فى الطعام والشراب ؛ دون صوم متشدد ، ويجب أن يحفظ الجسم والعقل جميعاً صالحين لأداء جميع الأعمال . وللعضو أن يحتفظ بحقه فى أى أملاك يمتلكها حين دخوله الطريقة ، ولكن كل دخل يأتيه منها يجب أن يعطى للجماعة ، التى تأمل أن تكون الوريثة النهائية . وكل المقتنيات والأنشطة الجزويتية يجب أن تكرس لمجد أعظم ، مجد الله .

لقد ندر أن حملت مؤسسة ما بصمات شخصية واحدة على هذا النحو القاطع . وامتد أجل لويولا سنين أتاحت له تنقيح دساتيره ليصوغ منها نظام رهبنة يعمل بنجاح . وراح من حجرته العارية الصغيرة يقود بسلطان صارم وحذق عظيم حركات جيشه الصغير فى كل أرجاء أوربا وفى كثير من أنحاء العالم الأخرى . وكانت مهمة حكم الجماعة ، وإنشاء وإدارة كليتين وعدة مؤسسات خيرية فى روما ، أثقل من أن يحتملها طبعه كلما تقدم به العمر ، فأصبح غاية فى الجفاء مع أقرب مرءوسيه ، وإن ظل عطوفاً على الضعفاء[٤٢] . على أنه كان أقسى ما يكون على نفسه . وكثيراً ما كانت وجباته حفنة من البندق وكسرة من الخبز وكأساً من الماء . وكثيراً ما كانت ساعات نومه لا تزيد على أربعة فى اليوم ، بل إنه اختزل إلى نصف ساعة فى اليوم تلك الفترة التى يخصصها للرؤى والاستنارة السماوية[٤٣] ، ولما مات (١٥٥٦) شعر الكثير من أهل روما أن ريحاً حادة قد توقفت عن الهبوب ، ولعل بعض أتباعه امتزجت مشاعر الحزن عندهم باحساس الراحة . ولم يستطع الناس أن يدركوا بهذه السرعة أن هذا الأسبانى الذى لا يقهر سيثبت أنه من أعظم الرجال تأثيراً فى التاريخ الحديث .

كانت الجماعة تضم عند موته قرابة ألف عضو ، منهم نحو خمسة وثلاثين عضواً « منذوراً »[٤٤] . وبعد خلافات أظهرت قدراً كبيراً من إرادة القوة لدى هؤلاء اليسوعيين الذين خالهم الناس محطمى الإرادة ، اختير

دييجو لاينيز قائداً (١٥٥٨) ؛ وقد اعترض بعض النبلاء الأسبان ممن كان لهم شيء من النفوذ فى الطريقة على اختياره لأن أسلافه منذ أربعة أجيال كانو يهوداً . وخاف البابا بولس الرابع أن ينتهى الأمر بمنصب قائد الجزويت إلى منافسة البابوية ، لأنه يتولاه مدى الحياة . فأمر بمراجعة دساتير الجماعة لتقصر رياسة القائد على ثلاث سنوات . ولكن بيوس الرابع ألغى الأمر ، وأصبح القائد « البابا الأسود » (كما لقبته الأجيال التالية نسبة إلى رداء الكاهن الأسود) . وما لبثت الطريقة أن ازدادت حجماً وقوة بعد أن انضم إليها فرانسيس بورجيا ، دوق جانديا ، ووهبها ثروته . ويوم أصبح هذا الرجل قائدها الثالث (١٥٦٥) كانت تضم ٣,٥٠٠ عضو يعيشون فى ١٣٠ بيتاً فى ثمانية عشر إقليماً أو دولة .

ولم تكن أوربا سوى قطاع صغير فى نشاطها . فقد أوفدت مبعوثيها إلى الهند والصين واليابان والدنيا الجديدة . وكانوا فى أمريكا الشمالية رواداً مغامرين لا تثنيهم المثبطات ، يحتملون كل الكروب والخطوب على أنها عطية من الله . أما فى أمريكا الجنوبية فقد جاهدوا كما لم تجاهد أى جماعة أخرى لتطوير التعليم والزراعة العلمية . وفى عام ١٥٤١ غادر القديس فرنسيس زافير لشبونة على سفينة برتغالية ، وبعد عام من الرحلة والمعاناة بلغ جوا . وهناك أخذ يمشى فى الشوارع رائحاً غادياً وهو يقرع ناقوساً يدعو الناس للاستماع إليه . فلما التفوا حوله بسط لهم العقيدة المسيحية بكل إخلاص وبلاغة ، ثم أوضح الخلق المسيحى عملياً بمشاركته فى عيشه أفقر المستمعين إليه مشاركة مغتبطة ، حتى استطاع أن يحول إلى المسيحية آلاف الهندوس والمسلمين ، بل إنه أقنع بالإيمان بعض المسيحيين البرتغاليين المغتربين الذين قست الشدائد قلوبهم . ولعل إبراءه المرضى راجع إلى الثقة التى بثها فيهم أو إلى معرفته العارضة بالطب ، وقد نسبت إليه المعجزات فيما بعد . ولكنه لم يدع لنفسه واحدة منها . أما المرسوم

البابوى الذى سلكه فى زمرة القديسين (١٦٢٢) : فقد نسب إليه « موهبة الألسن » — أى القدرة على التحدث بأى لغة عند الحاجة ، ولكن الحقيقة أن هذا القديس البطل كان لغوياً ضعيفاً ينفق الساعات الطويلة فى حفظ المواعظ بالتاملية أو الملاوية أو اليابانية ، وكان إيمانه أحياناً أشد من أن تسايره إنسانيته ، فقد حث يوحنا الثالث ملك البرتغال على إنشاء محكمة للتفتيش فى جوا (٤٦)، وأوصى بألا يرسم للقسوسية أى هندوسى ما لم ينحدر من أجيال عدة من الأسلاف المسيحيين ، ولم يكن يطيق فكرة اعتراف برتغالى لقسيس وطنى(٤٧) . وأخيراً غادر جوا لأنها بلد تتعدد فيه اللغات تعدداً لا يعينه على تحقيق أهدافه . قال « أريد أن أكون حيث لا يوجد مسلمون ولا يهود . أعطونى وثنيين خلصاً »(٤٨) — فلقد أحس أن الوثنيين أطوع إيماناً لأنهم أقل رسوخاً فى دين آخر . وفى عام ١٥٤٩ قصد اليابان ، ودرس اليابانية فى طريقه إليها . ولما رسا فى كاجوشيما ، راح هو وزملاؤه يبشرون فى الشوارع والناس يستمعون إليهم فى أدب . وبعد عامين عاد إلى جوا ، وقوم خللا ظهر بين المسيحيين هناك ، ثم أبحر ليبشر الصين (١٥٥٢) . وبعد عناء شديد نزل جزيرة تشانج — تشوين ، أسفل مصب نهر كانتون . وكان إمبراطور الصين قد قرر اعتبار دخول أوربى للصين جريمة كبرى ، ومع ذلك ما كان هذا ليثنى عزم زافير لو أنه وجد وسيلة للانتقال . وخلال انتظاره مرض ، ثم فارق الحياة فى ٢ ديسمبر ١٥٥٢ وهو يبكى قائلا « فيك يا رب رجائى ، فلا تجعلنى ملعوناً إلى الأبد(٤٩) » . وكان إذ ذاك فى السادسة والأربعين .

وقد تفانى اليسوعيون فى عملهم فى أوربا تفانيهم فى البعثات الأجنبية . فلزموا أماكنهم وعنوا بالمرضى فى فترات تفشى الطاعون(٤٨) . وبشروا كل الطبقات ، وكيفوا لغتهم وفق كل موقف . وجعلهم تعليمهم الممتاز وطباعهم المهذبة آباء الاعتراف المفضلين عند النساء والنبلاء ، ثم عند

الملوك . وشاركوا فى شئون الدنيا بنشاط ولكن بحكمة ولباقة ، وقد نصحهم إجناتيوس بأن قسطاً أكبر من الحكمة وأقل من التقوى خير من قدر أكبر من التقوى وأقل من الحكمة(٥١) . وكانوا عادة رجالا على خلق عظيم ، أما الأخطاء التى رموا بها فى فترة لاحقة فلم تكد تظهر فى العصر الذى نحن بصدده(٥٢) . ومع أنهم وافقوا جماعةً على محكمة التفتيش(٥٣)، فانهم وقفوا على مبعدة منها ، مؤثرين أداء رسالتهم عن طريق التعليم . وقد اضطرتهم قلة عددهم إلى ترك تعليم الأطفال لغيرهم ، أما هم فركزوا جهودهم على التعليم الثانوى ، وإذ وجدوا أن الجامعات قد سبقتهم فى الهيمنة عليها طرق دينية أخرى أو السلطة الزمنية أو رجال الدين البروتستنت ، فقد نظموا لهم كليات خاصة ، وحاولوا تدريب شبان مثقفين ليكونوا مراكز للتأثير فى الجيل التالى . وهكذا أصبحوا أعظم المربين فى زمانهم .

لقد أنشأوا فى نقط هامة فى أوربا معاهد دنيا — تقابل الجمنازيوم الألمانى والليسيه الفرنسية — وكليات عليا . واستطاعوا أحياناً أن يتسلموا جامعات موجودة فعلا كما حدث فى كوامبرا ولوفان . وروعوا منافسيهم بتعليمهم التلاميذ مجاناً . وأكبر الظن أن منهج الدراسة الذى وضعوه يدين بالفضل للمدارس التى أنشأها فى هولنده وألمانيا «إخوان الحياة المشتركة» ، وبالجمنازيوم شتورم فى ستراسبورج ، وللأكاديميات ألمانيا وإيطاليا الإنسانية . وكان هذا المنهج يقوم على الآداب القديمة ويدرس باللاتينية ، أما استعمال اللغة القومية فمحظور على الطلبة إلا فى العطلات(٥٤) . وأعيدت دراسة الفلسفة الكلامية فى الفرق العليا . وزيد الاهتمام بتربية الخلق — أى الفضائل والعادات — وربط من جديد بين هذه التربية وبين العقيدة الدينية ، وغرس الإيمان التقليدى فى التلاميذ ، فأشربهم نظام من الصلاة ، والتأمل ، والاعتراف ، والتناول ، والقداس ، واللاهوت : سلامة فى العقيدة قل معها من انحرف منهم فى القرن السادس عشر عن هذا السبيل

المطروق . وردت الدراسات الإنسانية من الوثنية إلى المسيحية . على أن هذا النظام كانت فيه مآخذ خطيرة ، فهو مفرط فى الاعتماد على الذاكرة ، مثبط للأصالة ، ناقص فى العلوم كغيره من مناهج ذلك العهد ، وقد نقّى التاريخ تحقيقاً للهيمنة على الحاضر . ومع ذلك فاننا نجد مفكراً ذا نزعة استقلالية قوية مثل فرانسس بيكن يبادر إلى القول فى مدارس اليسوعيين ، « وددت لو كانت هذه المدارس مدارسنا ولو بوضعها الراهن»(٥٥). وسنرى فى القرنين التاليين أن خريجيها سيبرزون فى كل مناحى الحياة تقريباً عدا البحث العلمى .

وقبيل وفاة لويولا كان هناك مائة كلية يسوعية . وبفضل التعليم والدبلوماسية والتفانى فى العمل ، وبفضل الحماسة التى يضبطها النظام ، وبفضل التنسيق بين الأهداف والتوزيع البارع فى الوسائل ، أفلح الجزويت فى صد المد البروتستنتى ، واستردوا للكنيسة جانباً كبيراً من ألمانيا ، ومعظم المجر وبوهيميا ، وكل بولنده المسيحية . وندر أن حققت جماعة بمثل هذا الحجم الصغير ، مثل هذا النجاح الكبير ، بمثل هذه السرعة الفائقة . ومضت سمعتها ونفوذها ينموان العام بعد العام ، إلى أن اعترف بعد عشرين عاماً من تأسيسها الرسمى بأنها أروع نتاج للاصلاح الكاثوليكى . ويوم اجترأت الكنيسة فى نهاية المطاف على دعوة ذلك المجمع العام الذى طال ارتقاب أوربا له ليهدىء صراعها اللاهوتى ويبرئ جراحها الدينية ، كانت حفنة من الجزويت — بثقافتهم ، وولائهم ، وحصافتهم ، وسعة حيلتهم ، وبلاغتهم — هى التى ناط بها البابوات مهمة الدفاع عن سلطتهم المتحداه ، والمحافظة على الإيمان القديم كاملا غير منقوص.

الفصل التاسع والثلاثون

البابوات والمجمع

١٥١٧ — ٦٥

١ — البابوات يكرهون على الدفاع

لقد أرجأنا إلى آخر هذا المجلد هذه المهمة الشاقة على كاتب غير كاثوليكى ، مهمة فهم رد فعل البابوات للتحدى الذى واجههم به الإصلاح البروتستنتى ، ثم وصفه فى غير ميل ولا تحيز .

لقد كان رد الفعل أول الأمر دهشة متألمة . ولا عجب ، فبابوات فترة الإصلاح البروتستنتى ، ربما باستثناء واحد ، كانوا رجالا طيبين ، على قدر ما يتاح لرجال دولة أن يكونوا ، لا مجردين من حب الذات أو خالين من الخطايا ، بل فى جوهرهم مهذبين رحماء أذكياء ، مقتنعين فى إخلاص بأن الكنيسة مؤسسة ليست رائعة فى إنجازاتها فحسب ، ولكنها ما زالت ضرورة لا غنى عنها لصحة الإنسان الأوربى الخلقية وسلامه النفسى . وإذا سلمنا بأن خدام الكنيسة البشريين قد سقطوا فى رذائل خطيرة ، أفلا نجد عيوباً كهذه أو شراً منها فى كل إدارة علمانية ؟ وإذا كنا نحجم عن الإطاحة بالحكومة المدنية عقاباً لها على جشع أمرائها واختلاسات موظفيها ، فهل يكون إحجامنا أقل عن هدم كنيسة ظلت ألف سنة الأم التى غذت الحضارة الأوربية بالدين والتعليم والأدب والفلسفة والفن ؟ . وأى ضير فى أن تبدو بعض العقائد التى روئى أنها معوان على النهوض بالفضيلة والنظام عسيرة الهضم على المؤرخ أو الفيلسوف — وهل

التعاليم التي يقترحها البروتستنت أكثر منطقاً أو أسهل تصديقاً إلى الحد الذى يبرر أن تقلب أوربا رأساً على عقب بسبب هذا الخلاف ؟ . إن التعاليم الدينية على أية حال لا يحددها منطق القلة بل حاجات الكثرة ؛ إنها إطار للعقيدة يمكن فى نطاقه تنشئة الإنسان العادى الميال بطبيعته إلى ارتكاب عشرات الأفعال غير الاجتماعية ، ليكون مخلوقاً يملك من الدربة وضبط النفس ما يكفى لجعل المجتمع والحضارة أمراً ممكناً . ولو أن هذا الإطار حطم ، لكان لزاماً بناء إطار آخر ، ربما بعد قرون من الفوضى الخلقية والمادية .. أليس دعاة الإصلاح البروتستنتى متفقين مع الكنيسة على أنه لا جدوى من الدستور الخلقى ما لم يعززه الإيمان الدينى ؟ أما الطبقات المفكرة فهل تراها حققت أى مزيد من الحرية أو السعادة تحت إمرة الأمراء البروتستنت عنها تحت إمرة البابوات الكاثوليك(*) ؟ ألم يزدهر الفن تحت زعامة الكنيسة ، وألا يذوى تحت خصومة المصلحين البروتستنت الذين أرادوا أن ينتزعوا من الناس تلك الصور التى تغذو ما فى حياتهم من شعر وأمل ؟ وأى مبررات قاهرة تدعو فى رأى العقول الناضجة إلى تفتيت العالم المسيحى إلى مذاهب لا تحصى ، متنابذة ، مبطل بعضها للبعض ، عاجزة بمفردها أمام غرائز البشر ؟ .

إننا لا نستطيع أن نعرف هل كانت هذه مشاعر البابوات المعاصرين لحركة الإصلاح البروتستنتى ، لأن القادة النشطين قلما يذيعون على الناس فلسفاتهم . ولكن لنا أن نتصور الموقف النفسى للبابا ليو العاشر (١٥١٣ — ٢١) على هذا النحو ، إذ وجد البابوية تهتز تحت قدمية بمجرد أن دعى للاستمتاع بها . كان رجلا يشبه الكثيرين منا — مذنب بالخطيئة وبالإهمال

(*) يقول ناقد من أقوى وأعلم نقاد الكنيسة « قبل ان تلتهب ثورة لوثر كانت كل أرجاء أوربا الكاثوليكية تتمتع بقدر كبير من حرية الفكر والكلام » . « هنرى لى ، تاريخ محكمة التفتيش فى أسبانيا ، ص ٤١١ الجزء الثالث .

الإجرامى ، ولـكنه فى جملته جدير بالصفح عنه . كان عادة ألطف الناس وأكثرهم عطفاً ، عليه رزق نصف شعراء روما ، ومع ذلك فقد لاحق مهرطق بريشا حتى الموت ، وحاول أن يؤمن بأن الأفكار الممزقة للكنيسة يمكن أن تنتزع من البشر بحرق أصحابها . وقد أظهر من الحلم مع لوثر قصارى ما ننتظر من بابا ومن عضو فى أسرة مديتشى ، ولنتصور أن الوضع انعكس ، وكيف كان البابا مارتن يمحق المتمرد ليو محقاً ! لقد حسب ليو حركة الإصلاح البروتستنتى نزاعاً غير مهذب بين رهبان أجلاف . ومع ذلك ففى بواكير عام ١٥١٧ ، وفى بداية رياسته البابوية ، ألقى جيانفرانشسكو بيكو ديللا ميراندولا (ابن أخى بيكو الأشهر منه) أمام البابا والكرادلة خطابا يسترعى الاهتمام « يرسم فيه بأحلك الألوان ذلك الفساد الذى تسلل إلى الكنيسة » ويتنبأ بأنه « لو أن ليو . . . أبى إبراء الجراح ، فانه يخشى أن الله نفسه لن يستعمل بعد اليوم علاجاً بطيئاً ، بل سيبتر ويبيد الأعضاء المريضة بالنار والسيف »(١) . ولكن ليو انصرف على الرغم من هذا الإنذار إلى الاحتفاظ بتوازن للقوى بين فرنسا والإمبراطورية حماية للولايات البابوية . يقول مؤرخ كاثوليكى : « لم يفكر قط فى إصلاح على النطاق الواسع الذى أصبح ضرورياً . . . وظلت الإدارة البابوية فى روما دنيوية شأنها فى أى وقت مضى (٢)» .

وخير برهان على أنه لم يعد سبيل إلى الإصلاح إلا أن يأتى بضربة من الخارج هو إخفاق أدريان السادس (١٥٢٢ — ٢٣) . ذلك أنه سلم بهذه المفاسد واضطلع باصلاحها فى القمة ، ولكن أهل روما سخروا منه وسبوه لأنه يهدد مواردهم من ذهب الأقطار الواقعة وراء الألب . وبعد عامين من النضال ضد هذه الأنانية الجاهلة مات أدريان قهراً .

بيد أن العاصفة المتجمعة تفجرت على رأس كلمنت السابع (١٥٢٣ — ٣٤) . لقد كان من خيرة البابوات فكراً وخلقاً ، رحيماً كريماً ، دافع عن اليهود المطاردين ، ولم يشارك فى الانحلال الجنسى أو المالى المحيط به ،

وواصل إلى نهاية حياته المضطربة تغذية الفن والأدب الإيطاليين برعايته الذكية المميزة . ولعل ما حظى به من تعليم رفيع حال بينه وبين أن يكون إدارياً ناجحاً ، وكان فى ذكائه من الحدة ما أتاح له رؤية المبررات الحسنة لكل مسلك فى كل أزمة ؛ وأوهن علمه من شجاعته ، وأغضبت ذبذباته الدولة تلو الدولة . على أننا لا نملك إلا التعاطف مع رجل توافر له حسن النية الشديد ، رجل رأى روما تنهب تحت بصره ، ورأى نفسه سجين غوغاء وإمبراطور ؛ رجل منعه ذلك الإمبراطور من محاولة الوصول إلى صلح معقول مع هنرى الثامن ؛ رجل أكره على أن يختار بين أمرين أحلاهما مر ، أن يخسر إما هنرى وإنجلترة ، وإما شارل وألمانيا ؛ رجل قيل له حين احتج على تحالف فرنسوا مع العثمانيين ، والقائل هو ذلك الملك « المسيحى جداً » ، إنه إذا بدر منه مزيد من الاحتجاج فان فرنسا ستطلق البابوية . إن أحداً من البابوات لم يتجرع مثله كأس المنصب حتى هذه الثمالة المرة .

وكانت أخطاؤه وبيلة . فهو حين أساء تقدير خلق شارل وموارده ، وبهذا شجع على « نهب روما » أصاب البابوية بلطمة شجعت شمال ألمانيا على نبذ الولاء لروما . وحين توج الرجل الذى أذن بذلك الهجوم فقد احترام العالم ، حتى العالم الكاثوليكى . وقد أذعن لشارل من جهة لافتقاره إلى القوة المادية اللازمة للمقاومة ، ومن جهة أخرى لخشيته من أن إمبراطوراً أقصاه البابا عن وده قد يدعو مجمعاً عاماً من العلمانيين ومن رجال الدين ، ويمسك بزمام السلطتين الكنسية والزمنية جميعاً . ويتم إخضاع الكنيسة للدولة المتمردة ، بل ربما يخلعه باعتباره ابناً غير شرعى[٣] . ولو أتيحت لكلمنت الشجاعة التى أبداها عمه لورنزو مديتشى فى نابلى عام ١٤٧٩ ، لبادر بدعوة مجمع قد يوفق تحت قيادته المتحررة فى إصلاح أخلاقيات الكنيسة وتعاليمها ، وفى إنقاذ وحدة العالم المسيحى الغربى .

أما خليفته فقد بدا لأول وهلة حائزاً على جميع شروط الذكاء والخلق . وأقر الجميع بأن أليساندرو فارنيزى ، الذى اتخذ اسم بولس الثالث ، هو الرجل الصالح لأرفع منصب فى العالم المسيحى ، فقد ولد فى أسرة غنية مثقفة ، وتعلم الآداب القديمة على يد بومبونيوس لايتوس ، ونضج أديباً إنسانياً وسط أسرة مديتشى بفلورنسة ، وقربه بابا أوقعته أخته من قبل فى شباك شعرها الذهبى ، ورسم كردينالا فى الخامسة والعشرين (١٤٩٣) ، وأثبت كفايته فى مهام دبلوماسية عسيرة ، وارتقى إلى مقام مرموق وغير منازع فى مجمع الكرادلة ، ثم انتخب للبابوية بالإجماع فى عام ١٥٣٤ . ولم ينل من قدره كثيراً إنجابه أربعة أبناء قبل أن يرسم قسيساً فى عام ١٥١٩ ، ومع ذلك فقد ظهر فى خلقه ، كما ظهر فى مجرى حياته العملية . تقلب وتناقضات ، وبعض هذا راجع لأنه وقف كعمود مهزوز بين النهضة التى أحبها وبين حركة إصلاح بروتستنتى لم يستطع فهمها أو اغتفارها . ومع أنه كان رقيق البدن ، فقد سلخ خمسة عشر عاماً من الزعازع السياسية والداخلية . ومع أنه تزود بكل ثقافة عصره ، فانه كان يلجأ بانتظام إلى المنجمين ليحددوا له أكثر الساعات مواتاة لرحلاته أو قراراته بل ومقابلاته(٤) . ومع أنه كان رجلا شديد الحساسية ، ميالا بين الحين والحين إلى نوبات الغضب ، فقد كان معروفاً بضبطه لنفسه . وقد وصفه تشلليني — الذى اضطر لإيداعه السجن — بأنه رجل « لا إيمان له بالله ولا بغيره »(٥) . وهذا يبدو غلواً فى الحكم عليه ، فما من شك فى أن بولس كان يؤمن بنفسه ، إلى أن أضعف مسلك ذريته فى سنوات عمره الأخيرة إرادة الحياة فيه . وقد عوقب حيث أثم ، فقد أعاد محاباة الأقرباء التى كانت طابع بابوية عصر النهضة ، وأعطى بياتشنزا وبارما لولده بيرلويجى ، وكاميرينو لحفيده أوتافيو ، وخلع القبعة الحمراء على ابنى أخيه البالغين من العمر أربعة عشر وسبعة عشر عاماً ورقاهما على الرغم

مما ذاع عنهما من فساد خلق . لقد كان يملك شخصية بلا خلق ، وذكاء بلا حكمة .

وقد اعترف بعدالة النقد الذى وجهه دعاة الإصلاح البروتستنتى إلى إدارة الكنيسة ، ولو كان الإصلاح الكنسى هو العقبة الوحيدة فى سبيل المصالحة لجاز أن ينهى حركة الإصلاح هذه . فى عام ١٥٥٣ أوفد بيرباولو فرجيريو ليسبر القادة البروتستنت حول حضورهم مجمعاً عاماً ، ولكنه أبى أن يعد بالسماح بأى تغيير جوهرى فى العقيدة المعرفة أو فى سلطة البابوات . وعاد فرجيريو من ألمانيا بخفى حنين ، فقد أبلغ البابا أن الكاثوليك هناك انضموا إلى البروتستنت فى التشكك فى إخلاص البابا فى اقتراح عقد المجمع (٦)، وأن الأرشيدوق فرديناند شكا من أنه لا يستطيع العثور على أب اعتراف لم يكن زانياً أو سكيراً أو جهولا (٧) . وكرر بولس المحاولة فى عام ١٥٣٦ ، وكلف بيتر فان درفورست أن يتفق مع اللوثريين على شروط عقد مجمع ، ولكن ناخب سكسونيا صد بيتر فلم يظفر بشىء . وأخيراً بذل بولس قصارى جهد الكنيسة فى الوصول إلى تفاهم مع ناقديها ، فأرسل إلى مؤتمر براتسبون الكردينال جاسبارو كونتاريني ، وكان رجلا لا يتطرق الشك إلى إخلاصه فى الحركة الكاثوليكية الداعية للأصلاح .

ونحن لا نملك غير العطف على الكردينال الشيخ الذى اقتحم ثلوج الأبنين والألب فى فبراير ومارس ١٥٤١ وهو يتوق لتتويج حياته بتنظيم السلام الدينى . وقد تأثر كل من كان فى راتسبون بتواضعه ، وبساطته ، وحسن نيته . وقد توسط فى صبر القديسين بين الكاثوليك إيك وفلوج وجروبر ، والبروتستنت ملانكتون وبوكر وبيستوريوس . وأمكن التوصل إلى اتفاق حول الخطية الأصلية ، والإرادة الحرة ، والعماد ، والتثبيت ، والرسامة . وفى ٣ مايو كتب كونتاريني إلى الكردينال فارنيزى مغتبطاً

« حمداً لله ؛ بالأمس وصل اللاهوتيون الكاثولوليك والبروتستنت إلى اتفاق حول عقيدة التبرير » ، ولكن لم يتيسر الوصول إلى حل وسط مقبول حول سر القربان ، فقد أبى البروتستنت الاعتراف بأن فى استطاعة قسيس أن يحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه ، وشعر الكاثوليك أن التخلى عن عقيدة التحول هذه معناه التخلى عن صميم القداس وطقوس كنيسة روما . وقفل كونتاريني عائداً إلى روما وقد أضناه الإخفاق والحزن ، ليدمغه أتباع الكردينال كارافا المتزمتين فى الكثلكة التقليدية بتهمة اللوثرية . ولم يفصح بولس نفسه عن استطاعته قبول الصيغ التى وقع عليها كونتاريني ، على أنه استقبله استقبالا ودياً وعينه ممثلا للبابا فى بولونيا . وهناك مات بعد وصوله بخمسة أشهر .

وأصبحت سياسة الدين أشد اكفهراراً واختلاطاً . وتساءل بولس ألا يظفر الإمبراطور شارل الخامس من وراء تصالح البروتستنت مع الكنيسة بدولة ألمانية موحدة ، يسود السلام ربوعها ، بحيث تطلق يده فى أن يولى وجهه صوب الجنوب ، ويربط أملاكه فى شمالى وجنوبى إيطاليا بالاستيلاء على الولايات البابوية والقضاء على سلطة البابوات الزمنية ؟ أما فرنسوا الأول فانه لخشيته أيضاً من تهدئة ألمانيا اتهم كونتاريني بالاستسلام المخزى للمهرطقين ، وتعهد بتأييد بولس تأييداً كاملا إن هو رفض فى حزم مصالحة اللوثريين[٨] — الذين كان فرنسوا يسعى إلى التحالف معهم : ويبدو أن رأى بولس استقر على أن التفاهم الدينى سيكون مجلبة خراب سياسى . وفى عام ١٥٣٨ استطاع بالدبلوماسية البارعة أن يقنع شارل وفرنسوا بتوقيع هدنة فى نيس ، ولما أمن شر شارل فى الغرب على هذا النحو حرضه على الهجوم على اللوثريين . وحين قارب شارل الانتصار ١٥٤٦ سحب بولس الفرقة البابوية التى كان قد أرسلها إليه ، لأنه هناصاً أى ارتعد فرقاً من أن يكون فى خلاص الإمبراطور من وجود

مشكلة بروتستنتية فى مؤخرته ما يغريه باخضاع إيطاليا كلها لسلطانه وأصبح البابا بروتستنتياً مؤقتاً، ونظر إلى اللوثرية كأنها حامية للبابوية — تماماً كما كان سليمان القانونى حامياً للوثرية . وفى هذه الأثناء كان فرنسوا الأول — درعه الثانى ضد شارل — يحالف العثمانيين الذين هددوا المرة بعد المرة بغزو إيطاليا والهجوم على روما . ولعلنا نغتفر بعض هذا التذبذب لبابا أرهقه الخصوم وأحدقت به المشكلات على هذا النحو ، وما من عدة لديه غير حفنة من الجند ، ولا دفاع غير إيمان لا يعمر فيما يبدو إلا قلوب الضعفاء . وفى وسعنا أن ندرك ضآلة الدور الذى لعبه الدين فى هذه الصراعات على القوة حين نسمع تعليق شارل للسفير البابوى إذ علم أن بولس حول وجهه شطر فرنسا : قال الإمبراطور إن البابا أصابته فى شيخوخته عدوى مرض يصيب الناس عادة فى شبابهم ، هو المرض الفرنسى[٩] .

ولم يصد بولس البروتستنتية ولا أدخل أى إصلاحات جوهرية ، ولكنه نفخ الحياة فى البابوية ورد لها عظمتها ونفوذها ؛ وظل إلى النهاية واحداً من بابوات النهضة . فقد شجع جهود ميكلانجلو وغيره من الفنانين وأمدهم بالمال ، وجمل روما المبانى الجديدة ، وزين الفاتيكان بـ « الصالا ريجيا » و « الكابيلا باولينا » ، وشارك فى حفلات الاستقبال الفخمة ، ورحب بالجميلات من النساء على مائدته ، واستقبل الموسيقيين والمهرجين والمغنيات والراقصات فى بلاطه[١٠] ، وحتى فى ثمانيناته لم يكن سليل فارنيزى هذا ليفسد اللعبة على لاعبيه . وقد نقله لنا تيشان فى سلسلة من اللوحات القوية ؛ وفى أفضل هذه اللوحات (المحفوظة بمتحف نابلى) يبدو هذا الحبر الأعظم ، الذى سلخ من عمره خمسة وسبعين عاماً ، محتفظاً بقوته ، على وجهه أخاديد حفرتها مشكلات الدولة والأسرة ، ولكن رأسه لم ينحن بعد للزمن . وبعد ثلاث سنوات رسم تيشان لوحة لبولس وابنى أخيه أوتافيو

والسندرو (محفوظة هى الأخرى بنابلى) كادت تتنبأ بمصيره ، فالبابا الذى انحنى الآن ظهره ونال منه الأعياء . يبدو فيها وكأنه يستجوب أوتافيو مستريباً فى أمره . ذلك أن بيير لويجى . بن بولس ، اغتيل عام ١٥٤٧ ، وفى عام ١٥٤٨ تمرد أوتافيو على أبيه ، ودخل فى اتفاق مع أعداء بولس ليجعل بارما ولاية إمبراطورية . وأسلم البابا العجوز نفسه للموت (١٥٤٩) بعد أن هزمه حتى أبناؤه .

وقد أخطأ خليفته فى تسمية نفسه بيوليوس الثالث (١٥٥٠٠ — ٥٥) ، إذ لم يكن فيه شيء من فحولة يوليوس الثانى ولا قوته ولا أهدافه الطموحة . بل إنه استأنف أساليب ليو العاشر السهلة الهينة ، واستمتع بالبابوية فى إسراف لطيف ، وكأن حركة الإصلاح البروتستنتى ماتت بموت لوثر . فخرج للصيد ، واحتفظ بندماء البلاط ، وقامر بمبالغ كبيرة ، ورعى مصارعات الثيران ، ورقى لمنصب الكردينالية تابعاً له يعنى بنسناسه ، وأعطى روما على الجملة آخر رشفة رشفتها من وثنية النهضة سواء فى الأخلاق والفن[11] . وقد كلف فينولا وغيره بأن يشيدوا له خارج « البورتا ديل بوبولو » بيتا جميلا « فيللا دى بابا جوليو » (١٥٥٣) جعله مركزاً للفنانين والشعراء والاحتفالات . ثم كيف نفسه فى هدوء وفق سياسات شارل الخامس . وشكا النقرس فى غير أوانه ، فحاول علاجه بالصوم . ويبدو أن هذا البابا الأبيقورى مات من الزهد فى الطعام[12] ، وقيل من الانغماس فى اللذات[13] .

وجاء البابا مارتشيللوس الثانى ، وكان أقرب إلى القديسين . فحياته الخلقية بلا لوم ، وتقواه عميقة ، واختياره لشاغلى المناصب مثالى ، وجهوده لإصلاح الكنيسة مخلصة ، ولكنه مات فى اليوم الثانى والعشرين من تقلده منصب البابوية (٥ مايو ١٥٥٥) .

وكأن الكرادلة أرادوا أن يعلنوا على الملأ أن معارضة الإصلاح

البروتستنتى قد وصلت إلى البابوية ، فقلدوها رجلا كان روح حركة الإصلاح فى الكنيسة وصوتها ، وهو الناسك جوفانى بييترو كارافا ، الذى سمى نفسه بولس الرابع (١٥٥٥ — ٥٩) . وكان وقد بلغ التاسعة والسبعين ثابتاً على آرائه لا يحيد عنها قيد أنملة ، مكرساً نفسه لتنفيذها برسوخ فى الإرادة وحدة فى العاطفة لا يكادان يناسبان رجلا فى سنه . كتب السفير الفلورنسى يقول : « إن البابا رجل قد من حديد ، بل إن الأحجار التى يمشى فوقها تنفث الشرر »[١٤] . كان مولده فى بينيفنتو ، لذلك حمل حرارة جنوبى إيطاليا فى دمه ، وبدت النار دائمة التوقد فى مقلتيه الغائرتين. وكان فى طبعه فورة البركان ، ولم يجرؤ على معارضته سوى السفير الأسبانى تدعمه فرق الدوق ألفا . وقد كره بولس الرابع أسبانيا لأنها سيطرت على إيطاليا ، وكما حلم يوليوس الثانى وليو العاشر بطرد الفرنسيين ، كذلك كان أول أهداف هذا الثمانينى النشيط تحرير إيطاليا والبابوية من السيادة الأسبانية — الإمبراطورية . فاتهم شارل الخامس بأنه ملحد مقنّع[١٥] ، وابن مجنون لأم مجنونة ، وشخص « كسيح جسداً وروحاً »[١٦] ، ودمغ الشعب الأسبانى بأنه حثالة من الساميين[١٧] ، وأقسم أنه لن يعترف بفيليب واليا على ميلان . وفى ديسمبر ١٥٥٥ عقد معاهدة مع هنرى الثانى ملك فرنسا وإيركولى الثانى أمير فرارة لطرد جميع القوات الأسبانية أو الإمبراطورية من إيطاليا ، فاذا تم للحلفاء النصر أخذت البابوية سيينا ، والفرنسيون ميلان ، وحكموا نابلى بوصفها ولاية بابوية ، ووجب عزل شارل وفرديناند لقبولهما شروط البروتستنت فى أوجزبورج[١٨] .

وبمهزلة من هذه المهازل التى يمكننا رؤيتها ، ونحن على بعد كاف ، فى مآسى التاريخ ، وجد فيليب الثانى نفسه فى حرب مع البابوية وهو أشد أنصار الكنيسة غيرة وتحمساً . فأمر الدوق ألفا على مضض بأن يزحف بجيش نابولى على الولايات البابوية . ولم تمض أسابيع حتى هزم الدوق

بجنوده المتمرسين بالقتال ، البالغ عددهم ١٠,٠٠٠ ، قوات البابا الضعيفة ، واستولى على المدينة تلو المدينة ، ونهب أنانيي ، واستولى على أوستيا ، وهدد روما (نوفمبر ١٥٥٦) . وبارك بولس معاهدة بين فرنسا والعثمانيين ، ولجأ وزير خارجيته ، الكردينال كارلو كارافا ، إلى سليمان القانونى ليهاجم نابلى وصقلية[١٩] . وأرسل هنرى الثانى جيشاً إلى إيطاليا يقوده فرنسوا دوق جيز ، فاستعاد أوستيا ، وهلل البابا ، ولكن هزيمة الفرنسيين فى سان — كنتان أكرهت جيز على العودة برجاله سريعاً إلى فرنسا ، وزحف ألفا على أبواب روما دون مقاومة . وولول أهل روما فرقاً ، وودوا لو أن حبرهم الدينى الطائش كان نزيل قبره[٢٠] ، ورأى بولس أن المزيد من القتال قد يعيد « نهب روما » الرهيب ، بل قد يحمل أسبانيا على الانفصال عن كنيسة روما . لذلك وقع فى ١٢ سبتمبر ١٥٥٧ معاهدة صلح مع ألفا ، الذى عرض شروطا سخية ، واعتذر عن انتصاره ، ولثم قدم البابا المغلوب[٢١] . وردت إلى البابا جميع أراضيه التى سبق الاستيلاء عليها ، ولكن السيادة الأسبانية على نابلى وميلان والبابوية تأكدت . وبلغ انتصار الدولة على الكنيسة منتهاه ، حتى أن الأمراء الناخبين هم الذين توجوا فرديناند حين تسلم لقب الإمبراطور من شارل الخامس (١٥٥٨) ، ولم يسمح لأى ممثل للبابا بالقيام بأى دور فى مراسيم الاحتفال . وهكذا كانت نهاية تتويج البابوات لأباطرة الدولة الرومانية المقدسة ، وتحقق آخر المطاف انتصار شارلمان فى خلافه مع ليو الثالث .

والآن وقد تخفف بولس الرابع طوعاً أوكرها من أعباء الحرب ، فانه فرغ فيما بقى له من فترة بابويته للاصلاحات الكنسية والأخلاقية التى ذكرناها من قبل . وقد توجها بطرد وزيره الإباحى الكردينال كارلو كارافا ، وإن جاء هذا الطرد متأخراً ، وبنفى ابنى أخ آخرين من روما ؛ وكانا قد شوها سمعة بابويته . وأجليت عن الفاتيكان أخيراً سبة محاباة الأقرباء التى استشرت فيه قرنا من الزمان .

٢ — الرقابة ومحكمة التفتيش

وهذا البابا الحديدي هو الذي بلغت رقابة المطبوعات فى عهده غاية الصرامة واتساع المدى ، وأصبحت محكمة التفتيش ضرباً من الإرهاب كادت تبلغ وحشيته فى روما ما بلغته فى أسبانيا . ولعل بولس الرابع شعر بأن رقابة المطبوعات وقمع الهرطقة واجبان لا مندوحة عنهما لكنيسة أجمع الرأى البروتستنتى والكاثوليكى على أن مؤسسها هو ابن الله . لأنه إذا كانت الكنيسة من الله ، فخصومها إذن لا بد عملاء للشيطان ، والحرب الدائمة على هؤلاء الشياطين التزام دينى قبل إله مهان .

والرقابة قديمة قدم الكنيسة نفسها تقريباً . فالمسيحيون فى أفسس أحرقوا فى عصر الرسل كتباً فى « فنون غريبة » قيل إن قيمتها بلغت « ٥٠,٠٠٠ قطعة من الفضة [٢٢] » ، وحرم مجمع أفسس (١٥٠) تداول « أعمال بولس »[٢٣] غير القانونية . وفى فترات مختلفة أمر البابوات بحرق التلمود أو غيره من كتب اليهود . وحظرت ترجمة ويكليف وما تلاها من الترجمات البروتستنتية للكتاب المقدس لاحتوائها مقدمات وهوامش وتصحيحات معارضة للكاثوليكية. وزاد اختراع الطباعة من حرص الكنيسة على ألا تفسد أبناءها التعاليم الباطلة . فأمر مجمع اللاتيران الخامس (١٥١٦) بألا تطبع بعده كتب دون أن تفحصها الكنيسة وتوافق عليها . وأصدرت السلطات الزمنية بيانات بمحظوراتها من المطبوعات غير المرخصة : مجلس شيوخ البندقية فى ١٥٠٨ ، ومجلس نواب فورمز ومراسيم شارل الخامس وفرنسوا الأول فى ١٥٢١ ، وبرلمان باريس فى ١٥٤٢ . وفى ١٥٤٣ وسع شارل الرقابة الكنسية على المطبوعات فشملت أمريكا الأسبانية . وفى عام ١٥٤٤ نشرت السوربون أول فهرس عام بالكتب المحرمة ، ونشرت محكمة التفتيش أول قائمة إيطالية فى عام ١٥٤٥ .

وفى عام ١٥٥٩ نشر بولس الرابع أول فهرس بابوى بالكتب المحظورة ، وقد ورد فيه ثمان وأربعون طبعة مهرطقة للكتاب المقدس ، وأوقع الحرم على واحد وستين طابعاً وناشراً (٢٤) . وقد فرض على كل كاثولكى الامتناع عن قراءة أى كتاب نشر منذ سنة ١٥١٩ دون أن يحمل اسمى المؤلف والطابع ومكان النشر وتاريخه ، وحرمت قراءة أى كتاب بعد ذلك لم يحصل على إذن كنسى "imprimatur" بطبعه. وشكا باعة الكتب وطلاب العلم من أن هذه الإجراءات معطلة لهم أو قاضية عليهم ، ولكن بولس أصر على الطاعة التامة . وأحرقت آلاف الكتب فى روما وبولونيا ونابلى وميلان وفلورنسه والبندقية — ١٠,٠٠٠ فى البندقية فى يوم واحد(٢٥) . وبعد موت بولس انتقد نفر من قادة الكنيسة إجراءاته لما فيها من مغالاة فى العنف وعدم التمييز ، ورفض مجمع ترنت فهرسه ، وأصدر تحريماً أكثر تنظيماً ، هو « الفهرس الثلاثى » (١٥٦٤) . وشكلت لجنة خاصة للفهرس فى ١٥٧١ لمراجعة القائمة وإعادة نشرها بصفة دورية .

ومن العسير الحكم على أثر هذه الرقابة . وعند باولو ساربى ، وكان راهباً سابقاً ، ومعارضاً للإكليروس ، أن الفهرس « هو أبدع سر كشف إلى الآن . . . لفرض البلاهة على الناس(٢٦) » . ولعله شارك فى احداث اضمحلال إيطاليا الفكرى بعد عام ١٦٠٠ ، واضمحلال أسبانيا بعد عام ١٧٠٠ ، ولكن العوامل الاقتصادية والسياسية كانت أهم . والفكر الحر ، كما يقول أقوى مؤرخ إنجليزى له ، عاش فى الدول الكاثوليكية خيراً مما عاش فى الدول البروتستنتية ، وتبين حتى عام ١٧٥٠ أن الحكم المطلق للكتب المقدسة الذى فرضه اللاهوتيون البروتستنت أشد إيذاء للبحث والتفكير المستقلين من فهارس الكنيسة ومحكمة تفتيشها(٢٧). أياً كان الأمر فان الحركة الانسانية ذبلت ، فى الدول الكاثوليكية والبروتستنتية على السواء . وخف التأكيد على الحياة فى الأدب ، واضمحلت دراسة اليونانية ومحبة الآداب

الوثنية ، ورمى اللاهوتيون المتصرون الإنسانيين الإيطاليين (ولهم بعض العذر فى هذا) بأنهم كفرة متغطرسون فاسقون .

ونفذت الرقابة على الكتب فى تراخ حتى وكلها بولس الرابع إلى محكمة التفتيش (١٥٥٥) . وكانت هذه المؤسسة التى أنشئت أولا عام ١٢١٧ قد انتكست سلطتها وسمعتها نتيجة لتساهل بابوات النهضة . ولكن حين أخفقت آخر محاولة للمصالحة مع البروتستنت فى راتسبون ، وظهرت التعاليم البروتستنتية فى إيطاليا ذاتها ، حتى بين رجال االإكليروس ، وخيف أن تتحول مدن بأسرها مثل لوكا ومودينا إلى البروتستنتية[٢٨] اشترك الكردينا ل جوفانى كارافا ، وإجناتيوس لويولا ، وشارل الخامس فى الإلحاح على إعادة محكمة التفتيش . وأذعن بولس الثالث (١٥٤٢) ، وعين كارافا وخمسة كرادلة آخرين لإعادة تنظيم المؤسسة ، وخول لهم سلطة تفويض كنسيين خاصين فى أرجاء العالم المسيحى ، وشرع كارافا فى التنفيذ بما عهد فيه من صرامة ، وأنشأ مقرا للمحكمة وسجنا ، ووضع هذه القواعد لمرءوسيه :

١ — حين يكون الإيمان موضع شك يجب ألا يكون هناك أى تأجيل ، ولا بد من اتخاذ الإجراءات الصارمة بكل سرعة إذا قامت أقل شبهة .

٢ — يجب ألا يكون هناك أى اعتبار لأى أمير أو حبر مهما علا منصبه .

٣ — الصرامة المتناهية أولى أن تستعمل مع أولئك الذين يحاولون الاحتماء بأى حاكم . ولا يعامل بالرفق والعطف الأبوى إلا من اعترف اعترافاً كاملا .

٤ — يجب ألا يحط إنسان من قدره بابداء التسامح نحو المهرطقين أياً كان نوعهم ، ونحو الكالفنيين على الأخص[٢٩] .

فأما بولس الثالث ومارتشيللوس الثانى فقد قيدا حماسة كارافا ، واحتفظا بحق العفو عند الاستئناف . وأما يوليوس الثالث فكان أوهن من أن يتدخل فى عمل كارافا ، فأحرق فى عهده نفر من المهرطقين فى روما .

وفى عام ١٥٥٠ أمرت محكمة التفتيش الجديدة بمحاكمة أى كاهن كاثوليكى لا يعظ ضد البروتستنتية . فلما ارتقى كارافا نفسه عرش البابوية باسم بولس الرابع ، انطلقت المؤسسة إلى العمل بكل طاقتها . « واكتسبت المحكمة بفضل صرامته الخارقة سمعة واسعة ، بحيث لم يكن هناك كرسى قضاء آخر فى الأرض يتوقع الناس منه إصدار أحكام أشد بشاعة وإرهاباً » على حد قول الكردينال سيريباندو[٣٠] . ووسع اختصاص محكمة التفتيش حتى شمل التجديف والمتاجرة بالرتب الكهوتية (السيمونية) ، واللواط ، والزواج المتعدد ، وهتك العرض ، والقوادة ، وانتهاك نظم الكنيسة فى الصوم ، وغير هذه من الذنوب التى لا تمت للهرطقة بسبب . ونحن نسوق أيضاً هذه الفقرة من كلام مؤرخ كاثوليكى عظيم :

« كان البابا العجول السريع التصديق يعير أذناً صاغية لكل اتهام ولو كان شديد السخف . . . وكان رجال محكمة التفتيش الذين لم يفتر البابا عن حضهم يشمون الهرطقة فى حالات كثيرة ما كان المراقب الهادئ الحذر ليكشف فيها أثراً لهرطقة . . . وحرض الحاسدون والمفترون على بذل الجهد فى تسقط الكلمات المريبة من شفاه رجال كانوا عمداً راسخة للكنيسة ضد المبتدعين ، وعلى تلفيق تهم الهرطقة لهم . . . وبدأ عصر إرهاب فعلى ملأ روما كلها بالخوف »[٣١] .

وفى قمة هذا العنف (٣١ مايو ١٥٥٧) أمر بولس بالقبض على الكردينال جوفانى مورونى ، أسقف مودينا ؛ وفى ١٤ يونيو أمر الكردينال بولى بأن يتخلى عن سلطة الممثل البابوى فى إنجلترا ويحضر إلى روما ليواجه محاكمته بتهمة الهرطقة . وقال البابا إن مجمع الكرادلة نفسه سرت إليه دعوى الهرطقة . أما بولى فقد بسطت عليه الملكة مارى حمايتها ومنعت تسليم الاستدعاء البابوى له . وأما مورونى فقد اتهم بأنه وقع اتفاق راتسبون حول عقيدة التبرير بالإيمان ، وبأنه تهاون مع المهرطقين الداخلين فى

نطاق سلطته ، وبأنه كان صديقاً لبولى ، وفتوريا كولونا ، وفلامينيو ، وغيرهم من الشخصيات الخطرة ، وبعد أن قضى ثمانية عشر يوماً سجيناً فى قلعة سانت أنجيلو أصدر قضاة التفتيش حكمهم ببراءته ، وأمروا بالإفراج عنه ، ولكنه أبى أن يبرح زنزانته حتى يقر بولس ببراءته . ولكن بولس رفض ، فظل مورونى سجيناً حتى أطلقه موت البابا . وأما فلامينيو فقد فوت على محكمة التفتيش غرضها بموته ، « ولكننا أحرقنا أخاه شيزارى فى الميدان المواجه لكنيسة المينرفا »[٣٢] ، كما قال بولس ؛ وراح الحبر المجنون يطارد أقرباءه هو بشبهات الهرطقة فى عناد لا يعرف التحيز . قال « لو أن أبى ذاته كان مهرطقاً لجمعت الحطب لحرقه »[٣٣] .

كان بولس لحسن الحظ بشرا نهايته الموت ، فمضى لحسابه . بعد أربع سنوات من الحكم . واحتفلت روما بموته بأربعة أيام من الشغب المرح ، حطمت خلالها الجماهير تمثاله ، وجرته فى الشوارع ، ثم أغرقته فى نهر تيبر ، وأحرقت مبانى محكمة التفتيش ، وأطلقت سجناءها ، وأتلفت وثائقها[٣٤] . ولعل البابا كان يرد على هذا بأنه ما كان فى استطاعة رجل أن يصلح أخلاق روما ومفاسد الكنيسة إلا إذا أوتى صرامته وشجاعته اللتين لا هوادة فيهما ، وأنه وفق فى هذه المغامرة بينما أخفق أسلافه . ومن أسف أنه فى محاولته إصلاح الكنيسة تذكر توركويمادا ونسى المسيح .

وتنفس غرب أوربا كله الصعداء حين اختار مجمع الكرادلة سنة ١٥٥٩ جوفانى أنجيلو دى مديتشى حبرا أعظم باسم البابا بيوس الرابع . لم يكن مليونيراً مديتشيا ، بل ابن جاب للضرائب ميلانى ، اشتغل بالمحاماة ليكسب قوته ، وظفر باعجاب بولس الثالث وثقته ، فعين كردينالا ، واشتهر بالذكاء والميل إلى أعمال البر ، فلما ارتقى عرش البابوية ابتعد عن الحرب ووبخ أولئك الذين كانوا يشيرون بالسياسات العدوانية ، ولم يقض على محكمة التفتيش ، ولكنه أشعر قضاتها بأنهم

« يسرونه أكثر لو ياشروا عملهم بلطف السادة المهذبين لا بجلافة الرهبان»[٣٥].
وأراد اغتياله متعصب حسبه مفرطاً فى اللين ، ولكنه شلّ رهبةً حين
مر به البابا هادئاً مجردا من أسباب الدفاع . وقد برهن على ما أوتى من
روح المصالحة إذ سمح لأساقفة ألمانيا الكاثوليك بمناولة سر القربان بالخبز
والخمر كليهما. وأعاد عقد مجمع ترنت ، وقاده إلى خاتمة اتسمت بالنظام ،
ثم فارق الحياة عام ١٥٦٥ بعد رياسة دعمت فى هدوء حركة المعارضة
للإصلاح البروتستنتى .

٣ — مجمع ترنت (١٥٤٥ — ٦٣)

قبل أن يأتى لوثر بزمن طويل ارتفعت مئات الأصوات مطالبة بعقد
مجمع يصلح الكنيسة . وطالب لوثر بعرض نزاعه مع البابا على مجمع
عام حر ، وطالب شارل الخامس بعقد مجمع كهذا بأمل نفض يده
من المشكلة البروتستنتية ، وربما بأمل تأديب البابا كلمنت السابع ،
واستطاع ذلك البابا الذى أنهكته الهجمات المتكررة أن يجد مائة عذر
لتأجيل مثل هذا المجمع حتى يصبح بعيداً عن متناوله . فقد تذكر ما حدث
للسلطة البابوية فى مجمعى كونبستانس وبازل ، وما كان ليسمح لأساقفة
معادين له ، أو لمندوبى الإمبراطور ، بدس أنوفهم فى سياساته أو مصاعبه
الداخلية أو مولده . ثم كيف يستطيع مجمع أن ينقذ الموقف ؟ ألم يرفض
لوثر الاعتراف بالمجامع كما رفض الاعتراف بالبابوات ؟ ولو قبل
البروتستنت فى مجمع وسمح لهم بحرية الكلام فان النزاع الذى سيسفر
عنه هذا القبول سيوسع الانشقاق ويزيده مرارة ويزعج أوربا بأسرها ؛
ولو حيل بينهم وبينه لأثاروا غضب التمرد والعصيان . وأراد شارل أن
يعقد المجمع على أرض ألمانية ، ولكن فرنسوا أبى السماح للإكليروس
الفرنسى بحضور اجتماع خاضع لسيادة الإمبراطور . يضاف إلى هذا

رغبة فرنسوا فى الإبقاء على النيران البروتستنتية مشتعلة فى المؤخرة الإمبراطورية . لقد كان الموقف مختلطاً أشد الاختلاط .

فلما جاء بولس الثالث ساورته كل مخاوف كلمنت ، ولكنه كان أشجع منه . ففى عام ١٥٣٦ أصدر دعوة لمجمع عام يجتمع فى مانتوا فى ٢٣ مايو ١٥٣٧ ، ودعا البروتستنت لحضوره . وافترض أن جميع الأطراف التى ستحضره ستقبل النتائج التى يخلص إليها المجمع ؛ ولكن ما كان للبروتستنت وهم أقلية فى مؤتمر كهذا أن يقبلوا مثل هذا الالتزام . وأشار لوثر بعدم الحضور ، ورد مؤتمر البروتستنت المنعقد فى شمالكالدين دعوة البابا دون أن يفتحها . وواصل الإمبراطور إصراره على عقد المجمع فى أرض ألمانية ، وكانت حجته أنه لو عقد فى أرض إيطالية لازدحم بالأساقفة الإيطاليين ولأصبح لعبة فى يد البابا . وبعد الكثير من المفاوضات والتأجيلات وافق بولس على عقد المجمع فى ترنت ، وكانت تقع فى أرض إمبراطورية وتخضع لشارل على الرغم من غلبة الإيطاليين على سكانها . ودعى المجمع للانعقاد فيها فى أول نوفمبر ١٥٤٢ .

ولكن ملك فرنسا رفض أن يلعب دوره . وأبى نشر دعوة البابا فى أرجاء ملكه ، وهدد بالقبض على أى فرد من الإكليروس الفرنسى يحاول حضور مجمع منعقد على أرض عدوه ، فلما افتتح المجمع لم يكن حاضراً سوى بضعة أساقفة كلهم إيطاليون ، وأجل بولس الاجتماع حيناً حتى يسمح شارل وفرنسوا بانعقاد المجمع بكامل عدده . وبدا أن صلح كريبى قد أزاح العقبات من الطريق ، ودعا بولس إلى عودة انعقاد المجمع فى ١٤ مارس ١٥٤٥ . ولكن تجدد الخطر على الإمبراطور من العثمانيين أكرهه ثانية على مصالحة البروتستنت ، فطلب تأجيل المجمع مرة أخرى ، ولم يبدأ « المجمع المسكونى التاسع عشر للكنيسة المسيحية » دوراته النشيطة إلا فى ١٣ ديسمبر ١٥٤٥ .

ولكن حتى هذه البداية لم يحالفها التوفيق ، ولم تبلغ قط مبلغ « نصف العمل » . ذلك أن البابا الذى قارب الثمانين ظل فى روما ، يرأس المجمع « غيابياً » ، ولكنه ندب عنه ثلاثة كرادلة يمثلونه : ديل مونتى ، وتشرفينى ، وبولى . وكان قوام المجمع كردينال ترنت مادروزو ، وأربعة رؤساء أساقفة ، وعشرين أسقفاً ، وخمسة من قادة الطرق الديرية ، وبعض رؤساء الأديار ، وبضعة لاهوتيين ؛ ولم يكن فى وسع المجمع حتى ذلك الحين الزعم بأنه « مسكونى » ـ أى عالمى(٣٦). وبينما كان حق التصويت فى مجمعى كونستانس وبازل متاحاً للقساوسة ، والأمراء ، وبعض العلمانيين ، كما كان متاحاً للأساقفة ، وكان التصويت بالمجموعات القومية ، فان هذا الحق قصر هنا على الكرادلة والأساقفة والقواد ورؤساء الأديار ، وكان التصويت بالأفراد ، ومن ثم فان الأساقفة الإيطاليين — وأكثرهم مدين للبابوية أو موال لها لأسباب أخرى — سيطروا على المجمع بأغلبيتهم العددية . وحضرت اللجان المجتمعة فى روما باشراف البابا المسائل التى لا يمكن عرض غيرها للمناقشة(٣٧) . وقد لاحظ مندوب فرنسى أنه ما دام المجمع يزعم بأنه يعمل بارشاد الروح القدس ، فان الأقنوم الثالث كان يأتى إلى ترنت بانتظام فى حقيبة البريد القادمة من روما(٣٨) .

ودارت أولى المناقشات حول الإجراءات : أمن الواجب البدء بتعريف الإيمان ثم البحث فى الإصلاحات ، أم العكس ؟ فأما البابا ومؤيدوه الإيطاليون فأرادوا البدء بتعريف للعقائد . وأما الإمبراطور ومؤيدوه فأرادوا البدء بالإصلاح ، أملا من شارل فى تهدئة البروتستنت أو إضعافهم أو إحداث مزيد من الانقسام فى صفوفهم ، وأملا من الأحبار الألمان والأسبان أن تقلل الإصلاحات من سلطة البابا على الأساقفة والمجامع . وقد أمكن الوصول إلى حل وسط ، فاتفق على أن تحضر لجان متزامنة القرارات حول العقيدة والإصلاح ، وتعرض هذه القرارات على المجمع بالتناوب .

وفى مايو ١٥٤٦ أوفد بولس اثنين من اليسوعيين هما لاينيز وسالميرون ليساعدا مندوبيه فى الشئون اللاهوتية وفى الدفاع عن البابا ؛ ثم انضم إليهما بيتر كانيزيوس وكلود لوجى . وما لبث تفقه اليسوعيين الذى لم يضارعهم فيه أحد أن أكسبهم نفوذاً طاغياً فى المناقشات ، وقاد إصرارهم على سلامة العقيدة المجمع إلى إعلان الحرب على أفكار الإصلاح البروتستنتى بدلا من التماس التوفيق أو الوحدة . وكان حكم الأغلبية فيما يبدو أن أى تنازلات للبروتستنت لن ترأب الصدع ؛ وأن الملل البروتستنتية تعددت وتنوعت بحيث لا يمكن لأى حل وسط أن يرضى بعضها دون أن يغضب البعض الآخر ، وأن أى تغيير جوهرى فى العقائد التقليدية من شأنه أن يضعف بنيان الكاثوليكية العقائدى واستقرارها كله ؛ وأن السماح للعلمانيين بالسلطات الكهنوتية سيقوض السلطة الأدبية للكهنوت والكنيسة ، وأن هذه السلطة لا غنى عنها للنظام الاجتماعى ؛ وأن لاهوتاً يرتكز بصراحة على الإيمان سيحبط نفسه إذا خضع لأهواء التفكير الفردى . وبناء عليه فان دورة المجمع الرابعة (أبريل ١٥٤٦) أكدت من جديد كل فقرة من فقرات العقيدة النقوية ، وادعت سلطانا متساوياً لتقليد الكنيسة وللكتاب المقدس ، وأعطت الكنيسة الحق دون غيرها فى شرح الكتاب وتفسيره ، وأعلنت أن ترجمة جيروم اللاتينية هى الترجمة والنص النهائيان للكتاب : وتقرر أن القديس توما الأكوينى هو الشارح العمدة للاهوت النقى من الشوائب ، ورفع كتابه « خلاصة اللاهوت » إلى مقام لا يعلوه فيه إلا الكتاب المقدس والمراسيم البابوية[٣٩] . وهكذا نرى أن الكاثوليكية بوصفها ديناً ذا سلطان معصوم بدأت عملياً من مجمع ترنت ، وتبلورت على هيئة استجابة عنيدة لذلك التحدى الذى واجهتها به البروتستنتية ، والعقلانية ، والرأى الفردى . وانتهى بذلك « اتفاق الجنتلمان » بين كنيسة النهضة والطبقات المفكرة .

ولكن إذا كان الإيمان حيوياً إلى هذا الحد . فهل كان أيضاً كافياً فى ذاته لاستحقاق الخلاص كما زعم لوثر ؟ لقد ارتفعت فى الدورة الخامسة (يونيو ١٥٤٦) مناقشات عنيفة حول هذه النقطة ، وأمسك أحد الأساقفة بلحية آخر وانتزع منها حفنه من الشعر الأبيض ، ولما سمع الامبرطور بما وقع أرسل إلى المجمع يقول إنه إن لم يهدأ فسيأمر بالقاء نفر من الأساقفة فى نهر أديج ليهدىء ثائرتهم(٤٠) . ودافع ريجينالد بولى عن رأى قريب قرباً خطراً من رأى لوثر ، حتى أن الكردينال كارافا (الذى أصبح بولس الرابع فيما بعد) دمغه بالهرطقة ، وانسحب بولى من المعركة قاصداً بادوا ، واعتذر بالمرض عن التخلف عن حضور المجمع(٤١) . ودافع الكردينال سيريباندو عن الصيغة التوفيقية التى عرضها فى راتسبون الكردينال كنونتاريني ، وكان قد مات ، ولكن لاينيز أقنع المجمع بأن يشدد على أهمية الأعمال الصالحة وحرية الإرادة ، معارضاً بذلك لوثر معارضة كاملة .

أما إجراءات الإصلاح الكنسى فكانت حركتها أقل نشاطاً من تعريفات العقيدة . كان أسقف كاتدرائية القديس مرقس قد افتتح دورة ٦ يناير ١٥٤٦ برسمه صورة قاتمة للفساد الذى استشرى فى العالم ، والذى لن يفوقه فى ظنه فساد الأجيال القادمة إطلاقاً ، وقد عزا هذا الفساد « إلى شر الرعاة دون سواه » . وقال إن هرطقة لوثر سببها الرئيسى خطايا الإكليروس ، وإن إصلاح الإكليروس خير سبيل لقمع هذا التمرد(٤٢) . ولكن الإصلاح الجوهرى الوحيد الذى تحقق فى هذه الدورات الأولى كان ذلك الذى حرم على الأساقفة الإقامة بعيداً عن أسقفياتهم ، أو شغل أكثر من أسقفية . واقترح المجمع على البابا أن ينقل إصلاح قسم الوثائق من التوصيات النظرية إلى الأوامر الفعلية ، ولكن بولس كان يريد أن تترك شئون الإصلاح للبابوية ، فلما أصر الإمبراطور على مزيد من السرعة فى مناقشات الإصلاح فى المجمع ، أمر البابا مندوبيه بأن يقترحوا نقل

المجمع إلى بولونيا — التى تسمح لروما بأن تشرف على أعمال المجمع إشرافاً أسرع لأنها واقعة فى الولايات البابوية . ووافق الأساقفة الإيطاليون ، أما الأساقفة الإسبان والإمبراطوريون فاحتجوا ، وظهر فى ترنت طاعون غير ذى بال فى الوقت المناسب فقضى على أحد الأساقفة ، وانتقلت الأغلبية الإيطالية إلى بولونيا ، أما الباقون فظلوا فى ترنت . ورفض شارل الاعتراف بدورات بولونيا . وهدد بعقد مجمع منفصل فى ألمانيا . وبعد عامين من الجدل والمناورة خضع بولس وعطل مجمع بولونيا (سبتمبر ١٥٤٩) .

وخف توتر الموقف بموت بولس . ووصل يوليوس الثالث إلى تفاهم مع الإمبراطور ، فدعا المجمع للانعقاد مرة أخرى فى ترنت فى مايو ١٥٥١ لقاء وعد من شارل بالامتناع عن تأييد أى إجراء من شأنه اختزال سلطة البابا ، ووافق البابا على إعطاء اللوثريين فرصة الإدلاء بأقوالهم . ولكن هنرى الثانى ملك فرنسا رفض الاعتراف بالمجمع لانه كره هذا التقارب بين البابا والإمبراطور . فلما اجتمع كان عدد الحاضرين ضئيلا فاضطر إلى تأجيل اجتماعاته . ثم عاد إلى الاجتماع فى أول سبتمبر بحضور ثمانية من رؤساء الأساقفة ، وستة وثلاثين أسقفاً ، وثلاثة رؤساء أديار . وخمسة قادة ، وثمانية وأربعين لاهوتياً . ويواكيم الثانى ناخب براندنبورج ، وسفراء يمثلون شارل وفرديناند .

وأكدت الدورة الثالثة عشرة للمجمع (أكتوبر ١٥٥١) من جديد عقيدة التحول الكاثوليكية ، فالكاهن بتقديسه الخبز والخمر فى سر القربان يحولهما فعلا إلى جسد المسيح ودمه . بعد هذا لم يعد هناك جدوى من الاستماع إلى البروتستنت ، ولكن شارل أصر على هذا . واختار دوق فورتمبرج ، وموريس ناخب سكسونيا ، وبعض مدن جنوبى ألمانيا — اختار هؤلاء أعضاء وفد بروتستنتى ، ووضع ملانكتون بياناً بالعقيدة اللوثرية لرفعه .

إلى المجمع : وضمن شارل للمندوبين سلامة المرور ، ولكنهم إذ تذكروا كونستانس وهس طلبوا أيضاً ضماناً بسلامة المرور من المجمع ذاته . وبعد نقاش طويل منحهم المجمع الضمان . ولكن راهباً دومنيكياً ذكر فى عظة تدور حول مثل الزوان ، ألقاها فى ذات الكاتدرائية التى انعقدت فيها دورات المجمع ، أن زوان المهرطقين قد يمهلون إلى أجل ، ولكن لا بد فى النهاية من حرقهم(٤٣) .

وفى ١٤ يناير ١٥٥٢ ألقى المندوبون البروتستنت كلمتهم فى المجمع : فاقترحوا تأكيد المراسيم التى أصدرها مجمعا كونستانس وبازل بشأن تخويل المجامع سلطاناً أعلى على البابوات ، وأن يحل أعضاء المجمع الحاضر من عهود الولاء للبابا يوليوس الثالث ، وأن جميع القرارات التى وصل إليها المجمع حتى ذلك التاريخ يجب إلغاؤها ، وأنه يجب أن يعيد مجمع موسع يمثل فيه البروتستنت تمثيلا كافياً مناقشة الموضوعات من جديد(٤٤) . ومنع يوليوس الثالث بحث هذه المقترحات . وقرر المجمع تأجيل البت فيها إلى ١٩ مارس ، وهو التاريخ الذى يتوقع فيه وصول مزيد من المندوبين البروتستنت .

وفى أثناء هذه العطلة طرأت على اللاهوت تطورات حربية على نحو غير متوقع . ففى يناير ١٥٥٢ وقع ملك فرنسا حلفاً مع البروتستنت الألمان ، وفى مارس زحف موريس أمير سكسونيا على إنزبروك ، وفر شارل ، وما كان لأية قوة أن تمنع موريس إن شاء من الاستيلاء على ترنت والإطاحة بالمجمع . واختفى الأساقفة واحداً بعد الآخر ، وفى ٢٨ أبريل عطل المجمع رسمياً . ونزل فرديناند بمقتضى معاهدة باساو (٢ أغسطس) عن الحرية الدينية للبروتستنت المنتصرين حربياً ، فلم يعد المجمع يهمم فى شىء بعد هذا .

ورأى بولس الرابع أن من الحكمة أن يدع المجمع يسبت خلال

رياسته . فلما جاء البابا بيوس الرابع ، وكان شيخاً دمث الخلق ، راودته فكرة مؤداها أن منح سر القربان بالخبز والخمر قد يهدىء البروتستنت كما هدأ البوهيميين من قبل . فطلب إلى المجمع أن ينعقد من جديد فى ترنت فى ٦ أبريل ١٥٦١ ، ودعا إليه جميع الأمراء المسيحيين سواء الكاثوليك أو البروتستنت . وقد جلب المندوبون الفرنسيون إلى هذه الدورة الجديدة قائمة رهيبة بالاصلاحات التى ينشدونها : القداس باللغة القومية ، والتناول بالخبز والخمر ، وزواج القسس ، وإخضاع البابوية للمجامع العامة ، وإنهاء نظام الاعفاءات البابوية[٤٥] ، ويبدو أن مزاج الحكومة الفرنسية كان فى تلك اللحظة شبه هيجونوتى . وأيد فرديناند الأول هذه المقترحات ، وكان الآن إمبراطوراً ، وأضاف أن « البابا يجب أن يتواضع ، ويخضع لإصلاح شخصه ودولته وإدارته » ، أما أساطير القديسين فينبغى أن تنقى من السخافات . وأما الأديار فينبغى إصلاحها حتى « لا تعود ثروتها الطائلة تنفق بمثل هذا السفه »[٤٦] . وأنذر الموقف بالخطر على بيوس ، وترقب مندوبوه افتتاح الدورة فى شىء من الذعر .

وبعد تأجيلات كان دافعها الروية أو الاستراتيجية التأم شمل الدورة السابعة عشرة للمجمع فى ٢٨ يناير ١٥٦٢ ، بحضور خمسة كرادلة ، وثلاثة بطارقة ، وأحد عشر رئيس أساقفة ، وتسعين أسقفاً ، وأربعة قادة ، وأربعة رؤساء أديار ، ومختلف الممثلين العلمانيين للأمراء الكاثوليك . واستجابة لطلب من فرديناند عرض ضمان بسلامة المرور لأى مندوب بروتستانتى قد يرغب فى الحضور ، ولكن أحداً لم يحضر . وتزعم رئيس أساقفة غرناطة وشارل كردينال اللورين حركة ترمى إلى الحد من امتيازات البابا ، فأكدا أن الأساقفة لا يستمدون سلطانهم عن طريقه بل بـ « الحق الإلهى » المباشر ، وردد أسقف سقوبية هرطقة من هرطقات لوثر ،

إذ أنكر أنه كان للبابا سيادة على غيره من الأساقفة فى الكنيسة الأولى(٤٧).
على أن هذا التمرد الأسقفى أطفأته البراعة البرلمانية التى أبداها مندوبو البابا ، وولاء الأساقفة الإيطاليين والبولنديين للبابا ، وبعض المجاملات البابوية التى وجهت فى الوقت المناسب إلى كردينال اللورين . وانتهى الأمر بتوسيع سلطة البابا لا بالحد منها ، واشترط على كل أسقف أن يقسم يمين الطاعة الكاملة للبابا . وأمكن تهدئة فرديناند بوعده بأن البابا سيسمح فى ختام المجمع بأن يعطى القربان بالخبز والخمر كليهما .

أما وقد فرغ المجمع من أهم نزاع واجهه ، فقد انتهى بسرعة من أعماله الباقية . فحرم زواج الإكليروس ، وقرر توقيع عقوبات صارمة على تسرى القساوسة . وشرع الكثير من الاصلاحات الصغيرة للنهوض بأخلاق رجال الإكليروس ونظامهم . وقرر إنشاء كليات لاهوتية يدرب فيها الراغبون فى القسوسية على عادات التقشف والتقوى . أما سلطات الإدارة البابوية فقد اختزلت . ووضعت قواعد لإصلاح الموسيقى والفن الكنسيين . وتقرر تغطية صور العرايا بما يكفى لمنع إثارتها للخيال الحسى . ووضح الفارق بين عبادة الصور وعبادة الأشخاص الذين تمثلهم الصور . وتأيد استعمال الصور الدينية بالمعنى الثانى . أما المطهر والغفرانات والتوسل إلى القديسين فقد دوفع عنها وأعيد تعريفها . وهنا اعترف المجمع فى صراحة بالمفاسد التى انبعثت عن شررها نار التمرد اللوثرى . وقد نص أحد القرارات على ما يأتى : —

« إن المجمع يقرر بصدد منح الغفرانات . . . أنه يجب القضاء كلية على كل كسب إجرامى متصل بها ، باعتباره مصدراً لفساد محزن بين الشعب المسيحى ، أما عن غير ذلك من ضروب الخلل والفوضى الناجمة عن الخرافة أو الجهل أو الاستهانة بالمقدسات أو أى سبب كائناً ما كان — فبما أن هذه كلها لا يمكن القضاء عليها بالتحريمات الخاصة نظراً إلى

انتشار الفساد على نطاق واسع ، فان المجمع يلقى على عاتق كل أسقف واجب التعرف على ما يوجد فى أسقفيته من مفاسد ، وعرضها على المجمع الإقليمى التالى ، وإبلاغها إلى الحبر الأعظم فى روما بعد موافقة الأساقفة الآخرين(٤٨) .

وأجمع البابا والإمبراطور على أن المجمع قد بلغ الآن نهاية نفعه . وفى ٤ ديسمبر ١٥٦٣ فض نهائياً وسط ابتهاج المندوبين المرهقين . بعد أن حدد طريق الكنيسة لقرون قادمة .

لقد نجحت معارضة الإصلاح البروتستنتى فى أهدافها الأساسية : صحيح أن الرجال — سواء فى الأقطار الكاثوليكية أو البروتستنتية — ظلوا يكذبون ويسرقون ، يغوون العذارى ويبيعون الوظائف . يقتلون ويشنون الحرب(٤٩) . ولكن أخلاق الإكليروس تحسنت ، وروضت الحرية الجامحة التى اندفعت فيها إيطالية النهضة فتكيفت تكيفاً مهذباً وفق مزاعم البشر . فالبغاء الذى كان صناعة كبرى فى روما والبندقية أيام النهضة أخفى الآن رأسه ، وأصبحت العفة طابع العصر . وتقرر اعتبار تأليف الكتب القذرة أو نشرها جريمة كبيرة فى إيطاليا . وهكذا شنق نيكولو فرانكو ، سكرتير أريتينو وعدوه ، بأمر من البابا بيوس الخامس عقاباً على تأليفه كتاب Priapeia (٥٠) . أما أثر القيود الجديدة على الفن والأدب فلم يكن مؤذياً أذى مطلقاً لا خلاف عليه ، مثال ذلك أن فن الباروك انبعث على استحياء من مكانه المغمور ؛ كذلك إذا نظرنا من زاوية أدبية خالصة فاننا لا نجد تاسو ، وجواريني ، وجولدوني ، يهبطون هبوطاً عنيفاً عن مرتبة بوياردو ، وأريوستو ، ومكافيللى المسرحى : وقد أقبل أعظم عصور أسبانيا الأدبية والفنية فى ملء « الرجعية الكاثوليكية ». ولكن الفرحة التى كانت طابع إيطالية النهضة انطفأت ، وفقدت النساء الإيطاليات بعض ذلك السحر والابتهاج الذى أتاهن من حريتهن السابقة لحركة الإصلاح البروتستنتى . وساد إيطاليا عصر أقرب ما يكون إلى

البيورتانية نتيجة لقيام أخلاقية قائمة واعية . وانتعشت الديرية . وكانت خسارة للنوع الإنسانى ، من وجهة نظر العقل الحر ، أن تقضى الرقابة الكنسية والسياسية على حرية الفكر النسبية التى سادت أيام النهضة ، وكانت مأساة أن تعاد محكمة التفتيش فى إيطاليا وغيرها من البلاد فى الوقت الذى أخذ العلم ينبثق فيه محطماً قشرته الوسيطة . وضحت الكنيسة عن عمد بالطبقات المفكرة فى سبيل الأكثرية المتدينة التى صفقت لقمع أفكار قد تذيب إيمانها المعزى .

كانت الإصلاحات الكنسية حقيقية ودائمة . وإذ كانت الملكية البابوية قد رفع مقامها فوق الارستقراطية الأسقفية للمجامع ، فان هذا كان يساير روح العصر ، حين كانت الارستقراطيات فى كل بلد ، عدا ألمانيا ، تفقد سلطانها ليتقلده الملوك . وأصبح البابوات الآن أرقى من الأساقفة خلقياً ، وأمكن تنفيذ النظام الذى تطلبه الاصلاح الكنسى على يد سلطة ممركزة خيراً من سلطة مقسمة ، وأنهى البابوات محاباتهم لأقربائهم . وشفوا الإدارة البابوية من تسويفاتها الباهظة الثمن ورشوتها المفضوحة . وأصبحت إدارة الكنيسة بشهادة من فحصوا هذا الأمر من غير الكاثوليك نموذجاً للكفاية والنزاهة(٥١) . وأدخل استعمال مقصورة الاعتراف المظلمة (١٥٤٧) وجعل إجبارياً (١٦١٤) ، ولم يعد القسيس عرضة لأن يفتنه جمال بعض المعترفات . أما باعة صكوك الغفران الجائلون فقد اختفوا ، وأما الصكوك فقد خصصت فى معظم الحالات للعبادات الورعة ولأعمال البر لا للتبرعات المالية ، وبدلا من أن يتقهقر رجال الإكليروس الكاثوليك أمام زحف البروتستنت أو الفكر الحر . انطلقوا ليعيدوا اقتناص فكر الشباب وولاء السلطان . وأصبحت روح اليسوعيين ، تلك الروح الواثقة ، الإيجابية ، النشيطة ، المدربة على النظام ، هى روح الكنيسة المجاهدة .

لقد كان شفاء الكنيسة فى جملته شفاء مذهلا ، وثمرة من أروع الثمرات التى جادت بها حركة الإصلاح البروتستنتى .

كلمة ختامية

النهضة ، والإصلاح البروتستنتى ، والتنوير

إن النهضة والإصلاح البروتستنتى هما ينبوعا التاريخ الحديث ، والمصدران المتنافسان للتجديد الفكرى والخلقى الذى طرأ على الحياة الحديثة . وقد ينقسم الناس حسب ميولهم وانتسابهم هنا ، حسب دينهم الواعى الذى يدينون به للنهضة التى أطلقت العقل من عقاله وأضفت الجمال على الحياة ، أو حسب عرفانهم بصنيع الإصلاح البروتستنتى الذى شحذ الإيمان الدينى والحس الخلقى . والخلاف بين إرزمس ولوثر متصل ، وسوف يتصل ، لأن الحقيقة التى قد يصل إليها الناس فى هذه الأمور الكبيرة هى ثمرة الجمع بين الأضداد ، وستشعر هذه الحقيقة دائماً بأبوتها المزدوجة .

ويمكن القول إن الخلاف من بعض النواحى سلالى وجغرافى ، خلاف بين اللاتين والتيوتون ، بين الجنوب الحسى الطلق والشمال الجلد المعتم ، بين شعوب هزمت على يد روما وتلقت منها التراث الكلاسيكى ، وشعوب قاومت روما — وبعضها هزم روما — وأحبت جذورها وأرضها أكثر كثيراً من اليونان جالبى المواهب أو الرومان حاملى القوانين . لقد قسمت إيطاليا وألمانيا فيما بينهما تشكيل النفس الحديثة ، إيطاليا بالرجوع إلى الأدب والفلسفة والفنون الكلاسيكية ، وألمانيا بالرجوع إلى الإيمان والشعائر المسيحية الأولى . وكانت إيطاليا على وشك النجاح فى محاولتها الثانية لغزو ألمانيا — بالعشور والمذهب الإنسانى هذه المرة ؛ ولكن ألمانيا قاومت ثانية ، وطردت الكنيسة وأسكتت الإنسانيين . وأنكرت حركة الإصلاح البروتستنتى النهضة واهتمامها بالشئون والمباهج الدنيوية ، وعادت إلى تلك الناحية (وهى ناحية واحدة فقط !) من نواحى العصور الوسطى التى عدت إنجازات البشر ومباهجهم تافهة باطلة ، ووصفت الحياة بأنها واد

للدموع ، ودعت الخطاة إلى الأيمان والتوبة والصلاة . فأما إيطاليو النهضة الذين قرأوا مكيافللى وأريتينو ، فقد رأوا فى هذا انتكاساً إلى العصور الوسطى ، وعوداً إلى عصر الإيمان فى مرحلة المراهقة المناضلة التى يمر بها عصر العقل . وقد ابتسم الإيطالى الذى استمع إلى يومبوناتزى ، وعاش تحت حكم بابوات النهضة الهين اللين ، حين وجد لوثر وكالفن وهنرى الثامن يحتفظون بكل العقائد الخارقة التى اتسم بها الإيمان الوسيط — كتاب مقدس من إملاء الله ، وإله مثلث الأقانيم ، وإيمان بالقضاء والقدر ، وخليقة خلقت بأمر إلهى ، وخطيئة أصلية ، وتجسد ، وولادة من عذراء ، وتكفير ، ودينونة أخيرة ، وجنة ونار — ثم يرفضون بالضبط عناصر المسيحية الوسيطة — كعبادة العذراء ، والإيمان بإله ملؤه المحبة والرحمة ، و توسل إلى القديسين الشفعاء ، والطقوس التى تزدان بكل الفنون — تلك عناصر التى أضفت على ذلك الإيمان رقة وعزاء وجمالا يبرر التغاضى عن الأساطير تغاضياً سمح بالاستمتاع بالفنون .

كان الكاثوليكى الصادق الإيمان حجته ضد حركة الإصلاح البروتستنتى . فهو أيضاً يكره العشور ، ولكنه لا يستطيع أن يتصور القضاء على الكنيسة . لقد كان عليماً بأن الرهبان أخذ يفلت زمامهم ، ولكنه شعر بأنه ينبغى أن يفسح فى الدنيا مكان ومؤسسات لرجال انقطعوا للتأمل والدرس والصلاة ، وكان يقبل كل كلمة من الكتاب المقدس بشرطين : أن ناموس المسيح أبطل ناموس موسى ، وأن للكنيسة سلطاناً مساوياً لسلطان الكتاب لأن مؤسسها هو ابن الله ، ويجب أن يكون لها الحق النهائى فى تفسير الكتاب والملاءمة بينه وبين حاجات العيش المتغيرة . وماذا تكون النتيجة لو أن فقرات من الكتاب ملتبسة متناقضة فى ظاهرها تركت ليفسرها كل فرد تفسيراً حراً ويحكم عليها كما يشاء ؟ أفلا تمزق مئات العقول الكتاب إرباً ، وألا تتحطم المسيحية وتتبدد شيعاً مقتتلة لا حصر لها ؟ .

ويواصل الكاثوليكى العصرى الحجة مروراً بكل ناحية من نواحى الحياة العصرية فيقول « لقد كان إصراركم على الإيما دون الأعمال مدمراً ، فأفضى إلى دين توارت برودة القلب فيه خلف ورع العبارة ، وكاد البر أن يموت طوال مائة عام فى مراكز انتصاركم . ولقد قضيتم على سر الاعتراف وخلفتم مئات التوترات فى نفوس البشر الذين تتنازعهم الغريزة والحضارة ، وهأنتم أولاء تعيدون متأخرين ذلك النظام الشافى تحت أشكال مريبة . ولقد دمرتم جل المدارس التى أنشأناها ، وأضعفتم الجامعات التى أسستها الكنيسة وطورتها حتى أشرفتم بها على الموت . إن قادتكم يسلمون بأن تمزيقكم الإيمان أدى إلى تدهور خلقى خطر فى ألمانيا وانجلترا . فلقد أطلقتم على الناس فوضى من الفردية فى الأخلاق والفلسفة والصناعة والحكم . ولقد انتزعتم من الدين كل بهجته وجماله ، وملأتموه بدراسة الشياطين وبالرعب ؛ وحكمتم على الجماهير الكبيرة من الناس باللعنة الأبدية لأنهم « مرفوضون » ؛ وعزيتم قلة وقحة بفخر « الاختيار » والخلاص . لقد خنقتم نمو الفن ؛ وحيثما انتصرتم ذبلت الدراسات القديمة . لقد صادرتم أملاك الكنيسة لتعطوها للدولة والأغنياء ، ولكنكم تركتم الفقراء أفقر مما كانوا ، وأضفتم الاحتقار إلى فقرهم وتعاستهم . لقد تغاضيتم عن الربا والرأسمالية . ولكنكم حرمتم العمال أيام الراحة المقدسة التى منحتهم إياها كنيسة رحيمة . لقد رفضتم البابوية لا لشىء إلا لتمجدوا الدولة ، وأعطيتم الأمراء الانانيين حق تقرير ديانة رعاياهم ؛ واستخدام الدين سنداً لحروبهم . لقد فرقتم بين الأمة والأمة ، وقسمتم كثيراً من الأمم والمدن على ذواتها ؛ لقد حطمتم الضوابط الأدبية الدولية على القوى القومية ، وخلفتم فوضى من القوميات المقتتلة . لقد أنكرتم سلطان كنيسة أسسها ابن الله باعترافكم ، ولكنكم أقررتم الملكية المطلقة ، ومجدتم حق الملوك الإلهى . ودمرتم وأنتم لا تدرون

قوة « الكلمة » ، وهى البديل الوحيد لقوة المال أو السيف . وادعيتم حق الحكم الشخصى ، ولكنكم أنكرتموه على غيركم حالما أمكنكم هذا ، وكان رفضكم التسامح مع المنشقين أقل وضوحاً للأفهام من رفضنا ، لأننا لم ندافع قط عن التسامح ، فليس فى وسع إنسان أن يتسامح إلا فى الأشياء التى لا يبالى بها : ثم انظروا ما أفضى إليه حكمكم الشخصى هذا . فكل رجل يصبح بابا ، ويحكم على تعاليم الدين قبل أن يبلغ من العمر ما يتيح له فهم وظائف الدين فى المجتمع والأخلاق ، وحاجة الناس إلى إيمان دينى . وإن ضرباً من جنون التمزيق والتفريق لا تكبحه أى سلطة مجمّعة موحّدة يلقى باتباعكم فى منازعات بلغ من سخفها وعنفها أن الناس راحوا يتشككون فى الدين كله ، وكادت المسيحية ذاتها تصبح فى خطر الانحلال ، وكاد الناس يَتركون فى عرى روحى أمام الموت ، لولا وقوف الكنيسة صامدة وسط كل تقلبات الرأى والجدل ، وكل مستحدثات العلم والفلسفة ، ولولا أنها تحفظ قطيعها الذى التأم شمله ، منتظرة ذلك الوقت الذى يخضع فيه المتفهمون منكم ، والمسيحيون الحقيقيون ، كبرياء الفردية والعقل لحاجات البشر الدينية ، ويعودون إلى الحظيرة الوحيدة القادرة على صون الدين برغم الايديولوحيات المجدفة التى راجت فى هذا العصر الشقى » .

ترى أيستطيع البروتستنت الرد على هذا الاتهام ؟ « يجب ألا ننسى السبب فى انشقاقنا : فلقد فسدت كنيستكم الكاثوليكية سواء فى ممارساتها أو فى أشخاصها ، وكف قساوستكم عن أداء وظائفهم ، وكان أساقفتكم متعلقين بنعيم الدنيا ، وبابواتكم معرة العالم المسيحى ؛ ألا يعترف مؤرخوكم بهذا ؟ لقد طالبكم رجال أمناء بأن تصلحوا ما فسد ، محتفظين بولائهم للكنيسة ؛ فوعدتم وتظاهرتم بالإصلاح ، ولكنكم لم تفعلوا ، بل إنكم على العكس من ذلك أحرقتم بالنار رجالا من أمثال هس وجيروم البراغى لأنهم رفعوا عقائرهم مطالبين بالإصلاح . لقد بذلت مئات الجهو د

لإصلاح الكنيسة من الداخل ، ولكنها أخفقت ، إلى أن أكرهتكم حركة إصلاحنا البروتستنتي على العمل ؛ وحتى بعد ثورتنا أصبح البابا الذى حاول تطهير الكنيسة مثار هزء روما وسخريتها .

« إنكم تتباهون بأنكم خلقتم النهضة ، ولكن الكل مجمعون على أن النهضة كانت تنبعث وسط فساد خلقى ، وعنف ، وخيانة ، لم تعرفها أوربا منذ عهد نيرون ؛ أفلم نكن محقين فى الاحتجاج على هذه الوثنية ، التى تختال عجباً حتى فى الفاتيكان ؟ وإذا سلمنا أن الأخلاق انحدرت حيناً بعد أن بدأت حركة إصلاحنا ، فان إعادة بناء حياة خلقية بليت أسسها وخدماتها الدينية استغرق بعض الوقت ، وأخيراً أصبحت أخلاقيات البلاد البروتستنتية أسمى بكثير من أخلاقيات فرنسا وإيطاليا الكاثوليكيتين . قد ندين بيقظتنا الذهنية للنهضة ، ولكنا ندين بشفائنا الخلقى لحركة الإصلاح البروتستنتى ، فقد أضافت دعم الخلق إلى تحرير العقل ، ثم إن نهضتكم اقتصرت على الارستقراطية والمفكرين ، لقد احتقرت الشعب ، وأغضت عن خداع باعة صكوك الغفران لأفراده ، وعن غش مستغلى الخرافات من المتظاهرين بالنسك . أو لم يكن خيراً تحدى هذا الاستغلال المالى الصارخ لآمال البشر ومخاوفهم ؟ لقد رفضنا الصور والتماثيل التى يشتموها فى كنائسكم ، لأنكم كنتم تسمحون للناس أن يعبدوا الصور ذاتها ، كما كان يحدث حين فرضتم عليهم الركوع أمام الدمى المقدسة المحمولة فى مواكب تخترق الشوارع . أما نحن فقد جرؤنا على إرساء ديانتنا فوق إيمان قوى نشيط ، بدلا من محاولة تخدير عقول الناس بالطقوس ؛

« وقد اعترفنا بأن السلطة الزمنية من عند الله — كما اعترف لاهوتيوكم من قبلنا — لأن النظام الاجتماعى يتطلب حكومة محترمة . ولم نرفض سلطة البابوات الدولية إلا بعد أن استعملوها استعمالا فاضحاً ، لا للحكم بالعدل بين الأمم بل لخدمة مآربهم المادية . وعجزُ بابواتكم الأنانيين عن توحيد

أوربا فى حملة صليبية ضد العثمانيين يدل على أن خيانة البابوية حطمت وحدة العالم المسيحى قبل حركة الإصلاح البروتستنتى بزمن طويل . ومع أننا أيدنا حق الملوك الإلهى ، فاننا أيضاً شجعنا نمو الديمقراطية فى أنجلترا واسكتلندة وسويسرة وأمريكا ، فى حين كان قساوستكم فى فرنسا وإيطاليا وأسبانيا يخضعون للملوك ؛ وقد حطم تمردنا على سلطة كنيستكم تعويذة الحكم المطلق ، وهيأ أوربا لمساءلة كل ألوان الاستبداد دينية كانت أو علمانية . إنكم تعتقدون أننا جعلنا الفقراء أفقر مما كانوا . ولكن هذه أيضاً كانت مرحلة عابرة ، فالرأسمالية ذاتها التى استغلت فقر الفقراء حيناً تعلمت أن تغنى الرجل المتوسط كما لم يغن من قبل ؛ وما من ريب فى أن مستوى المعيشة فى إنجلترا وألمانيا وأمريكا البروتستنتية أعلى منه فى إيطاليا وأسبانيا وفرنسا الكاثوليكية .

« وإذا كنتم اليوم أقوى مما كنتم بالأمس ، فانما الفضل فى هذه القوة لنا . فماذا كان يحدث لو لم تكرهكم حركة الإصلاح البروتستنتى على إصلاح الإدارة البابوية ، وإنقاذ إكليروسكم من التسرى ، وتنصيب رجال مؤمنين على كرسى البابوية بدلا من الوثنيين ؟ ولمن تدينون بالفضل فيما يتمتع به إكليروسكم اليوم من سمعة النزاهة ؟ ألمجمع ترنت ؟ ولكن لمن تدينون بالفضل فى مجتمع ترنت إن لم يكن لحركة الإصلاح البروتستنتى ؟ فلولا ذلك الضابط لواصلت كنيستكم انحدارها من المسيحية إلى الوثنية حتى ينتهى الأمر بتتويج بابواتكم على عالم لاأدرى أبيقورى . وحتى مع هذا التجديد الذى فرضناه على كنيستكم ، فان الشعوب التى تقبل عقيدتكم أشد إهمالا للدين ، وتشككاً فى المسيحية ، من الشعوب التى اعتنقت الإصلاح البروتستنتى ؛ ويكفى أن تقارنوا بين فرنسا وانجلترا :

« ولقد تعلمنا أن نوفق بين تديننا وبين حرية العقل ، وأقطارنا البروتستنتية هى التى شهدت أعظم ازدهار للعلم والفلسفة . ونحن نأمل

أن نلائم بين مسيحيتنا وبين تقدم المعرفة — ولكن أنى يتيسر هذا لكنيسة ترفض كل علم القرون الأربعة الماضية ؟ » .

وهنا يتدخل الإنسانى فى المناقشة ، فيهدم البيتين جميعاً على رأسه . هذا فخر البروتستنتية وضعفها ، فهى تستهوى العقل ، الذى لا يفتأ يتغير ، أما قوة الكاثوليكية فى رفضها أن تكيف نفسها وفق نظريات العلم ، التى ثبت من الخبرة التاريخية أنها قلما تعيش بعد القرن الذى ولدت فيه . إن الكاثوليكية تستهدف إشباع مطالب الناس الروحية ، الناس الذين قلما سمعوا بكوبرنيق وداروين ، ولم يسمعوا قط بسبينوزا وكانط ؛ وهؤلاء الناس كثيرون خصيبون ، ولكن أنى لدين يتحدث إلى العقل ، ويتمركز حول العظة ، أن يكيف نفسه وفق كون آخذ فى الاتساع ، كون أصبح فيه الكوكب الذى ادعى أنه تلقى ابن الله نقطة عابرة فى الفضاء ، وليس النوع الذى مات من أجله سوى لحظة فى مشهد الحياة الدائم التغيير ؟ وما الذى يحدث للبروتستنتية إذا أخضع الكتاب الذى اتخذته أساسها الوحيد والمعصوم للنقد « الأعلى » الذى يحيله من كلمة الله إلى أدب العبرانيين وإلى تحول المسيح فى لاهوت بولس الصوفى ؟ .

« ليست المشكلة الحقيقية التى تواجه العقل الحديث ذلك الخلاف بين الكاثوليكية والبروتستنتية ، ولا بين الإصلاح البروتستنتى والنهضة ؛ إنها بين المسيحية والتنوير — هذه الحقبة التى ليس من اليسير تحديد تاريخها ، والتى بدأت بفرانسس بيكن ، وعقدت آمالها على العقل والعلم والفلسفة ؛ وكما كان الفن ركيزة النهضة ، والدين روح الإصلاح البروتستنتى ، فكذلك أصبح العلم والفلسفة إلهى التنوير . ومن وجهة النظر هذه كانت النهضة تسير فى الخط المباشر للتطور العقلى الأوربى ، وأفضت إلى الاستنارة ، أما حركة الإصلاح البروتستنتى فكانت انحرافاً عن ذلك الخط ، ورفضاً للعقل ، وتأكيداً جديداً للإيمان الوسيط .

« ومع ذلك فان حركة الإصلاح البروتستنتى برغم تعصبها فى أول عهدها أسدت صنيعين لحركة التنوير ، فقد حطمت سلطان العقيدة ، وبعثت عشرات الملل والنحل التى لو وجدت قبلها لماتت حرقاً ، وسمحت بأن يقوم فيما بينها جدل كان من القوة بحيث اعترف فى النهاية بأن العقل هو المحكمة التى يتعين على جميع المذاهب أن تترافع أمامها عن قضاياها ما لم تكن مسلحة بقوة مادية لا تقاوم . وفى تلك المرافعة ، فى ذلك الهجوم والدفاع ، تضعضعت كل المذاهب والعقائد ، ولم ينقض قرن على تمجيد لوثر للإيمان حتى أعلن فرانسيس بيكن أن المعرفة قوة . وفى ذلك القرن السابع عشر بعينه قدم المفكرون من أمثال ديكارت وهوبز وسبينوزا ولوك الفلسفة بديلا للدين أو أساساً له . وفى القرن الثامن عشر جهر هلفتيوس وهولباك ولامترى بالإلحاد ، ونعت فولتير بالتعصب لأنه آمن بالله . هذا هذا هو التحدى الذى واجهته المسيحية ، فى أزمة أعمق كثيراً من الجدل بين الترجمة الكاثوليكية والبروتستنتية لعقيدة العصر الوسيط . والجهد الذى بذلته المسيحية للبقاء برغم كوبرنيق وداروين هو المسرحية الأساسية للقرون الثلاثة الأخيرة . فليت شعرى أى قيمة لصراعات الدول والطبقات بالقياس إلى تلك المعركة الفاصلة الكبرى ، هرمجدون النفس الإنسانية ؟ » .

الآن إذ نلقى إلى الوراء بنظرة على هذه القصة المتعرجة التى روتها هذه الصفحات الألف ، ندرك أننا نستطيع التعاطف مع جميع الأطراف المقاتلة . نستطيع أن نفهم غضب لوثر على فساد روما وتسلطها ، وكره الأمراء الألمان أن يروا العطايا الألمانية تسمن إيطاليا ، وعزم كالفن ونوكس على بناء جماعات خلقية مثالية ، ورغبة هنرى الثامن فى أن يكون لملكه وريث ، وأن يكون له على مملكته سلطان . ولكنا نستطيع أن نفهم أيضاً آمال إرزمس فى إصلاح لا يسمم العالم المسيحى بالحقد ، ونستطيع أن نشعر بفزع الأتقياء من أساقفة روما مثل كونتاريني مما يحتمل من تمزيق

كنيسة ظلت القرون حاضنة وحارسة للحضارة الغربية ، وما زالت أمنع حصن ضد فساد الخلق والفوضى واليأس .

إن شيئاً من هذه الجهود لم يضع سدى . فالفرد يستسلم للموت ، ولكنه لا يموت إذا خلف للبشرية شيئاً . لقد عاونت البروتستنتية فى الوقت المناسب على تجديد حياة أوربا الخلقية ، وطهرت الكنيسة نفسها فغدت منظمة أضعف سياسياً وأقوى خلقياً مما كانت . وثمة درس واحد ينبعث ويعلو فوق دخان المعركة . وهو أن الدين يكون فى أفضل حالاته إذا اضطر للعيش فى ظروف المنافسة ؛ وهو ينزع إلى التعصب متى وحيثما افتقر إلى التحدى وغدا السيد الأعلى . وأعظم ما جادت به حركة الإصلاح البروتستنتى هو تزويدها أوربا وأمريكا بتلك المنافسة الدينية التى تشحذ همة كل مذهب ، وتنبهه إلى التسامح ، وتهب عقولنا المشة لذة الحرية وامتحانها .

تشجع أيها القارئ ! فلقد قاربنا النهاية .

المراجع

CHAPTER XXXV

1. Putnam. *Books*, II,40 - I,
2. Luther, *Works*, IV, 128.
3. Janssen, III, 355.
4. Ibid., 356.
5. 363.
6. Luther, IV, 156.
7. Richard, *German Civilization*, 289; Janssen, III, 358.
8. Paulsen, *German Education*, 56-7.
9. Lurher, IV, 128.
10. Janssen, XIII,260, 264.
11. *Camb. Mod. Hy*, II, 468 ; Gasquet, *Eve*, 42.
12. Traill, III, 93.
13. Owen, J., *Skeptics of the French Renaissance*, 438.
14. Graves, F., Peter *Ramus* 15.
15. *Camb. Hy of Poland*, I, 274
16. Elyot, *The Governor*, I, 21.
17. Ibid., *i*, 11.
18. Watson, F., *Luis Vives*, 33.
19. *In* Haydn, *Counter- Renaissance*, 242 .
20. Ibid, 199.
21. Sichel, *Women* 47.
22. Marot, Rondeau 13, in Maulde, 165 .
23. France, A., *Rabelais, 6*,
24. Smith, *Erasmus* , 414; France , *Rabelais*, 38.
25. Faguet, 211.
26. Rabelais , *Gargantua*, ed , Cluny, Introd., xxi.
27. Michelet, III, 300.
28. Rabelais, Introd., xxiii.
29. Owen, *Freneh Renaissance*, 619.
30. Rabelais, *Works*, bk*ii*, ch. 8,
31. Tilley, *Studies in the French Renaissance*, 85 f.
32. Nock, *Rabelais*, 105,
33. Brunetière, *Manual of French Literature*, 46n.
34. France, *Rabelais*, 216.
35. Smith, *Reformation*, 195n.
36. France, 124.
37. Sichel, *Women*, 239.
38. Sichel, *Catherine' de Medici*, 245.
39. La Tour, *Origines*, IV, 413.
40. Roeder, *Catherinede Medici*, 510.
41. Holzknecht, *Backrounds of Shakespeare*, 270
42. *Camb. Hy of English Literature*, III. 189.
43. Richard, *German Civilization*, 151.
44. Janssen, XIII, 467.
45. In Bainton, *Reformation*, 129
46. En. Brit., IX, 675.
47. Putnam, *Books*, II, 243.
48. Janssen, XI, 317 f.
49. In Friedell, *Cultural Hy of the Modern Age* I, 232.
50. Janssen, XII, 324 f.
51. En Brit., XXXIII, 1192.
52. In Trend, *Civilization of Spain*, 101.
53. Prescott, *Ferdinand*, II, 568n,
54. Ibid., 569n; *Camb. Mod. Hy*, V, 495.

55. Hefele. *Ximenez*, 101; Hume, *The Samish People*, 348.
56. Allen. *Political Thought*, 119.
57. Diaz del Castillo. *True Hy of Comquest of Mexico*, xi.
58. Mendoza, *Lazarillo de Tormes*, Introd., 3.
60. Mendoza, 71.

CHAPTER XXXVI

1. In Coulton, *Art and the Reformation*, 408.
2. Janssen, XI, 56.
3. Calvin, *Institutes*, I, xi 12.
4. Michelet, III. 295.
5. Dimier, *French Painting in the Sixteenth Century*, 51.
6. Tavannes in Sichel, *Catherine*, 294.
7. Vasari, II. 355.
8. Ibid.
9. Blomfield, *Hy of French Architecture*. I, 81.
10. Lacroix, *Arts of the Middle Ages*, 151.
11. Ward, *Architecture of the Renaissance in France*, II, 125.
12. Sichel, *Catherine*, 394.
13. *Réalités* magazine, March, 1954, p. 27.
14. Conway, *The Van Eycks*, 494.
15. Glück, *Pieter Brueghel le Vieux*, 7.
16. Conway, 492.
17. Glück, *Brueghel: Details from His Pictures*, 10 - 11.
18. Craven, *Treasury of Art Masterpieces*, 112.
19. Smith, Lurher, 176.
20. Bond Fr., *Westminster Abbey*, 131.
21. Bacon, Fr.. *Henry, VII*, i *Works*, VI, 245.
22. Blomfield, *Renaissance Architecture in England 8*; Lees Milne, *Tudor Renaissance*, 31
23. Ibid.
24. 45.
25. Blomfield, 11.
26. Ganz., P., *The Paintings o Hans Holbein*, 218.
27. So Stange, *German Painting* ..., but Ganz 223, assigns i to 1528-30.
28. En. Brit., VIII, 679a.
29. Stange, 22.
30. Janssen, XI, 48.
31. Ibid.
32. Ganz, 284.
33. Woltmann, *Holbein and His Time*, 454.
34. Calvert, *Cordova*. 97.
35. Dieulafoy, *Art in Spain and Portugal*, 230.
36. Calvert, *Sculpture in Spain*' 125; bur Stirling - Maxwell, *Annals of the Artists of Spain*, I, 126, questions the story.
37. Dieulafoy, 336.

CHAPTER XXXVII

1. Schaff, *Swiss Reformation*, 182.
2. Janssen, XII, 292.
3. Traill, III, 269.
4. Janssen, XII, 307.
5. Thorndike, *Hy of Magic and Experimental Science*, V, 231.
6. Coulton, *Medieval Village*, 268.
7. Janssen, XII, 372.

8. Bainton. *Hunted Heretic* 112.
9. In Kesten, *Copernicus*, 96.
10. Lacroix, *Science and Literature in the Middle Ages*, 211, Thorndike, V, 175. 255-9.
11. Bainton, *Huntea Heretic*. 112.
12. Smith, *Luther*, 310.
13. Roeder. *Catherine de' Medici*. 368.
14. Lecky, *Rationalism*, II. 3.
15. Lacroix, *Military, and Religious Life*, 444; Smith, *Reformation*, 656.
16. Friedell. I, 283.
17. Lea' *Studies im Church Hy*, 588.
18. Lea, *Inquisition in Spain*, IV, 220.
19. Lecky, *Hy of European Morals*, II, 54.
20. Traill, III, 326; Froude, *Henry VIII*, III, 191.
21. Lea, IV, 212-25.
22. Janssen, XII, 355.
23. Spence, *Cornelius Agrippa*, 84.
24. Ibid.
25. Thromdicke, V, 136-7.
26. Spence, 79.
27. Owen, *Evenings with the Skeptics*, II. 495-6.
28. Kesten, 196; Thorndike, V, 178 f.:
29. Cath. En., IV. 352.
30. Leonardo, Notebooks, I, 310 298.
31. Gassendi in Kesten, 109.
32. Kesten, 132.
33. Ibid. 153.
34. *Commentariolus*, in Rosen, *Three Copernican Treatises*, 58.
35. Trattner, *Architects of Ideas'* 28.
36. Luther. *Table Talk*, 69. in Fosdick, *Great Voices of the Reformation*, xviii.
37. In Russell, B., *Hy of Westerm Philosophy*, 528.
38. Kesten 233.
39. Ibid. 382.
40. 309.
41 295 6.
42. Rosen, 30.
43. Kesten, 297-8.
44. E. g., Kesten. 299; Trattner' 31.
45. *Prefaces and Prologues*, in Harvard Classics XXXIX, 52, f.
46. Copernicus, *De revolutionibus*, *i*. 5.
47. Ibid, i. 10.
48. Josiah Royce in Fletcher, J. B., *Damte*, 236.
49. In White *Warfare of Science with Theology*, I, 212.
50. In Agricola *De re metallica*, 595.
51. Penrose *Travel aud Discovery*, 306.
52. R. I. Mantiri of Indonesia has argued unconvincingly that Magellan was not killed on Mactan, but chose to remain behind and to found a kingdom in the Celebes.
53. Castiglioni *Hy of Medicine'* 421.
54. Sigerist *The Great Doctors'* 125.
55. In Saunders & O'Malley. *The Illustrations from the Works of Andreas Vesalius* 14.
56. Locy, *Biology and Its Makers*, 28.

57. Saunders, 14; italics mine.
58. Ibid., 15.
59. In Haydn, *Counter-Renaissance*, 198,
60. Vesalius, *De humani corporis fabrica v*, 15, in Thorndike, V, 526.
61. Locy, 35.
62. Letter of Vesalius June 13, 1546, in Thorndike, V, 529.
63. Sarton, III·1, 267.
4. Saunders, 37.
65. Ibid, 39.
66. Walsh *Popes and Science*. 117
67. *Speculum*, April, 1928, P.193,
68. Castiglioni, 466.
69. Janssen XIV, 68.
70. Sigerist, 131,
71. Ibid, 111. The usual interpretation of *Paracelsus* as meaning "Beyond Celsus" is stultified by the very minor rank of Celsus (ist cy A. D) in the history of medicine.
72. Pachter, *Magic into Science: the Story of Paracelsus*, 92.
73. Ibid., 105 6
74. Cf. Passage in Robinson. D. S, *Anthology of Modern, Philosophy*, 13-14.
75. Pachter, 67, 112-116.
76. Thorndike, V, 628.
77. *Opus Poramirum*, in Pachter, 129.
78. Thorndike, V, 665.
79. In Pachter, 210.
80. Ibid., 211.
81. Ibid,
82. 147.
83. 152-3
84. 163.
85. 158,
85. 155.
87. 168.
88. 187.
98. 167.
90. Inscription on engraving of Paracelsus in Vienna State Library.
91. Pachter 108, 229
92. Ibid, 4.
93. Commentary on Galatians, iii, 6, in Janssen XIV, 121.
94. Robertson, *Freethought*, I, 399.
95. Ibid, 389.
96. *Table Talk*, 66.
97. La Tour, IV, 417.
98. Sichel, *Women*, 225.
99. In Hallam, *Introd to the Literature of Europe*, II, 140,
100 Montaigne Letter to M. de Mesmes in Sichel, *Montaigne*, 21.
101 In Rocker, R., *Nationalism and Culture*, 134,
102 In Taylor, *Thought and Expression in the 16 th Cy*, I,381.
103. *Speculum*, Oct, 1933 P. 431.
104. Owen J., *Skepties of the French Renaissamce*, 505.
105 Ibid., 539.
106 Graves, *Peter Ramus*, 108. Italics *mine*.
107 Owen, 529.
108. Ibid., 534 5; Michelet, III, 474; Graves, 106-7.
109. Ibid., 106.
110 Micheler, III, 474.

CHAPTER XXXVIII

1. Pastor, X, 310; XII, 494; Robertson, *Freethought*, I; 408.
2. Noyes, *Ferrara* 203-19.
3. *Camb. Mod. Hy*, II, 386.
4. Trend, *Civilizaion oj Spain*, 123.
5. Schaff, *Swiss Reformation*, 651.
6. Pastor, XI, 3.
7. Ibid., X, 444.
8. Carpacciolus in Ranke, *Hy of the Popes*, I, 131.
9. Janelle, *Catholic Reformation* 64.
10. Pastor, XI, 134.
11. Ibid., 155 f.
12. Ranke, *Popes*, I, 117.
13. In Pastor, XI, 164 f.
14 Ibid., 192.
15. McCabe, *Crises in the History of the Papacy*, 319.
16. Voltaire, Selected Works, ed. McCabe, IV, 216.
17. Fülöp-Miller, *Saints That Moved the World*, 333.
18. Ibid.'350.
19. 354.
20. James, *Varieties of Religious Experience*, 414.
21. Fülöp-Miller, 375.
22. James, 411.
23. Fülöp Miller, 367.
24. Ibid, 396.
25. 405.
26. 419.
27. 274.
28. Ignatius, St., *Autobiograpby*, 28.
29. Ibid., 40.
30. 54,
31. Cath. En., VII, 640
32. Fülöp-Miller' 302.
33. *Camb. Mod. Hy*, II, 657; McCabe, *Candid Hy of the Jesuits*, 8; Ranke, *Popes*, I, 173n.
34. Longridge, *The Spirirual Exercises of St. Ignatius Loyola*, 119.
35. Sedgkick, *Ignatius Loyolo*, 350; McCabe, *Candid Hy* 40 .
36. Sedgwick, 182.
37. Bileoc, 228-234.
38. McCabe, 32.
39. Sedgwick, 221.
40. Ibid., 215.
41. Symonds, *The Catholic Reaction*, I, 215.
42. Report of Father. Gonzalez in Sedgwick, 344.
43. Fülöp-Miller, 319-20
44. Cath En., VII, 643.
45. Sedgwick, 111.
46. Penrose, *Trauel and Discouery*, 69.
47. Campbell, Thos., *Jesuits*, 77-8
48. Ibid., 78.
49. 84.
50. McCabe, 84.
51. Actno, *Lectures*, 115.
52. Robertson, *Charles V*, II, 78.
53. Pastor, XIII, 222.
54. Graves, *Hy of Education during the Middle Ages*, 4 2
55. Smith *Reformation*, 666.

CHAPTER XXXIX

1. Pastor, VII, 6.
2. Ibid., 5.

3. Pastor, X. 385.
4. XI, 40.
5. Cellini, *Autobiography*, i, 123.
6. Pastor. XI, 50.
7. *Camb. Mod. Hy*, II, 233.
8. Ranke, *Popes*, I, 125.
9 Froude, *Council of Trent*, 313.
10. Pastor, XI, 356.
11 X II, 61 f.
12. Ibid, 154.
13. Robertson, *Charles V*, II, 401
14. Pastor, XIV, 72
15. Armstrong, *Charles V* II. 361.
16. Pastor, XIV, 126.
17 Ranke, *Popes*, I, 218.
18. Pator, XIV, 345.
19 Ibid., 142-3.
20 Ranke, I, 226.
21. Ibid., 227.
22. Acts, XIX, 19.
23. Putnam, *Censorship of the Church of Rome*, I, 1.
24 Draper, *Hy of Intellectual Development*, II, 214.
25. Pastor, XIV, 277 f.
26. Sarpi, *Istoria del Concilio Tridentino*, II, 91, in Symonds, *Catholic Reaction*. I, 154.
27. Robertson, *Freethought* I, 456-7.
28, Pastor, XII, 503.
29. Ranke, I, 159.
30. Pastor, XII, 508.
31. XIV, 286.
3 ibid., 300.
33. Ibid.
34. 414f.; Ranke, I, 235.
35. Ibid., 245n.
36. Admitted by Janelle. 78.
37. Ibid., 71.
38. *Camb. Mod. Hy*, II, 664, 678.
39. Sarton, II-2, 916.
40. Ranke, I, 153; *Camb. Mod. Hy*, II, 667; Froude, *Edward VI*, 9 f.
41. Ranke, I, 155; *Comb. Mod. Hy*. II, 668.
42. Lea, *Sacerdotal Celibacy*. 518
43. Froude, *Council of Trent*, 283
44. Pastor, XIII, 116.
45. *Camb. Mod. Hy*. II, 675; Ranke, I, 252.
46. Ibid., 251.
47. *Camb. Mod. Hy*. II, 680.
48. Session XXV; Cath. En.; VII, 787.
49. For Italy cf. Symonds, *Catholic Reaction*, I, 214, 333; for Spain, Lea, *Auricular Confession*, II, 426.
50. Lacroix, *Prostituton*, II, 1156
51. Figgis, *From Gerson to Grotius*, 43; Robertson, *Charles V*, II, 515-6; Tain, *Italy: Rome and Naples* 240.

تصويب الاخطاء الطباعية

نورد الصواب وحده فيما يلى :

صفحة	سطر	
٨	٤	الريح
١١	٤	توماس
١٥	١٧	فحص
١٦	١٢	كنابليون
١٧	١٦	المنظم
٢٤	٢١	قيل إن
٢٥	٥	الطبيب
٢٦	١٤	وتسامحهم
٢٩	١٥	ويقترح
٤١	٤	يستند
	٨	Pléiade
٤٢	١٦	وجلّل
٥٠	١٣	بجيله
٥١	١٧، ١٨	فى كتاباته
٥٣	١٠	وقد ظل
٥٤	٢	مراندا
٥٥	٢٠	Diana
٦٠	٨	ألان
٦٧	٢٠	كانت
٦٨	١٦	العربية
٧٠	٤	شانتيّى
٧٢	١٤	وقد دمرت
٧٤	١، ٢	مكانه قصراً يليق
	١٤	أروقة تعتمد
٧٥	٦	فيليبير
	٨	وقومها
٨٣، ٨٤	٢٤	رالمياه والسماء
٨٧	٨	غداءهم
٨٨	١	واهتمامه بالحشود
	١٦	وجوههم
٨٩	٨	الكلسى
	٢١	دوق
٩٥	١٥	وُصِفت
٩٩	٦	لإعالة قلة
١٠٠	١٣	زوجته
١٠١	١	فروبن
١٠٣	٣	مكتئباً
	٧	لفروبن
١٠٥	٩	هولبين
	١٩	أظهر
١٠٦	٨	ضحاياه
١٠٨	١٨	المتزاحمة
١١٠	١٧	وميكلانجلو
١١١	٣	لمؤسسه
١٣٨	٢٤	الكوكب
١٤٥	١٣	المكتبة الأم
١٥٠	٢٢	دوبوا

صفحة	سطر	
١٥٤	١١	أوربيي
١٦٥	١٣	فروبن
	٢٣	تفوه بعبارات
١٦٦	٤	طبيباً
١٦٧	١٥	باراسيلوس
١٧٣	٢١	Discours sur
١٧٤	٤	بهرقول
١٧٨	٢١	هزليات تهكموا
١٨٥	١٤	والتفكير
١٨٦	٢٠	البروتستنت بياذق
١٨٧	١٧	لوكنا
١٨٨	٣	» »
	٨	Lactanico
١٨٩	٤	أما جوليا
	١٦	تقريبا
١٩٣	٥	بييترو
	١١	كارافا
	١٤	وريجينالد
١٩٤	٧	Carita
١٩٥	١٣	وسط
١٩٨	٤	والترخيصات
	١١	الياندر
	١٤	موروني
	٢٤	جميع
٢٠٢	٢١	التي لاءمت
	٢٤	آية ... مشرفة
٢٠٣	٢٣	حماها
٢٠٤	٢٤	في عيد

صفحة	سطر	
٢٠٩	٥	وألبه
	١٩	أونيز
٢١١	٦	أكمبيس
٢١٤	٩	الألبي
	١٣	بحياة
٢١٦	٨	وأن
٢١٧	٦	وباسكاز
٢١٨	٢٥	أمراً
٢٢٠	١٢	قط إجناتيوس
	١٦	مقامه في
	٢٥	المجمع
٢٢٢	٢٣	إرادة
٢٢٣	١٩	بمشاركته
٢٢٤	٢٢	وبشروا
٢٢٧	٩	إنجازاتها
٢٣٣	٢١	على هذا
	٢٤	هنا أيضا
٢٣٤	١٦	بالمباني
	٢٠	لا عبيها
٢٤٠	٧	الإكليروس
٢٤٦	١٣	خضع
٢٥٢	١٧	تأليفه
٢٥٣	٨	وإذا
٢٥٥	٤	بومبوناتزي
	١١	والتوسل
	١٢	المناصر
	١٤	للكاثوليكي
	٢٤	تتحطم
٢٥٦	٢	الإيمان

لقد رأينا الثورة الصناعية تبدأ بذلك السيل المتدفق من المخترعات التي قد تحقق قبل أن نصل إلى الألف الثاني للميلاد - حلم أرسطو بالآلات التي تحرر البشر من كل عناء يدوي. ولقد سجلنا المراحل التي خطتها علوم كثيرة صوب فهم للطبيعة وتطبيق أجدى لقوانينها. ولقد رحبنا بانتقال الفلسفية من أفضل الميتافيزيقا العقيمة إلى اجتهادات العقل في شئون البشر الدنيوية. ولقد علمتنا أن نقيم حكومة عادلة قادرة وأن نوفق بين جهود الساسة والفلاسفة الديموقراطية وبين بساطة البشر وعدم مساواتهم الطبيعية. ولقد استمتعنا بمختلف إبداعات الجمال في الباروك والفن الكلاسيكي المحدث وانتصارات الموسيقى.واستمتعناأيما استمتاع بثروة القرن التاسع عشر في الأدب والعلم والفلسفة والموسيقى والفن والتكنولوجيا والحكم.لقد أتممنا على قدر استطاعتنا قصة الحضارة هذه ومع أننا كرسنا معظم حياتنا لهذا العمل فإننا عليمان بأن عمر الإنسان أن هو إلا لحظة قصيرة في التاريخ وبأن خير ما يقدمه المؤرخ من عمل سرعان ما يكتسح حين يطمو نهر المعرفة ويتعاظم. غير أننا ونحن نتابع دراستنا من قرن إلى قرن ازددنا يقناً بأن كتابة التاريخ الرسمي قد أسرف في تجزئتها أبواباً وفروعاً وأنه ينبغي لبعضنا أن يحاول كتابة التاريخ كلاً كما كان يعاش في جميع وجوه الدراما المعقدة الموصولة .

لقد انقضت الآن أربعون عاماً من المشاركة السعيدة في ملاحقة التاريخ. وكنا نحلم باليوم الذي نكتب فيه آخر كلمة في آخر مجلد. والآن وقد أقبل هذا اليوم سنفتقد الهدف الممتع الذي أضفى على حياتنا معنى واتجاهاً. وإننا لشاكر فإننا للقارئ الذي صاحبنا هذه لسنين الكثيرة بعض الرحلة الطويلة أو كلها. لقد كنا على الدوام واعين بحضوره. والآن نستأذنه في الرحيل ونقرئه تحية الوداع ...

